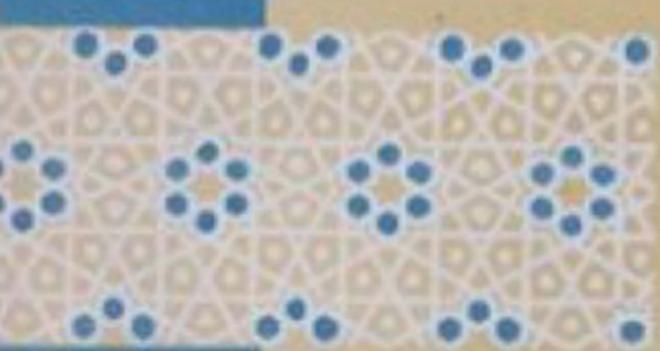


من القب و شخصيات

العقرب العسكري في غزوan الرسول



بقلم
عبد / محمد فرج



عنوان
عبدالعزيز

قسم له
انوار النادى

نِدَاءُ بَلْقَانِيَّات

الْعَبْرَقِيرَةُ الْعَسْكَرِيَّةُ
فِي
عَرَوَاتِ الرَّسُولِ

بِقَلْمَنْ

عَقِيدَ مُحَمَّدْ دَفْرَج

عُرْفَ بِهِ :

قَدْمَ لَهُ :

مُحَمَّدْ أَبُوزَهْرَة

أَنُورُ الْسَّادَات

إهْدَاء

لِجَاءٍ إِلَى اللَّهِ الْكَرِيمِ وَأَسْلَمْتُ لَهُ
وَأَسْتَقْرَأْتُ كِتَابَهُ الْقَوِيرِ، وَأَهَدَيْتُ بِهِ
وَأَسْتَخْرَجْتُ كِتَابَ هَذَا مِنْ وَحْيِهِ
وَرَفَعْتُهُ إِلَى اللَّهِ قُرْنَى، فَعَسَاهُ يَتَقَبَّلُ
وَقَدَّمْتُهُ لِنَبِيِّهِ بَحْوَى، مَفْلَعَهُ يَشْعُعُ وَيَسْتَغْرِفُ
وَأَهَدَيْتُهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْجَاهِدِيهِ ذِكْرَى.
وَحَمَلْتُهُ إِلَى الْأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ أَمَانَةً وَعُقبَى
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

تقديم الكتاب

بتسلّم

أنور السادات

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلوة والسلام على رسوله الكريم، وبعد، فقد كتب كثير من الكتاب المؤرخين عن غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام، وتبعوا دوافعها وأساليبها ونتائجها وأشاروا بالدراسة والبحث، ولكنها لسمو شأنها، وعظمت تأثيرها، في تاريخ العالم الإسلامي، بل في تاريخ العالم بأجمعه، مازالت تتطلب الكثير من الجهد، وتفتح صدرها للعقل الباحثة الدراسة لتنق卜 عن المزيد من آثارها في حياة الجماعات الإسلامية ولتجتمع هذه الأحكام الخالدة السامية التي فرضها الرسول، عليه صلوات الله وسلامه على نفسه وعلى المجاهدين من المسلمين في أثناء الغزو، فتوافقت هذه الأحكام مع أحدث قوانين الحرب الحديثة.

نعم، مازالت غزوات الرسول وحروبها وستظل على مدى التاريخ ميداناً واسعاً فسيحاً للبحث والاجتياح، وحقلاً خصيّاً للدراسة الوعاء.

لذلك رحبت بكتاب « العبرية العسكرية في غزوات الرسول »، ورأيت فيه متابعة طيبة لدراسة هذه الغزوات من جميع نواحيها، ولم يغب عن تفكيري أن المتوفر على هذه الدراسة رجل درس فن الحرب، فهو حين يعالج هذه الغزوات، فإنما يعالجها بروحه وطبيعته العسكرية، التي لا شك في أنها تجلو بعض ما يستغلق على فهم سواه من غير العسكريين.

وقد استرعى نظري في كتاب المؤلف هذه المقارنة البارزة بين غزوات الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وبين الحروب الحديثة، فتناول كلًا منها

بالدراسة والتحليل ، منتهياً إلى المبادئ القوية والمثل العليا التي حققتها الفزوات الحمدية ، والتي أخذت منها كثير من قوانين الحرب عند الأمم المتقدمة .
ولما إذا أقدم هذا الكتاب إلى قراءة العربية ، أرجو أن يجدوا فيه ما يعينهم على تفهم سيرة الرسول من الناحية الحربية والعسكرية ، وما وضعه صلوت الله وسلامه عليه ، من مبادئ إنسانية خالدة ستظل دستوراً للأمم جماعات وأفراداً يهدوها إلى سواء السبيل . والله ولي التوفيق ٢

أ نور المسادات

تعريف بالكتاب
بقلم الأستاذ الشیخ

محمد أبو زهرة

- ١ -

إن الحمد لله نحمنه ونستعينه ، ونستغفره ، ون Tob إلـيـه ، ونـعـوذ بـالـهـ من
شـرـورـ أـنـفـسـناـ وـسـيـثـاتـ أـعـمـالـنـاـ .ـ مـنـ يـهـدـهـ فـهـوـ الـمـهـدـيـ ،ـ وـمـنـ يـضـلـلـ فـالـهـ مـنـ
هـادـ ،ـ وـنـصـلـيـ وـنـسـلـمـ عـلـىـ سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ الـذـيـ بـعـثـ رـحـمـةـ لـلـعـالـمـيـنـ ،ـ وـأـرـسـلـهـ الـهـ تـعـالـىـ
بـالـحـقـ وـالـمـيزـانـ يـقـومـ النـاسـ بـالـقـسـطـ ،ـ وـأـنـزـلـ الـحـدـيدـ فـيـهـ بـأـسـ شـدـيدـ وـمـنـافـعـ
لـلـنـاسـ لـيـحـمـلـ بـهـ عـلـىـ الـجـادـةـ مـنـ لـاـ يـقـنـعـهـ دـلـيلـ ،ـ وـلـاـ يـدـرـكـ حـقـاـ بـلـ يـضـدـ
وـلـاـ يـصلـحـ .ـ

- ٢ -

أـمـاـ بـعـدـ ،ـ فـإـنـ الـحـربـ حـقـيقـةـ وـاقـعـةـ فـيـ هـذـاـ الـوـجـودـ ،ـ لـأـنـ الـهـ سـبـحـانـهـ
وـتـعـالـىـ مـنـذـ أـخـرـجـ إـبـلـيـسـ مـنـ رـحـمـتـهـ ،ـ وـهـبـطـ بـآـدـمـ إـلـىـ هـذـهـ الـأـرـضـ كـانـ الـعـدـاـوـةـ
مـسـتـحـكـمةـ بـيـنـ قـوـىـ الشـرـ يـبـنـهاـ إـبـلـيـسـ فـيـ هـذـاـ الـعـالـمـ الـإـنـسـانـيـ ،ـ وـقـوـىـ الـحـيـرـ تـدـعـوـ
لـيـهـ الرـسـلـ وـلـذـاـ قـالـ تـعـالـىـ «ـ اـهـبـطـواـ مـنـهـ جـمـيعـاـ ،ـ بـعـضـكـ لـبـضـ عـدـوـ»ـ .ـ

وـإـنـ مـنـذـ قـلـ قـاـيـلـ أـخـاهـ هـاـيـلـ إـذـنـسـ عـلـيـهـ أـنـ الـهـ قـبـلـ قـرـبـانـهـ ،ـ وـلـمـ يـقـبـلـ
قـرـبـانـ أـخـيهـ ،ـ وـالـدـمـاءـ يـبـنـ بـنـ آـدـمـ لـاـ تـجـفـ وـلـاـ يـذـهـبـ نـجـيـعـهـ ،ـ وـمـنـ أـجـلـ ذـلـكـ
كـانـ الـقـصـاصـ لـمـنـعـ الشـرـ فـيـ دـاخـلـ الـأـمـةـ ،ـ كـماـ قـالـ تـعـالـىـ «ـ وـلـكـمـ فـيـ الـقـصـاصـ
حـيـاةـ ،ـ وـكـانـ الـقـتـالـ لـلـدـفـاعـ عـنـ الـحـوـزـةـ وـلـدـفـعـ الـفـسـادـ وـمـنـعـ الشـرـ مـنـ أـنـ يـسـتـشـرـىـ
وـيـكـثـرـ وـيـسـوـدـ فـيـ الـعـالـمـ ،ـ وـلـذـاـ قـالـ تـعـالـىـ «ـ وـلـوـلـاـ دـفـعـ الـهـ النـاسـ بـعـضـ بـعـضـ
لـفـسـدـ الـأـرـضـ ،ـ وـلـكـنـ الـهـ ذـوـ فـضـلـ عـلـىـ الـعـالـمـيـنـ»ـ .ـ

وإذا كانت الأديان السماوية تدعوا إلى الخير ، وينشره الرسل في هذا الوجود
ويقاومون به الشر ، فإنه لا بد من أن تشرع الحرب في الشرائع السماوية ،
ولإلا كان الغلب للشرار ، وتهدمت بيوت العبادة « واستحكم الفساد ، ولذا
قال تعالى كلماته « ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لخدمت صوامع وبقع
وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله
لقوى عزيز » .

ولذلك دعا موسى بن إسرائيل إلى القتال فجبنوا عن اللقاء ، وخاروا أمام
الأعداء ، لما في طبيعتهم من خور ، ولأنهم لا يعتمدون إلا على قوى مادية
من غيرهم ، لامن ذات أنفسهم لأنهم كان ، ينقصهم الإيمان باقه تعالى
حق الإيمان .

وكذلك كانت الحرب من بعد موسى ، اقاد الجيش إلى مواطن الظفر
نبي الله داود عليه السلام ثم قاده إلى مواطن السيادة والشرف من بعده سليمان
عليه السلام الذي قال سبحانه في وصف كمال سلطاته « ولسمان الرج غدوها
شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعلم بين يديه بإذن
ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعلمون له ما يشاء من
خارب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكرآ ،
وقليل من عبادي الشكور » .

كانت الحرب إذن بين النبيين ، والذين يرثون إيزادهم ومنع تبليفهم
رسالات ربهم ، وكان لا بد لمحمد صلى الله عليه وسلم من أن يقاتل أعداء الحق
وأعداء الله ، ليحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر الجرميين ، وقد قاد محمد صلى الله
عليه وسلم الجيش ، وقاتل المشركين وكان قتاله تتمثل فيه تلك الحقيقة الحالية
التي قررها عليه السلام إذ يقول أنا نبي المرحمة ، وأنا نبي الملحمة ،

فيهذه الروح القوية التي لا تقاوم عن الالتحام والقتال عندما توجد
حوايعها ، ويقتضي الحق القيام بها ، ويتعين أنه لا سيل إلى رفع شأنه
وغضض الباطل إلا بها ، كانت الرسالة المحمدية ، وبهذه الروح السمحنة الرقيقة
كانت المعاملة في القتال وبعد القتال ، وفي الحق أن الرحمة التي جامت بها الرسالة
المحمدية كما قال الله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » هي التي دفعت إلى
القتال ، فليست رحمة الإسلام هي الشفقة المجردة ، إنما رحمة الإسلام هي
الرحمة التي تم ولا تخنق ، ومن الرحمة بالمجموع الأخذ على يد الظالم ، ومن
الرحمة بالعالمين دفع شر المعتدين ، فكان الدافع إلى القتال هو الرحمة ، وكان
القتل في أضيق صورة ، فكانت الرحمة تظل القتال أيضاً .

- - -

ولقد قاتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وقاتل معه ربيون كثيرون من أصحابه
وأتجهوا إلى فنون القتال مع ضروب الشجاعة التي اختصوا بها ، ومع تسرب لهم
بسر بالآيدين الذي امتازوا به ومع تزودهم بالتفوى التي يدعون إليها ويدافعون
عنها ، فاخانوا وما غلوا ، وما تبعوا عورة ولا اتهكوا حرمـة ، مع قيادة
النبي صلى الله عليه وسلم لمـ في مهـارـة واضحـة ، وسـيـاسـة في القـتـال حـكـيمـة ، فـكانـوا
مع النبي بـحقـ أسـودـاً في النـهـارـ وـعـبـادـاً في اللـيلـ .

وكان لـابـدـ من تسـجيـلـ هـذاـ وـتـوـضـيـحـهـ وـيـانـهـ . ولـقـدـ استـفـاضـتـ كـتبـ
الـسـيـرـةـ المـبارـكـةـ بـأـخـبـارـ هـذـاـ فـرـواـيـةـ صـادـقـةـ حـكـمـةـ وـعـبـارـاتـ مـوـضـحـةـ مـصـورـةـ .

ولـكـنـاـ فـيـ العـصـرـ النـذـيـ تـقـدـمـتـ فـيـ الـحـرـوبـ ، وـتـعـدـتـ أـسـالـيـبـهاـ وـتـنـوـعـتـ
أـدـواتـهاـ ، حـتـىـ صـارـتـ فـنـكـاـ لـلـبـشـرـيـةـ ، نـحـتـاجـ إـلـىـ كـاتـبـ حـرـبـ يـنـبـهـ إـلـىـ مـاـ فـيـ
حـرـوبـ النـبـيـ صلىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ مـنـ عـبـرـ ، وـمـاـ فـيـهاـ مـنـ شـجـاعـةـ وـتـقـيـ ، وـمـاـ فـيـهاـ
مـنـ عـدـالـةـ وـإـيمـانـ بـالـحـقـ ، وـمـاـ فـيـهاـ مـنـ مـهـارـةـ فـيـ سـيـاسـةـ الـحـرـوبـ مـعـ تصـوـنـ
كـرـيـمـ عـمـاـ يـخـلـ باـحـتـرـامـ الـإـنـسـانـيـةـ حـتـىـ فـيـ مـيـدانـ الـقـتـالـ وـمـعـ حـقـنـ دـمـاءـ مـنـ
لـاـ يـحـمـلـونـ سـيـفـاـ ، وـلـاـ رـأـيـ لـمـ فـيـ قـالـ .

- ٦ -

ولقد سخر الله تعالى لهذا البحث الشاب التق العقيد محمد فرج ، وهو من الذين تمرسوا بالحرب ، وخبروها ، وعركتهم وعركوها ، فإن تكلم في حروب النبي صلى الله عليه وسلم فمن خبرة يتكلم ، وإن حكم عليها من حيث الفن الحربي بمقاييس مضبوطة وبموازين حكمة ، وهو فوق ذلك الذي افتدى الحق بنفسه ، فعرف قيمة القداء في الحروب واشتراك في حرب فاجرة من الأعداء فعرف مقدار السماحة في حرب النبي صلى الله عليه وسلم .

- ٧ -

ولقد عالج المؤلف التق حروب النبي من الجهة العسكرية الفنية ، فيبين أنه عليه السلام أدخل في الحرب فنوناً لم تكن معروفة عند العرب ، ونظم جيوشه تنظيمها حكيمياً يقوم على أسس حكمة من الخطط العسكرية التي لم تكن معروفة في عصره .

ويتبع غزواته عليه السلام غزوة غزة ، مبيناً ما أدخله في كل واحدة منها من تنظيم عسكري ، لم يكن معروفاً من قبل ، ويبيّن مبارزة المؤمنين لصناديد المشركين كبارزة فارس الإسلام على بن أبي طالب لعمرو بن عبدود العامري ، ومبارزته لمرحب قائد يهود خير وفارسهم ، وكيف كان على يقاتل بالقوى واللهم ، وخصمه يقاتل للشهرة ولجرد الفروسية ، وكيف كانت مبارزة ذلك الرباني التق عزة لجيش الإسلام وإبقاء الرعب في قلوب الأعداء .

ولقد بين بعد كل غزوة ما يستفاد منها ، وما تشتمل عليه من معان إنسانية سمححة ، وقد أوفى ذلك وقارب فيه الغاية ، وكان مسدداً موافقاً .

- ٨ -

ولقد كنا نود من الكاتب أن يوازن بين المعان الإنسانية في حرب النبي عليه عليه وسلم ، والحروب الحاضرة الفانكة الخامسة التي تصيب البريء أكثر ما تصيب الآمنين ، كما كنا نود أن يوازن لنا بين سماحة محمد عندما قال

لمن قاتلوه غاشيين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وما فعله قواد الحروب الفاجرة
في عصرنا مع القواد المهزمين الذين سموهم مجرمي الحرب ، كثنا نود أن
يوازن بين قتال النبي وأنه كان لا يمس إلا المقاتلين ، وحروب أهل العصر التي
تنزل بالآمنين قبل المقاتلين ، وكثنا نود أن بين رفق النبي بالأسرى وبين
معاملة المعاصرين للأسرى ، وأن الحرب الحاضرة التي انتهت منذ أكثر من
إحدى عشرة سنة ما زالت أسرارها يعانون الضيم وعدائب المون ويسلامون
الخسف والبلاء ، وأن حالم أشد من حال الرقيق وإن كانوا يتناهون
بالغاء الرق .

كثنا نود بيان هذا وغيره ، ولكن هذا لا ينقص من قدر الكتاب
 فهو دراسة عبقة فاحصة ، ولا يخلو عمل البشر من نقص ، والكل لله وحده .

محمد أبو زهرة

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله القوى القاهر ، وأصلى وأسلم على نبيه المتصور الظافر ، وعلى آله وأصحابه وأنصاره ، ومن دعا بدعونه ، وجاحد على سنته وصبر على شريته سلاماً مباركا طيباً إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد كتب لي في عام ١٩٥٥ أن أذور الأراضي المجازية حاجاً إلى بيت الله الكريم ، وزائرأ قبر رسوله العظيم ، وفي رحاب الكعبة الشريفة التقيت بفتنة من الباحثين في شتون الدين ، وتحدى كل منا من زاويته الخاصة ، وكان حدثي من الزاوية العسكرية ، وطلب مني الكثيرون أن أعد كتاباً عسكرياً عن الرسول صلى الله عليه وسلم – فقد كتب عن رسول الله كثير ولم يتناول أغلب الكتاب هذه الناحية من حياة الرسول بالبحث والتحقيق – ورمت فذهني فكرة الكتاب فتوجهت إلى الله العظيم أسأله أن يغدق على من القراءة والبركة ما يجعلني أهلاً لما تصدّيت له وعزمت عليه من عمل يحبه وجهد يرضاه ، وأخلصت فيها انتويت ، وأصفت له عقل واتخذته عبادة خالصة نقية فـه تعالى يكفر بها عن سينائي ويمحو خططيائني .

وبدأت أقرأ كل كتاب من كتب الدين وأبحث كل كتاب من كتب السيرة وشهدت حجرة مكتبي خلال عامين سهراً طويلاً متصلة بين المراجع والمصادر ، وصبراً نادراً بين الكتب والورق والقلم ، ومازلت أذكر زوجتي وقد وقفت بجانبي تخفف من حدة الجهد وتيسّر سبل سهر الليالي وتدفعني كما عودتني إلى تحقيق الأمل بتجشم الصعاب .

و قبل أن يتهي شهر رمضان من عام ١٣٧٦ (١٩٥٧) كنت قد انتهيت من إعداد (البروفات) الأولى ، وهأنذا اليوم أقدم كتابي بعد أن تم عمله و اكتمل نموه ولبس ثوبه الأخير إلى قراء الأمم الإسلامية راجياً أن يكون قد حق لنفسي ما أطمح إليه من غاية هي رضاء الله تعالى و رضاء رسوله الكريم ، آملًا أن أكون قد وقفت في إبراز ناحية خاصة من حياة الرسول الكريم ، أغلقتها الكتاب والموزخون في كتاباتهم أو مروا عليها مروراً عابراً فلم يقفوا عليها أو يشيروا إليها إلا بما تقتضيه الضرورة .

ولقد أحاطني السيد أنور السادات – الذي ألقيت إليه مقابليد النهوض بالفکر الإسلامي في عصرنا هذا المجيد – برعاية أحسد عليها ، وفضل مشكوراً بعد أن اطلع على الكتاب ، بكتابية مقدمة أجدهن سعيداً بأن أتوج بها الكتاب كأفضل أستاذى الجليل محمد أبو زهرة بتعريف القارئ بالكتاب ولقد أخذ علينا بعض المأخذ ، وأنا أطمئن فضيلته إلى أن مأخذ هذه هي موضوع كتاب جديد أرجو أن أوفق فيه بما يرضي فضيلته إن شاء الله .
والكتاب الآن بين يدي القراء ..

و أنا أرجو أن يكون في صورة يرضي عنها المسلمين الذين يؤمّنون بالله واليوم الآخر ، وبما أنزل على محمد وهو الحق من ربهم ، والذين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، والذين يؤمّنون بأن الكمال غاية الكمال لله وحده وآله ولـى التوفيق ۹

مطر فرج

الباب الأول

وراسخ عمَّا يرى للحرب

- الحرب من وجهة نظر قریش
- لم يكن الرسول معتدياً
- الحرب في القرآن
- عوامل الاقتتال
- الحرب في الأديان الأخرى
- أسلحة الحرب عند المسلمين
- توحيد جبهة المسلمين

الحرب من وجهة نظر قريش

خرج الرسول من مكة إلى المدينة ، بعد أن قضى بعده ثلاثة عشرة سنة . هاجر الرسول من موطنه عندما اشتدت قريش في تعذيبه وتعذيب من اتبعه من المسلمين ، وما كانت قريش لتخفف من تعذيبها إلا إذا ترك هؤلاء جميعاً رسالة محمد وعادوا إلى ديانتهم الأولى ، فيبعدون الأوّلانيّون وبطلون على ما كانوا عليه من الفوضى والفسق والفجور .

ثلاث عشرة سنة حاربت فيها قريش محمداً سرّاً لا هوادة فيه ، وقد رأت في دينه الجديد خطرًا عليها وعلى دينها .. وحاربت قريش هذه السنين الطويلة للقضاء على الدعوة الجديدة التي يحمل لوادها محمد بن عبد الله .. هددته وهددت أهله وأعمامه .. تهكمت به وبدعوته ، وسخرت منه ومن اتبعه .. أرسلت شرّاءها تهجوه .. نالته بالآذى ونالت من اتبعه بالسوء والعذاب .. عرضت عليه الرشوة .. وعرضت عليه الملك .. وعرضت عليه كل ما يطمع فيه بشر .. ولما رفضت عروضها ، شردت أنصاره عن أبوظانهم وأصابتهم في أموالهم وتحاربهم وأرذلتهم ، وحاصرتهم لنقضي عليهم جوعاً .. وأخيراً قررت أن تقتل مهدياً ، رئيس الدعوة فقتل بذلك الدعوة كلها .. وأوحى إلى محمد بالهجرة بعد أن ظل هذه السنين الطويلة متحملاً أذى قريش صابرًا على إسانتها ، ثابتًا على مبدئه ورسالته ، مصمماً على أن يستمر فيها حتى يظهرها الله أو يهلك فيها .

ولقد صور وليم موير William Muir مدى ما تحمله محمد صلى الله عليه وسلم وقومه من تصرفات قريش في قوله « احتمل المؤمنون العذاب بروح الصبر والسماح فاثأة رجل وامرأة آثروا نبذ الوطن وراغم ظهرياً ، وسعوا إلى معزل في الحبشة ، فراراً من أن يفتتوا في دينهم العزيز عليهم حتى يقضى الله أمرأً كان مفعولاً ، فيما أن يعاقب الزمان على العاصفة فيخدمها ، وإما أن

يستنفذه معينها فتبيّد ، وهام أولاء الآن في عددٍ كبرٍ بكثيرٍ وفيهم النبي صلى الله عليه وسلم نفسه يخرجون من مدinetهم الوالهين بها ، المتفانين في تقدير هيكلاها المقدس ، أقدس ما على الأرض في عرفهم ، فراراً بدينهم إلى المدينة . ،

نرى ما الدوافع التي دفعت بقريش في طريق الرسول فهاجته وعارضته
وحاولت تقويض دعوته وهدم رسالته ؟ ولماذا وقفت منه هذا موقف ..
يمحصر المؤرخون هذه الدوافع في الآتي :

١ - أنزل القرآن ليكون هادياً ومرشدآ للعرب ، وهو لاء كانوا قد ظلوا
فترة طويلة غارقين في الشرك ، منغمسين في عبادة الأوثان والأصنام ، عاكفين
على شرب الخمر ولعب الميسر وغير ذلك من العادات القبيحة ، فلما أعلن الرسول
(ص) منذ البداية ، أن رسالته تتجه إلى هداية الناس نحو الطريق القويم
والصراط المستقيم ، وتطهيرهم من العادات الذميمة ، وعلاجهم من سوءاتهم
وإنقاذ نفوسهم من الضفينة والحدق والحسد ، هبت البلاد كلها في وجهه ووقف
أعداؤه يقاومونه كل المقاومة ، إذ لم يكن ما جاء القرآن سهل القبول لدى
أولئك القوم الذين عرفوا بالعناد وشدة المراس .

٢ - دعا الإسلام - دين محمد الجديد - إلى المساواة فلا فرق بين الناس ..
لافرق بين هذا وذاك ... لافرق بين عبد وسيد ... السكل سواسية كأسنان
المشط لا يفرق بينهم إلا الصلاح ... صلاح النفس وتقوتها ومدى تقرها
من الله وتنفيذها لتعاليمه واتباعها لرسالة رسوله . لقد كان المبدأ الجديد الذي
ينادي به الدين الجديد هو « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »^(١) .. وهذا
مبدأ خطير في الجزرة العربية وفي الوسط العربي الذي لمعت فيه أسياد قريش
ورؤساء القبائل وكان فيه عبيد ، وكان فيه رق ، أى كان هناك سادة وكان هناك
عبيد ، والدين الجديد يلغى هاتين الطبقيتين ويدمجهما معاً ويجمعهما طبقة واحدة ،
بل وأكثر من ذلك فهو يعطي الفرصة لآى من العبيد ليسود إذا كان صالحـاً

(١) سورة الحجرات ١٣ .

طيبةً كريماً تقىأ ورعاً . يعبد الله ويؤدى الأمانات إلى أهلها ويؤمن بالقرآن
دستور الإسلام ، ويعمل على تفزيذ تعاليمه بدقة .

وكيف يرضى أبو سفيان وأبو جهل وغيرهما من سادة قريش أن يتنازلوا
عن مكانهم وعن مركزهم لبعض عبادهم ؟ وكيف يسمحان لأنفسهما ولغيرهما
أن يجمعهما وعيدهم مكان واحد ؟

إذن فالحرص على النظام القديم جعل سادة قريش يقررون أن يقاوموا على
دينهم ودين آبائهم .

٣ - تحدث كثيرون عن النبي جديداً يظهر بين العرب ويقوم فيهم ، وطبع
كثيرون في النبوة حتى أن بعض العرب عندما علموا أن النبي المنتظر اسمه محمد ،
أطلقوا هذا الاسم على أبناء لهم ، أملا في أن يكون كل منهم النبي المنتظر ،
فها هو ذا أمية بن أبي الصلت كان يريد لنفسه أن يكون النبي الجديد ، وحينما لم ينزل
عليه الوحي أكلت الغيرة قلبه ، ولم يرض أن يتبع الرسول في دعوته ظناً منه
أن الرسول منافسه برغم كونه شاعراً ، تغلب الحكمة على شعره ، حتى إن
الرسول الكريم عندما استمع إلى شعره قال : أمية آمن شعره وكفر قلبه ..

وها هو ذا رجل آخر هو الوليد بن المغيرة يقول : « أَيْنَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ
وأَتَرَكَ أَنَا كَبِيرٌ قَرِيشٌ وَسِيدُهَا ، وَيَتَرَكَ أَبُو مَسْعُودٍ عَمْرُو بْنَ عَمِيرٍ التَّقِيِّ
سِيدُ ثَقِيفٍ ، وَنَحْنُ عَظِيمُ الْقَرِيبَيْنِ ؟ » ، وفي هـذا يقول الله تعالى :

« وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ
أَعْمَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا يَتَّهِمُونَ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (١) »

وذهب الأحسن إلى أبي جهل في بيته وسأله :
ـ يا أبا الحكـمـ ، مـارـأـيكـ فـيـا سـمعـناـهـنـ مـحمدـ ؟

(١) سورة الزخرف ٣١

فكان جواب أبي جهل :

— ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف . أطعمنا فأطعمنا ،
وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تنازدنا على الرُّكْب وكنا كفري .
رهان قالوا ، منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فتى ندرك مثل هذه ؟ والله
لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

لإذن فالغيرة والحسد والتنافس كانت من أول العوامل التي دعت إلى رفض
دعوة محمد ومحاربتها ومحاولة القضاء عليها ، وما لا سبيل إلى إنكاره أن هذه
الصفات المذمومة كانت تجدها رعياً طيباً في بلاد العرب وقت الجاهلية ، وكان
التخلص منها يحتاج إلى تهذيب طويل الأجل يعقل الأفتدة ، ويرفع حكم
العقل على نزعات الهوى ، ويسمو بالعاطفة والزوج إلى مكانة تجعل المرء يرى
الحقيقة على لسان خصمه وعدوه كما يراها على لسان صديقه ووليه .

٤ - وعامل رابع هام فإن العرب في جاهليتهم كانوا أقوماً مكينين على الله
مسرفين فيه ، اتخذوا من الربا وسيلة للثراء ، وانعدمت عنهم القيم الأخلاقية .
ويقطة الضمير ، فهم لا يترددون في الإتيان بأسوأ الأعمال وأحاط التصرفات ،
كأن يقتل أحدهم وينهب ويسرق ويرتكب الفحشاء ويأتي بالموبقات ، وكان
ما يدفعهم إلى ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن زيارة إلى أصنامهم وضرب القداح
عندها من شأنه أن يكفر عن سيئاتهم وذنوبهم ، وجاء محمد صلى الله عليه وسلم
يعلن عليهم في آياته ما تنطع من هوله قلوبهم وتضطرب أفتدتهم .. لقد أعلن
عليهم أن الله بالمرصاد وأنه تعالى يمهد الظالم ولا يهمله ، وأن أعمال الناس هي
الشفيق لهم يوم يبعثون .. إذن فهم قد عرفوا أن هناك حساباً في دين محمد ..
حساباً عسيراً وليس أمامهم من سبيل إلا إزاء هذا الحساب إلا أن يتنازلوا عن
عاداتهم القيحة وأعمالهم المموجية ، وأن يتركوا أمر الجاهلية وأن يبدموا عهداً
جديداً .. وهذا أمر مستغرب بالنسبة لهم ، إذ كيف يتنازلون عن عاداتهم
وما نشروا عليه ، لقد فزعت قلوبهم وهم يستمعون إلى الرسول الكريم يردد
عليهم يوم الحساب ويقدم لهم صورة لما سيحدث في هذا اليوم الجليل الخطير ..

«إِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ . يَوْمَ يَفِرُّ الْمُرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَيْهِ .
 وَصَاحِبِتِهِ وَبْنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَانٌ يُفْنِيهِ . وَجُوهٌ
 يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ . وَوَجْهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ رَهْقَهَا
 قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَّارُ الْفَجَرَةُ»^(١) .. «يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ
 وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعَنْ، وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصِّرُونَهُمْ يَوْمًا
 الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ يُفْنِيهِ . وَصَاحِبِتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ
 الَّتِي تُؤْوِيهِ . وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا هُمْ يُنْجِيهُ . كَلَّا إِنَّهَا لَظَى . نَزَاعَةٌ
 لِلشَّوْى . تَدْعُو مِنْ أَدْبَرٍ وَتَوْلَى . وَجْمَعَ فَأَوْعَى^(٢) .. «وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
 كِتَابَهُ بِشَمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لِتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَهُ وَلَمْ أُدْرِي مَا حِسَابِيَهُ
 يَا لِيَتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَهُ . مَا أَغْنَى عَنِي مَالِيَهُ . هَلَّكَ عَنِ سُلْطَانِيَهُ خَذُوهُ
 فَلُلُوهُ هُمُ الْجَحِيمَ صَلُوهُ . هُمْ فِي سِلْسَلَةٍ ذَرَعُهَا سَبْعُونَ ذَرَاعًا فَأَسْلَكُوهُ
 إِنَّهُ كَانَ لَا يَوْمٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ . وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ .
 فَلِيُسَّ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينِ . لَا يَأْكُلُهُ
 إِلَّا الْخَاطِئُونَ»^(٣) .. «وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمَّهُ هَا وِيَهُ . وَمَا أَدْرَاكَ
 مَاهِيَهُ . نَارٌ حَامِيَهُ»^(٤) .

(١) سورة عبس ٤٢/٣٣

(٢) سورة المارج ١٨/٨

(٣) سورة الحاقة ٢٧/٢٥

(٤) سورة القارعة ١١/٨

هذه الآيات^(١) وغيرها دفعت بالذعر إلى نفوسهم ، خافوا وأدى خوفهم إلى زيادة حماستهم في تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ومناؤه والتأليب عليه . . . فهم لا يعرفون البعث ، ولا يؤمنون به ، وهم لا يعرفون أن عملهم في الحياة محسوب عليهم بعد وفاتهم ، ولم يذر في خواطيرهم البعث والنشور يوم ينفح في الصور ، ولم يقفز إلى أذهانهم الجزاء بعد الموت ، ولم يدركوا شيئاً عن الجنة التي أعدت للتقين وجهنم التي أعدت للكافرين – أى هم – والتي صورت لهم في قوله تعالى : « يَوْمَ تَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَرْيَدٍ^(٢) » .

لم يكن الرسول معتمداً

هذه هي بعض الأسباب التي دفعت بقريش إلى أن تحارب محمدأً صلى الله عليه وسلم وأن تعمل على هدم دعوته ، ومن هنا بدأت قريش المجنون . . . وهو ما مختلفة أساليبه ووسائله ، وصبر محمد ثلاث عشرة سنة ، وكان صبره وسيلة من وسائل نشر دعوته ، وسيلاً طيباً لتحقيق رسالته ، إلا أن الأمر تطور تطوراً سريعاً ، فقد رأت قريش في بقاء محمد صلى الله عليه وسلم في المدينة بعد هجرته إليها خطراً كبيراً عليها . . . هناك يزيد أعواه وتفوى شوكته ويدعم دينه ، لهذا قررت أن تخذل وسيلة أكثر عنفاً وأشد قسوة عليها تستطيع بها أن تقضي عليه ، ولم تكن هذه الوسيلة سوى الحرب ، ووجد محمد صلى الله عليه وسلم نفسه أمام أعدائه وجهاً لوجه ، ولم يجد مفرأً من أن يسير في ذات الطريق الذي أوجده أعداؤه فيه ، وكم كان عازفاً عن أن يسلك طريق الحرب ، وكم كان راغباً كل الرغبة في أن يتبعده عن الحرب كوسيلة لنشر دعوته ، فدينه دين سلام ودعوه دعوة إلى السلام ، وهذا كانت حروب النبي كلها حروب دفاع ولم

(١) وصف جنسون Gohnsun القرآن بقوله « هو صيحة نبوية تسمى إلى شفاف القلب ، له من المعنى ما يناسب الجميع ويصلح لكل زمان حتى أنت لم تكن قد تمالت به جميع الأصوات في مختلف المصور وكان له صدأه في القلوب المختارة فدفعها إلى الفتنة والنصر في الدنيا » .

(٢) سورة ق ٣٠ .

تکن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث
العهد والإصرار على القتال ، وتسوى في ذلك حروب الرسول صلى الله عليه
وسلم مع قريش وحربه مع اليهود أو مع الروم .

وبرغم أن الرسول كان يتجنب العداون فإنه كان يحسن من فنون الحرب
ما لم يكن يحسنه المعتدلون عليه ، وهو لم يتتجنب الهجوم لعجز أو خوف
ما يجهله ولا يجيده ، ولكنه اجتنبه لأنه كان يرى في الحرب ضرورة بغيضة
يلجأ إليها ولا حيلة له في اجتنابها وكان يتجنبها كلما تيسرت له الحيلة الناجحة .

وثبت بالدليل القاطع والبرهان الساطع أن النبي لم يكن معتمديا ، وواقع
الأمر أن الإذن بالقتال نزل على النبي بعد أن أعلنت عليه الحرب بالفعل
ويوضح القرآن ذلك : « أَذِنْ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى
نَصْرِهِ لَقَدِيرٌ^(١) ». .

وحتى بعد أن جاء الإذن بالقتال أبى النبي بأن قتاله هو للدفاع فقط
« وَلَا تَعْتَدُوا^(٢) ». .

إذن فالحرب فرضت على النبي وهو نافر منها ، وهذا بذل أقصى ما في
وسعه من جهد للحد من فظائعها ولحصرها في أضيق نطاق ممكناً ، وأعطيت
الأوامر المشددة الصارمة بأنه لا يجوز بأية حال قتل غير المحاربين في الميدان ،
حتى أنه لما وصل إلى مسامع الرسول صلى الله عليه وسلم وعلمه أن امرأة
وجدت بين القتلى في إحدى المعارك أمر بحرم قتل النساء والأطفال وقال :
« لَمْ تَكُنْ حَارِبَةً^(٣) ». .

ولقد اتفق أكثر المؤرخين على أن سيدنا محمدًا لم يكن له غرض للحرب
أو رغبة في القتال ، بل كانت أمنيته أن يؤدى رسالته كما أمره الله تعالى في يسر

(١) الحج . ٣٩ .

(٢) البقرة . ١٩٠ .

(٣) راجع البخاري .

وهدوه ، واتفق أيضاً أكثـر المؤرخين على أنه لم يكن يـذكر في ملك أو مال أو تجارة ، وإنما كان منه الأـكبر وقاية نفسه ورجاله وتوفير الطـمأنينة لـمن يتبعون رسالته ، وكفالة الحرية لهم في عقـيدتهم .. كان يـرى أن يـبقـ كل على دينه وأن تـكفل لـلجميع حرية الرأـي وحرية الدـعوة إلى هذا الدين ، وهذه الحرية كما كان يـرى صـلوـات الله عليه هي الكـافية باـتصـارـ الحق ، وبـتـقدـمـ العـالم نحوـ الـكـمالـ فيـ وـحدـتـهـ العـلـياـ ، وـهـذـهـ الفـكـرـةـ الجـلـيلـةـ هيـ الـتـيـ جـعـلـتـهـ عـلـيـهـ الصـلاـةـ وـالـسـلـامـ يـخـنـعـ لـلـسـلـمـ ، رـاغـبـاـ عـنـ القـتـالـ ، عـازـفـاـ عـنـهـ ، غـيرـ لـاجـئـ إـلـيـهـ فـيـ جـمـيعـ الـأـدـوارـ الـتـيـ مـرـتـ بـهـ دـعـوـتـهـ إـلـاـ لـضـرـورـةـ تـقـضـيـهـ الدـفـاعـ عـنـ الـحـرـيـةـ دـفـاعـاـ عـنـ الـدـيـنـ وـعـنـ الـعـقـيـدـةـ ، وـالـدـلـيـلـ عـلـىـ ذـلـكـ أـنـ رـفـضـ ماـ عـرـضـهـ عـلـيـهـ أـهـلـ يـثـبـتـ فـيـ قـوـلـهـ «ـوـالـهـ الـذـيـ بـعـثـكـ بـالـحـقـ إـنـ شـتـ نـمـيـلـنـ عـلـىـ أـهـلـ مـنـ خـدـاـ بـأـسـيـاقـنـاـ» ..

ولـكنـ مـاحـيـلـةـ مـحـمـدـ (صـ)ـ وـقـدـ دـفـعـتـهـ قـرـيـشـ دـفـعاـ إـلـىـ الـحـرـبـ ..ـ لـقـدـ قـبـلـ أـنـ يـتـخـذـ الـحـرـبـ كـوـسـيـلـةـ لـحـمـاـيـةـ نـفـسـهـ وـدـيـنـهـ وـدـعـوـتـهـ ، عـلـىـ أـنـ تـرـاعـيـ فـيـهاـ الـحـرـمـاتـ الـإـنـسـانـيـةـ ، وـفـيـ هـذـاـ كـلـهـ تـهـذـيـبـ لـفـكـرـةـ الـحـرـبـ (١)ـ فـقـدـ كـانـتـ الـحـرـبـ الـتـيـ خـاطـبـهـ النـبـيـ قـهـرـآـ رـحـمـةـ فـيـ بـدـايـتـهـ لـأـنـ خـوضـهـ كـانـ ضـرـوريـاـ لـلـدـفـاعـ عـنـ الـنـفـسـ ، وـكـانـ لـأـمـرـ فـرـقـ مـنـ إـنـقـاذـ قـوـمـهـ مـنـ مـعـتـدـ أـئـمـ لـهـ لـهـ إـلـاـ القـضـاءـ

(١) لوـ أـنـاـ تـابـعـتـاـ أـسـبـابـ الـحـرـوبـ الـتـيـ قـاتـمـ بـعـدـ الـإـسـلـامـ حـقـ يـوـمـنـاـ هـذـاـ لـأـخـجلـنـاـ أـسـبـابـ تلكـ الـحـرـوبـ وـالـدـوـافـعـ الـتـيـ دـعـتـ إـلـىـ اـشـتـالـ نـارـهـاـ مـاـ يـؤـكـدـ الفـرقـ الـعـاصـمـ الـكـبـيرـ بـيـنـ أـغـراضـ الـحـرـوبـ الـتـيـ خـاطـبـهـ النـبـيـ وـأـغـراضـ الـحـرـوبـ الـتـيـ أـنـيـرـتـ بـعـدـ عـهـدـهـ عـلـيـهـ الصـلاـةـ وـالـسـلـامـ ..ـ انـ المـبـرـزـ جـرـانـتـ Grantـ أحدـ قـادـةـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـعـدـةـ يـوـضـعـ أـسـبـابـ الـحـرـبـ بـيـنـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـعـدـةـ وـالـمـكـسيـكـ (١٨٤٥/١٨٤٨)ـ فـيـ وـصـفـهـ هـذـهـ الـحـرـبـ بـأـنـهـاـ اـحـدـيـ الـحـرـوبـ غـيرـ الـمـادـةـ الـتـيـ تـقـتـلـهـ دـوـلـةـ قـوـيـةـ ضـنـدـ أـخـرـىـ ضـعـيفـةـ أـىـ دـوـلـةـ وـجـدـتـ فـيـ نـفـسـهـ الـقـوـةـ وـالـقـدـرـةـ عـلـىـ هـضـمـ حقوقـ الـدـوـلـ الـصـغـيرـةـ بـجـرـتهاـ إـلـىـ حـرـبـ شـوـاهـ اـصـطـلـ الـجـمـيعـ بـنـارـهـاـ وـشـرـورـهـاـ ..ـ وـكـذـلـكـ كـانـ الـحـالـ بـالـنـسـبـةـ لـوـسـيـاـ فـيـ أـطـمـاعـهـاـ وـعـاـلـوـتـهـاـ التـوـسـعـ وـالـاسـتـهـارـ كـانـتـ الـأـسـاسـ أـيـضاـ فـيـ قـيـامـ حـرـبـ الـقـرـمـ ١٨٥٤ـ ١٨٥٦ـ كـمـاـ كـانـتـ الـأـسـاسـ أـيـضاـ فـيـ قـيـامـ الـحـرـبـ الـرـوـسـيـةـ الـتـرـكـيـةـ ١٨٧٧ـ ١٨٧٨ـ وـالـحـرـبـ الـرـوـسـيـةـ الـيـابـانـيـةـ ١٩٠٤ـ ١٩١٠ـ وـبـرـغمـ اـخـلـافـ السـكـنـاـتـ فـيـ تـحـدـيـدـ مـسـؤـلـيـةـ الـحـرـبـ الـظـلـمـيـ ١٩١٤ـ ١٩١٨ـ فـيـانـ أـسـبـابـ لـمـاـرـتـهـاـ تـرـجـعـ قـبـلـ كـلـ شـيـءـ إـلـىـ رـغـبةـ الـجـنـسـ الـأـلـانـيـ فـيـ التـوـسـعـ وـلـقـدـ قـالـ أـحـدـ رـؤـسـاءـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـعـدـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ إـنـ هـذـهـ الـحـرـبـ قدـ ثـبـيـتـ عـنـ إـمـتـلاـكـ لـأـخـجلـنـاـ الـبـقـاعـ مـنـ السـكـرـةـ الـأـرـضـيـةـ وـحـاجـةـ الـأـلـانـيـاـ لـهـذـهـ الـبـقـاعـ وـالـمـتـلـكـاتـ ..ـ

عليهم ، كما كانت رحمة في نهايتها إذ أنها كانت لا مفر لها من التوقف عندما
النفس المعتدون على الصلح إذ كان الهدف الأساسي هو سلامة المعتدى عليهم
لا استعمال المعتدى .

وكانت الحرب رحمة كذلك لغير المغاربين الذين هم في الحروب الحديثة
أكبر فريسة لمأسى الحرب وويلاتها من دون المقاتلين^(١) ، لا تصيروا غير
أولى الضرر من أصحاب الخلوة البدائية ، وأبقوا على النساء الضعيفات ولا توذوا
رضيعا ولا الذين أزورهم المرض الفراش ، كفوا عن تخريب مساكن الذين
لا يبدون مقاومة ولا تتلفوا مراافق معايشهم ولا تقضوا على مالهم من أشجار
الفاكة ولا تقربوا النخيل بأذى^(٢) .

الحرب في القرآن

والشر إن تلقه بالثير ضفت به
ذرعاً وإن تلقه بالشر ينضم
والناس إن ظلموا البرهان واعتصموا
فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

(١) لن الرسول كان يصدر في خلال الحرب أوامر الصبر بعده إلى جنده وقادته بضم التعرض
لغير المغاربين من الأعداء وغبة منه في الارتفاع ب فكرة الحرب والابتماد قدر الاستطاعة من
شروطها وآنانها ولهذا منع التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان وحرم ملايين الأموال
والإحراق بالنار والتغليظ بالقتل . . . وهذه صورة رائعة كاملة جليلة للحرب من الرسول . . .
ونحن لهذا اتجهنا بظروفا إلى الحرب التي قاتلت بعد الإسلام العديد من المبادئ المألوفة قد اختفت
وضاعت وسط للعار . . . فإن صرب المدنيين العبيدين من مواطن الضرب . وميادين الحرب
هو أول ما يهدى إليه العدو ويطلب ذلك بأنه يرى إلى اضياف القوى الشيعية التي تهدى ووراء
المجتمع . . . ولقد سمعنا خلال الحرب الكثيرة التي زعم بها تاريخ الطم في الصور الأخيرة
من ضرب المستشفيات ودور النقاوة وضرب المدن والتعدي على المدنيين الأبرياء الذين لا ذنب
 لهم ولا يحملون سلاحا ولا يستطيعون عن أنفسهم دفاعا . ونحن لا نستطيع ، ولا يستطيع مننا
 التاريخ أن ننسى ضرب الحونة الأنجلوizer والفرنسيين للأمنيين الوادعين للكافرين الصابرين في
 بيور سعيد خلال اعتدائهم الوحشي القادر على أراضينا في نوفمبر ١٩٥٦ .

(٢) روح الإسلام للأستاذ أمير علي .

الإسلام حياة جامدة لا تقاوم بزمان ولا تهدى بمكان .
والإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها جيئاً .
والإسلام دين الحق والحرية والقوة والنظام .

وطبيعة القتال والتزعة الحرية في فطرة الناس ومن غرائزهم ، وال الحرب
من أسباب قيام الحضارات وتركيزها والمحافظة عليها « ولو لا دفع الله الناس
بعضهم بعض لقصد الأرض » . فتهذيب فكرتها في النفوس وحصرها
في أدق حدودها وأسلم طرائقها وتحديد أهدافها وتوضيحها هي غاية ما تتحمل
الفطرة البشرية ، وقد نظم الإسلام هذه التزعة أسمى تنظيم ووجهها أسلم وجهه
وأنزلها في المنزلة التي خلقت من أجلها .
والإسلام دستوره القرآن .

والقرآن تناول في كثير من آياته القتال من جميع نواحيه . . عرض
للأسباب الباعثة عليه وللغاية التي ينتهي عندها وعرض لما يجب على المسلمين
من الاستعداد له والاحتياط لطوارئه ووضح الكثير من قواعده وأحكامه .
أخذ القرآن على عاتقه تحريك العواطف عند المسلمين جميعاً ناحية القتال
فأوضح لهم أنه قتال في سبيل الله الذي يضاعف ثواب العاملين وأجر المجاهدين
وأظهر لهم أنه قتال في سبيل إنقاذ الضعفاء والبر بالإنسان ومقاومة الطغیان
ودحض عوامل الشر والفساد :

« فَلِيُقَاتِلُنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ
يُقَاتِلُنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمُقْتَلٌ أَوْ يَغْلِبُ فَسُوفَ تُؤْتَيْهِ أَجْرًا عَظِيمًا .
وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَتَوَلَُّنَّ رَبَّنَا أَخْرَجَنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرِيَةِ الظَّالِمِينَ
وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ^(۱) » .

(۱) سورة النساء ۷۴/۷۰

ولقد أوضح القرآن أجر المقاتلين في سبيل الله بالنفس والمال ، وذكر أنه لا يقف عند حد ولا يدركه إلا علم الغيب والشهادة :

«أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجَ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتُوْنَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَهُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةِ مِنْهُ وَرَضْوَانِهِ وَجَنَّاتِهِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقْتَمِ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ»^(١) . «إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِدَّا عَلَيْهِ حَقًا فِي التَّوْرَأَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَ بِعِهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبِرُوا يَبْيَعِكُمُ النَّذِي بِأَيْمَنِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»^(٢) .

ولقد أمر القرآن بالجهاد وطلب من المسلمين التضحية في سبيل الله بكل عزيز ، فلا الآباء ولا الأبناء ولا الإخوان ولا الأزواج ولا العشير ولا التجارة ولا المساكن يصح أن تحول بين المؤمنين وبين ما تقتضيه حبة الله ورسوله من تضحية وجهاد :

«قُلْ إِنْ كَانَ آباؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالُهُ أَفْتَرْقُتُمُوهَا وَتَجَارَةً تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرَضَوْنَهَا

(١) سورة التوبة ٤٤/١٩

(٢) سورة التوبة ١١١

أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ الْهُوَ وَرَسُولُهُ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَصُوا حَتَّى يَأْتُنَّ
الَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ »^(١).

إن القرآن وهو دستور الإسلام يؤيد القتال دفاعاً عن النفس ودفاعاً عن العقيدة، ولكنه مع هذا ينكر حرب الاعتداء:

«وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ مَقْتُلُوكُمْ وَآخِرُ جُوْهُمْ مِّنْ حَيْثُ
آخِرُ جُوْهُكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ »^(٢).

ولقد أقام المسلمون في مكة أعواماً يسامون سوء العذاب ويصادرون في حريةهم الدينية ويعنطهون في عقيدتهم ويفتنون في أموالهم وأنفسهم حتى أُنكروا على المجرة، وكم تجاوبت في نفوسهم فكرة رد الظلم ودفع العداوة والانتقام من المعتدين، إلا أن الرسول كان يدعوهم إلى الصبر بحجة أنه لم يتلق أمرًا بالقتال وكان يدعوهم إلى الصبر وكان يقول «أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني».

واستمر حاكم هكذا حتى نزل قوله تعالى:

أَذِنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلْمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ »^(٣).
«فَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَّضَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) سورة التوبة ٢٤

(٢) سورة البقرة ١٩١/١٩٠

(٣) سورة الحج ٣٩

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الدِّينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُ بَأْسًا وَأَشَدُ
تَنَكِيلًا »^(١)

ولقد كان وقع فتن المؤمنين عن دينهم أكبر عند الله ، وكانت الغاية الأولى
التي شرع القرآن من أجلها القتال ، والمحجة على ذلك ما نزل من الآيات
الكريمة في سريعة عبد الله بن جحش الأسدى حينها اثارت قريش القبائل ضد
خوة محمد هذه بحجة أنها استحلت الشهر الحرام وسفكت فيه الدماء :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفُرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى
يُرْدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ رَأَيْتُمُوهُ أَنْ يَسْتَطِعُو »^(٢).

ومعنى هذا أن الدفاع في سبيل الله والصد عن الكفر به أكبر من القتال
في الشهر الحرام والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر
الحرام ، والقتل فيه وفتنة الرجل عن دينه بالوعيد والوعيد والإغراء والتذنب
أكبر من القتل في الشهر الحرام .

وحق طبيعي بل واجب إلزامي على من يرى غيره يحاول فتنته عن دينه
أو صده عن سبيل الله أن يقاتل في سبيل الله حتى لا يفتنه وحتى ينصر
دين الله .

والقرآن يبعث في نفوس المجاهدين القوة والشجاعة ويحثهم على الإقدام
والثبات ويصور لهم مساعدة الله لهم وعدم تخليه عنهم :

« إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ يَكْفِيْكُمْ أَنْ يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ

(١) سورة النساء ٨٤

(٢) سورة الفاتحة ٢١٧

بَلَّاثةٌ أَلَافٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَّ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَقْوَى
 وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلَافٍ مِنَ
 الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشَرَى لَكُمْ وَاتْطَمَنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ
 وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ^(١) « وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزُنُوا
 وَأَتْمِمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَعْسِكُمْ قُرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ
 قُرْحٌ مُثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَامُ نَدَاوُهُمْ بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الدِّينَ آمَنُوا
 وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شَهِداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيَحْصُّ اللَّهُ الدِّينَ آمَنُوا
 وَيُمْحَقَ الْكَافِرُونَ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الدِّينَ
 جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ^(٢) .

ولقد أنار كثير من الكتاب كأثار خصوم الإسلام في كل عصر موضوع الحرب لإثارة خاطئة لا عدل فيها ولا إنصاف ، لقد تجذبوا على الرسول واتهموه ظلماً أنه دفع الناس إلى دينه تحت وسائل التهديد ، أى أنه أكره الناس بالسيف ليضموا إلى دعوته ، وما يثيره الكتاب في هذا الخصوص هو اتهام باطل لا أساس له ، فالنبي كما أوضحتنا لم يكن معتمداً ولم يكره الناس على الإيمان بالسيف ، ولم يضعه على رقبتهم ليشهدوا بشهادته أو يدينوا بعقيدته ودستور الإسلام ينص في صراحة :

« لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قُدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْفَيْ ^(٣) » « وَقَلِ الْحَقُّ
 مِنْ رَبِّكُمْ فَنَ شَاءَ فَلِيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلِيَكُفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً

(١) سورة آل عمران ١٢٥ / ١٢٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٣٩ / ١٤٢ .

(٣) سورة البقرة ٢٥٦ .

أَحاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغْشُوا يُفَانُوا بَعْدِ كَالْمُهْلِ يَشْوِي
الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مِرْتَفَقًا . »^(١)

« وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِسْتَعْجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ
اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغُهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ »^(٢)

وهذا الاتهام من جانب الكتاب والخصوم باطل من وجوه ثلاثة :

١ - باطل بشهادة التاريخ الذي يحدهنا بأن النبي مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى دينه وكان مضطهدآ خلال تلك الفترة أشد الاضطهاد، حتى من أهله وعشيرته وأقرب الناس إليه ، ومع ذلك احتمل وصابر وصبر وكان يمر على رجاله وأصحابه وهم يعتذرون فلا يزيد عن أن يقول لهم « اصبروا آل ياسر إن موعدكم الجنة .. ومع هذا آمن بالإسلام السابقون الأولون كما آمن الأنصار وهم أهل المدينة ، حينما حدثهم الرسول بشأن دعوته خلال ترددم على مكة في كل عام .. وثبتت من التاريخ أن الأمر بالقتال والإذن به لم يصدر إلا في السنة الثانية من الهجرة .

٢ - باطل بشهادة القرآن وهو دستور الإسلام وقد ذكرنا في مستهل حديثنا عن هذا الاتهام الآيات الكريمة التي وردت في القرآن تقرر حرية العقيدة وتلزم المؤمنين إن استجار بهم أحد المشركين أن يبلغوه الدعوة وأن يوكلوا له مقاصد الإسلام ثم يحرسوه حتى يصل إلى مأمهه ويتركوه ليسلم عن رغبة واقتناع لا عن خوف أو رهبة أو إكراه .

٣ - باطل بشهادة الإسلام نفسه فأساس التصديق بالإسلام العقل والفكر والنظر والاطمئنان القلبي والحربي كما جاء في سورة الحجرات الآية ١٤ « قَالَ الْأَعْرَابُ آمَنَا قَلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَا يَدْخُلُ الإِيمَانَ

(١) سورة الكهف ٢٩ .

(٢) سورة التوبه ٦ .

في قلوبكم، وهذه الأسس لا يمكن أن تتجاوب مع الإكراه والخوف والاستجابة لدعوة يرها السيف.

وفي قصة إسلام عمر خير دليل على أن الرسول لم يدفع الناس إلى دينه تحت وسائل التهديد ... فه فهو ذا عمر قد خرج متوضحاً بسيفه يريد رسول الله وقابله نعيم بن عبد الله وسأله أين هو ذاهب فقال له « أريد محداً هذا الصاد » الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آله فأقتله » ... عمر هذا يذهب إلى بيت أخته ويأخذ المصحف ويتلو فيه سورة طه ثم يقول « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » ثم يخرج باختصار عن محمد لا ليقتله في هذه المرة، وإنما يعلن دخوله الإسلام « يا رسول الله جئت لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله » .

و واضح من قصة إسلام عمر أنه خرج بالسيف ليقتل محداً ولم يخرج واحد من المسلمين عليه ليقتله وأنه أسلم نتيجة اقتناعه بأن ما يدعو إليه محمد هو دين الحق ، وهذا الاقتناع بعيد كل البعد عن الإكراه .

وبماذا ياترى نفس هذه الكتب التي وجهها الرسول الكريم إلى الملوك في عهده يطلب منهم فيها دخول الإسلام ؟ .

وبماذا ياترى نفس دعوة الرسول لـ ثلاثة الملوك إلى الاعتراف بالدين الجديد ؟

هل في هذه الكتب دليل على الحرب ؟

وهل في هذه الدعوات دليل على العنف ؟

وهل يدلنا ذلك على أن الرسول كان يدعوا بالسيف أم بالحكمة والت范文 والإقناع ؟

ماذا نقول في كتاب الرسول إلى كسرى ملك الفرس « إنني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم فإن أبى فإنما عليك إثم المجروس .. »

وماذا نقول في كتاب الرسول إلى قيسار ملك الروم ، أسلم تسلم يؤتكم الله
أجرك مرتين وإن تتوال فإن إثم الأكارين ^(١) عليك ..

وماذا نقول في كتاب الرسول إلى المقوص والى مصر وهو ذات
الكتاب الذى بعث به إلى هرقل ^(٢) بعد أن غير كلية الأكارين فوضع بدلاً
كلية القبط .

وماذا نقول في كتاب الرسول إلى النجاشي ملك الحبشة ، إن أدعوك إلى
آله وحده لأشريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذى جامنني
فإني رسول الله .

(١) الفلاحين .

(٢) لما أرسل الرسول (ص) كتاب الدعوة إلى هرقل عظيم الروم دعا هرقل أبا سيفيان ليأسمه
عن هذه الدعوة وصاحبها ودار بينهما الحديث التالي .

هرقل — كُفْ نَبِهِ فِيمْ؟

أبو سيفيان — هو فينا ذُو نسب

— هل قال هذا القول منكم أحد قبله؟

— لا

— هل كان من آباءه من ملوك؟

— لا

— فأشراف الناس اتبعوه أم ضفاوؤم؟

— مل ضفاوؤم؟

— أزيyدون أُم ينتصون؟

— بل يزيدون

— فهل يرتد أحد منهم سخطه لدينه؟

— لا

— فهل كنتم تهونه بالكذب

— لا

— فهل يغدر؟

— لا

— ماذا يأمركم؟

— يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يغول

آباءكم ويأمرنا بالصلة والصدق والقاف والصلة (البغاري)

والرسول كان يدعو إلى الإسلام لامن أجل سيادة فتة على فتة ، ولا طمعاً في ملك أو إمارة ، وإنما كان يدعو إلى الإسلام بقصد الدعوة إلى توحيد الله وإلى الحكم بالعدل بين الناس ، وما غابتان من أشرف الغايات ، وقد حدد الإسلام الهدف الأول في قوله تعالى :

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلْمَةٍ سَوَاءٍ يَأْتِنَا وَيَنْكِمْ أَلَا تَبْدَءَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ بَغْيَانٌ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهِدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ »^(١) .

وحدد الهدف الثاني في قوله :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْتُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكِيمْ يَبْيَنِ
النَّاسَ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ يُعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَيِّعًا
بَصِيرًا »^(٢) .

واليسلام يدعو إلى هذا كله بالسلم لا بالحرب كما قال تعالى :

« ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحَكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالْأَقْرَبِ
هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مِنْ ضلَالٍ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ »^(٣) .

إذن فرسالة الإسلام لا تهدف كما هو واضح من دستوره إلى الحرب من أجل نشر تعاليمه ومبادئه ، كما أن الإسلام لم يكن في حاجة إلى كسب الأنصار

(١) آل عمران ٦٤ .

(٢) سورة النساء ٥٨ .

(٣) سورة النحل ١٢٥ .

بالقوة والعنف ، وإنما أعداؤه هم الذين أرادوا أن يفتوا المسلمين عن دينهم بالقوة :

«ولَا يَرْأُونَ يَقَاتِلُوكُمْ حَتَّىٰ يَرْدُوْكُمْ عَنْ دِيْنِكُمْ إِنِّي أَسْتَطِعُوا»^(١)

يتضح لنا إذن من القرآن الكريم وهو دستور الإسلام :

١ - أنه لا توجد فيه آية تدل أو تشير إلى أن القتال شرع مخل للناس على اعتناقه .

٢ - أن سبب القتال هو رد العداوة وحماية الدعوة وحرمة الدين .

٣ - أنه حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع وابناءه طريقاً إلى السلم والاطمئنان .

٤ - أن الإسلام فرض الجزية على من يبقى على دينه وما الجزية أصلًا إلا دليل على الخنوع وكف الأذى والمشاركة في تحمل أعباء الدولة .

ولقد حددت الأغراض الأساسية للحرب في الإسلام على الأسس الآتية :

١ - رد العداوة والدفاع عن النفس والأهل والمال ولوطن والدين ..
روى أبو داود والتزمي والنسائي وابن ماجة عن سعد بن زيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

وروى البخاري والتزمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أريد ماله بغير حق فتقتل فقتل فهو شهيد » .

واشترط الإسلام أن يكون الدفاع ورد العداوة على قدر ما حصل من الاعتداء فلا يصح أن يتجاوز حده ، بل يجب أن يكون بمثيل ما حصل من الاعتداء به :

(١) سورة البقرة ٢١٧ .

«الشَّهْرُ الْحِرَامُ بِالشَّهْرِ الْحِرَامِ وَالْعَرْمَاتُ قِصَاصٌ فَنَّ اعْتَدَى
عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ إِثْلَى مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
مَعَ الْمُتَّقِينَ» ^(١)

٢ — تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن
يفسّوهم عن دينهم .

«وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِّي أَنَا وَأَ
فَلَا عَدُوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ» ^(٢) .

٣ — حماية الدعوة حتى تبلغ الناس جميعاً ويتعدد موقفهم منها ، ذلك
أن الإسلام رسالة إجتماعية إصلاحية شاملة تتطوّر على أفضل مبادئ الحق
والخير والعدل . . . روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله
إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك
عصموه من دمامهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله .

٤ — تأديب ناكرى العهد من المعاهدين :

«وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتَلُوا
أَعْذَّةَ الْكُفَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُعَانَ لَهُمْ لَعْنَهُمْ يَنْتَهُونَ . أَلَا مُتَّقَاتُلُونَ قَوْمًا
نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَمُمْبَدِّلِوْكُمْ أَوْلَئِكُمْ
مَرْكَزٌ» ^(٣) .

(١) سورة البقرة ١٩٤

(٢) سورة البقرة ١٩٣

(٣) سورة التوبة ١٢

٥ - إغاثة المظلومين من المؤمنين أينما كانوا والاتصار لهم من الظالمين .

والذين آمنوا ولم يُهاجروا مالكم من ولا يتهم من شئ حتى
يُهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم ينكم
ويَنْهِم ميئاً و الله يا تعلمون بصير . ^(١)

٦ - الكف عن القتل إذا كف عنه الأعداء فيحرم المضى في الحرب بعد طلب الصلح :

«وقاتلوا هم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن اتهوا فلا
عدوان إلا على الظالمين » ^(٢) .

وإن جنحوا للسلب فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع
العليم ^(٣) .

٧ - قصر الحرب على الجيش المحارب فلا يجوز التعرض للنساء والأطفال
والشيوخ والرهبان ... وروى أبو داود أن الرسول قال : «لا تقتلوا شيئاً
فانياً ولا صغيراً ولا امرأة» ، وروى أيضاً أن الرسول قال «لا تقتلوا
الولدان ولا أصحاب الصوامع» .

٨ - تحريم التشيل بالقتل والإحراق بالنار . روى أبو هريرة أن النبي
قال «إذا كنت أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً وأن النار لا يعذب بها إلا أقه
فإن وجدتموها فاقتلوها» .

٩ - تحريم إتلاف الأموال ... وروى ابن عمر أن النبي حرق نخل
بني النضير في أثناء حصاره لهم بقصد حمامهم على التسلیم فلما رأوا ذلك قالوا له

(١) سورة الأنفال ٧٢

(٢) سورة البقرة ١٩٣

(٣) سورة الأنفال ٦١

«إنك تهرب عن الفساد في الأرض فما بال قطع الأشجار وتحريضها؟، فكيف
عن التحرير ونفي عن التخريب في بلاد العدو .

١٠ - تحريم تجويع الأعداء بمنع الميرة عنهم ... روى أن ثعامة بن أثال
منع الميرة عن قريش فأخذهم الجوع حتى أكلوا الجلود والجليف ، فذهب
أبو سفيان إلى النبي وشكاه إليه فأمر الرسول ثعامة أن يرسل الميرة لهم .

١١ - الإحسان إلى الأسير وقد مدح الله من يطعم الأسير في قوله .

«وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبْهِ مِسْكِينًا وَيَتِيًّا وَأَسِيرًا»^(١).

١٢ - تأكيد الرحمة في الحرب ومراعاة الناحية الإنسانية فلا بد للمسلم أن يضرب في الحرب أروع الأمثال على الرحمة ويقول تعالى :

«إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَربُ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أُنْخِتُمُوهُمْ فَشُدُوا الْوَثَاقَ فَإِمَامًا بَعْدُ وَإِمَامًا فَدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَمَّنَ الْحَرْبُ أُوزَارَهَا .»^(٢)

وهذا معنى كبير من معانى الرحمة التي شرعها الإسلام في الحرب فأبدل حكم الأعداء وهو القتل بالأسر ثم جعل للأسير أكثر من فرصة لاسترد حريةه .

والمسلم في حربه لا يغدر ولا يفجر ولا يفسد ولا ينهب ولا يتلف ولا يقتل امرأة أوشيخاً أو طفلاً ولا يجهز على جريح ولا يسيء إلى أسير ولا يتعرض لمسالم أو لرجل دين .

١٣ - ضرورة إعلان الحرب من جهة المسلمين قبل البدء في أي قتال رغبة في ألا تكون الحرب وسيلة للمخادع والخيانة من جانب المسلمين :

«إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُخَانِقِينَ»^(٣).

١٤- الوفاء بالمعاهدات وبالعهود في الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيما :

(١) سورة الإنسان

٢(٢)

٢٩٣ سورة الأحقاف

«أَوْفُوا بِعِهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا»^(١)
 «وَالْمُوْفُونَ بِعِهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا»^(٢) «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الشَّرِّ كِنْ‌
 مْ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ
 إِلَى مُدَّتِّهِمْ»^(٣).

عوامل القتال

تناولت آيات القرآن ثلاثة عوامل هامة للقتال :

- ١ - الروح المعنوية وتفويتها .
- ٢ - إعداد القوة المادية .
- ٣ - التنظيم العملي للحرب .

وستعرض للحديث عن الروح المعنوية في باب قادم ، ونتر هنا مروراً سريعاً على العاملين الآخرين .

المقصود بالقوة المادية العدد والعدة ، فاما العدد فقد كان يتوقف على عدد المسلمين ، فكل من دخل في الإسلام أصبح جندياً من جنوده ، فالمجند في أول عهد الإسلام بلغوا بضع عشرات ، في حين أنهم في واقعة تبوك أى في السنة التاسعة للهجرة بلغوا اثنين ألفاً .

والقرآن ينص على ضرورة توافر العدد الكبير والعدة الوافرة :
«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ أَخْلِيلٍ ثُرَّهُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ»^(٤)

(١) سورة الحسن ٩١

(٢) سورة البقرة ١٧٧

(٣) سورة النور ٥٠

(٤) سورة الأعمال ٦٠

أما إعداد العدة فقد جاء في القرآن الكريم :
 «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ»^(١).
 ووضحت هذه المنافع في قوله تعالى :
 «أَنِ اعْمَلْ سَيْفَاتٍ^(٢) وَقَدْرٌ فِي السَّرْدٍ^(٣)»^(٤).

ولما كان الإعداد للحرب يتطلب مالاً كثيراً فقد حث آيات كثيرة على
 البذل في سبيل الله ومن ذلك :
 «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُؤْفَ إِلَيْكُمْ وَأَتُمْ
 لَا تُظْلَمُونَ»^(٥). «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى
 التَّهْكِمَ»^(٦).

وأما من ناحية التنظيم الفعلى للحرب فقد أمر الله تعالى المسلمين جميعاً
 لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم برد العداون ، إبقاء على وحدة المسلمين وصونها
 لحرية المعتدين ، وعين القرآن من يمعن من هذا الجهاد :
 «لَيْسَ عَلَى الْضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ
 حَرَجٌ»^(٧).

فكأن القرآن قد جعل أسباب المعافة الضعف بسبب العجز والشيخوخة
 والمرض وعدم القدرة على الإنفاق .

(١) سورة الحديد ٢٤

(٢) دروع .

(٣) الم-ج

(٤) سورة سـ ١٠

(٥) سورة الأنفال ٦٠

(٦) سورة البقرة ١٩٥

(٧) سورة التوبة ٩٣

الحرب في الأديان الأخرى

إن ماجام به الإسلام فيما يتعلق بالحرب أفضل وأدق وأرحم وأبر بالسلام من كل ما جامت به الأديان الأخرى كما يتضح فيما يأتي :

١ - أسفار التوراة التي يتداوها اليهود اليوم طافية بأنباء القتال والجهاد وال الحرب والتغريب والتبييد والهلاك والسيء ، وهي تقرر شريعة القتال وال الحرب ولكن في أبغض صورها ، فقد جاء في سفر التثنية في الإصحاح العشرين منه عدد (١٠) وما بعده ما يأتي بنصه : « حين تقرب من مدينة كى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجبتك إلى الصلح وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ويستبعد ، وإن لم تسلك ، بل عملت معك حرباً فخاصرها ، وإذا دفعها ارب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بعد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فتنفسمها نفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك رب إلهك ، مكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك رب إلهك نصيباً فلا تبق منها نسمة ما . بل نحرها تخربها الحثيين والأراميين والكتعانيين والفيزيين والخوريين واليوسقين كأمرك رب إلهك .. »

٢ - في إنجليل متى المتداول بأيدي المسيحيين في الإصحاح العاشر عدد (٢٥) وما بعده ، لا تظنو أني جئت لأفرق الإنسان ضد ابنه والإبن ضد أبيه ، والكنة ضد حماتها ... وأعداء الإنسان أهل بيته . من أحب أباً أو أمّاً كثُر مني فلا يستحقني ومن أحب ابنًا أو ابنة أكثُر مني فلا يستحقني ومن لا يأخذ صلبيه ويتبعني فلا يستحقني ..

أسلحة الحرب عند المسلمين

تكلمنا خلال حديثنا عن حروب العرب في الجاهلية عن أسلحتهم في الحرب ولم يختلف أمر هذه الأسلحة في الجاهلية عنه في الإسلام ، فذات الأسلحة التي استخدمها العرب في جاهليتهم هي ذات الأسلحة التي استخدموها

المسلون في غرواتهم وحرفهم إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم استعان في غرواته بسلاميين جديدين لم يكن للعربي علم بهما من قبل مما المجنح (آل القذف) والدبابات وسنتحدث عن هذين السلاميين ضمن حديثنا عن أسلحة الحرب عند المسلمين في السطور القادمة . . .

١ - كان القوس هو أهم الأسلحة التي حاربت بها قوات المسلمين وأثر من النبي قوله «إركبوا وارموا وإن ترموا أحرب إلى من أن ركبوا»، كما أثر هذه ما معناه كل هو المؤمن في ثلاث تأديبه فرسه، ورميه عن كبد قوسه، ولما عبته أمر أنه إن الله ليدخل الجنة بالشيم الواحد عامله المحاسب والرأي في سبيل الله، ومن أقواله وهو قائم يصلع «أعدوا ما استطعتم من قوة إلا إن القوة الرمي، إلا إن القوة الرمي، إلا إن القوة الرمي».

٢ - كان السيف من أشهر أسلحة المسلمين في قتالهم، ففي موقعة الخندق اجتاز عمرو بن عبدود وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب الخندق من مكان ضيق نفرج لهم على بن أبي طالب وتقى من عمرو يدعوه لانزال فقال له عمرو «لم يابن أخي والله ما أحب أن أقتلك»، فرد عليه على «ولكنني أحب والله أن أقتلك»، وطعنه على بسيفه طعنة قاتلته وهرب على أزها عكرمة وضرار.

٣ - واستخدم المسلمون أيضاً الرمح إلا أنهم كانوا يخشون انكساره
٤ - واستخدم المسلمون أيضاً الترس وتفننوا في صنعه ونقشو عليه الآيات والخسم والأشعار.

٥ - وكانت الدروع كثيرة عند المسلمين والدرع مؤلف من الجزء الذي يقي الصدر ويسمى الجوش والبضة والخوذة، والمغفر للرأس، ومنها أجزاء للساعدين والساقين والكفين.

٦ - عندما بني المسلمون الخندق بناء على إشارة سليمان الفارسي جلبوا بعض آلات الحصار مثل المجنح، وجاء في السيرة الخلبية أن المسلمين

استخدموه في حصار الطائف ، وجاء أيضاً أن سليمان الفارسي هو الذي صنعه بيده ، وذكر صاحب السيرة أيضاً أن المسلمين حينما فتحوا حصن الصعب في خيبر وجدوا فيه منجنقات .

ويستخدم المجنحق في رمى الحجارة وقدفها وفي هدم الحصون أو في إحراق أماكن العدو بالغط المشتعل بالنار .

٧ - في حصار الطائف استخدم المسلمين الدبابات ، وكانت في هذا العهد عبارة عن بني من الخشب ، بوضع على عجل ، ويدخل في المحاربون ، ويدفعون به إلى جدار الحصن . فيقي من داخله من النبل والحجارة التي يقدفهم بها أعداؤهم وهم يهدمون جدار الحصن . وكانت تستخدم الدبابة أيضاً في هدم الأسوار وتحطيم الحصون .

توحيد جهة المسلمين

لم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم منذ قدم على المدينة بتلبيغ الوحي الذي ينزل عليه ، بل رأى أن ينظم الحياة العامة في المدينة ، فقد أصبح زعيم جماعة من العرب لم يمل صفة سياسية بجانب كونهنبياً مرسلاً عليه أن يبلغ الناس رسالة ربه .

وكان بالمدينة ، يوم قدم عليها الرسول . المسلمين من الأوس والخزرج الذين عرفوا بالأنصار ، وبعض مشركي هاتين القبيلتين واليهود ، ووفد إليها المهاجرون وكان هؤلاء تجارةً يكملون أمورهم هناك دون أمل في استردادها فأمر الرسول عليه الصلة والسلام للأنصار بمساعدتهم ، وبذل الرسول عليه الصلة والسلام جهداً لتنظيم الصفوف وتوحيد وحدة المهاجرين والأنصار ، فأشنى بهم حتى أصبحوا يتوارثون بهذا الإخاء . إرثاً مقداماً على القرابة ، فإذا مات المهاجر ورثه أخوه الأنصارى ، وإذا مات أحد الأنصار ورثه أخوه المهاجر ، وكان صلوات الله عليه بذلك يشد أزر بعضهم بعض .

عندما شرع الرسول في تنفيذ مشروع المزاواحة قال لاصحابه : « تأخروا

فـأـنـهـ أـخـوـيـنـ أـخـوـيـنـ» . ثـمـ أـخـذـ يـدـ عـلـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ وـقـالـ : «هـذـاـ أـخـيـ» . وـتـأـخـيـ منـ بـعـدـ عـمـ حـمـزـةـ وـمـوـلـاهـ زـيـدـ بـنـ حـارـثـةـ ، وـأـبـوـ بـكـرـ مـعـ خـارـجـةـ بـنـ زـيـدـ مـنـ الـخـرـجـ ، وـعـمـ بـنـ الـحـطـابـ وـعـتـبـانـ بـنـ مـالـكـ مـنـ الـخـرـجـ أـيـضـاـ ، وـتـأـخـيـ كـلـ مـسـلـمـ هـاجـرـ إـلـيـ يـثـرـبـ مـعـ وـاحـدـ مـنـ الـأـهـارـ إـخـاءـ زـادـ مـنـ قـوـةـ الـمـسـلـمـينـ وـاتـحـادـهـ وـتـضـامـنـهـ .

وـكـانـ مـنـ آـنـارـ هـذـاـ التـوـحـيدـ لـجـمـهـةـ الـمـسـلـمـينـ وـهـذـاـ التـقـرـيبـ بـيـنـ فـيـاتـهـ الـخـلـفـةـ أـنـ فـشـلـتـ مـحاـولـاتـ لـلـيـهـودـ لـإـثـارـةـ الـمـسـلـمـينـ بـهـضـبـهـمـ عـلـىـ بـعـضـ . فـقـدـ سـرـ بـوـمـاـ شـاسـ بـنـ قـيسـ وـهـوـ يـهـودـيـ عـلـىـ نـفـرـ مـنـ الـأـوـسـ وـالـخـرـجـ فـيـ مـجـلـسـ جـمـعـهـمـ كـلـخـوـةـ مـتـحـابـيـنـ فـقـاطـهـ صـلـاحـ ذـاتـ بـيـنـهـمـ وـقـالـ فـيـ نـفـسـهـ : «قـدـ اجـتـمـعـ مـلـاـ بـنـيـ قـيـفـيـلـةـ بـهـذـهـ الـبـلـادـ ، وـمـاـلـنـاـ مـعـهـمـ ، إـذـاـ اجـتـمـعـ مـلـزـمـهـمـ ، بـهـاـ مـنـ قـرـارـ» . ثـمـ أـمـسـ قـيـ شـابـاـ مـنـ الـيـهـودـ أـنـ يـذـكـرـ بـوـمـ بـعـاثـ وـمـاـكـانـ مـنـ اـتـصـارـ الـأـوـسـ فـيـهـ عـلـىـ الـخـرـجـ وـتـكـلـمـ الـغـلامـ ، وـذـكـرـ الـقـومـ هـذـاـ لـيـوـمـ فـتـنـازـلـوـاـ وـتـفـاخـرـوـاـ وـاـخـتـصـمـوـاـ وـقـالـ بـعـضـهـمـ لـبـعـضـ : «إـنـ شـنـتـ عـدـنـاـ إـلـىـ مـثـلـهـ» . وـلـنـغـ الـأـمـرـ الرـسـوـلـ خـرـجـ إـلـيـهـمـ وـذـكـرـهـ بـعـاـنـفـ الـإـسـلـامـ بـيـنـ قـلـوـمـ وـجـمـلـهـمـ إـخـوـاـنـاـ مـتـحـابـيـنـ وـمـاـزـالـ بـهـمـ حـتـىـ بـكـيـ الـقـومـ وـعـاـقـ بـعـضـهـمـ بـعـضـاـ وـاسـتـغـفـرـوـاـ اللـهـ جـمـيـعاـ .

وـلـمـ فـشـلـ الـيـهـودـ فـيـ الـوـقـيـعـةـ بـيـنـ الـأـوـسـ وـالـخـرـجـ حـاـلـوـ اـفـتـنـةـ الرـسـوـلـ نـفـسـهـ ، فـذـهـبـ إـلـيـهـ أـحـبـارـهـ وـأـشـرـافـهـ وـقـالـوـهـ : «إـنـكـ قـدـ عـرـفـتـ أـمـرـنـاـ وـمـنـزلـتـنـاـ وـإـنـاـ إـنـ اـتـبـعـنـاكـ اـتـبـعـكـ الـيـهـودـ وـلـمـ يـخـالـفـونـاـ ، وـإـلـيـهـ بـيـنـاـ وـبـيـنـ بـعـضـ قـوـمـاـ خـصـوـمـةـ ، فـنـحـتـمـكـ إـلـيـكـ ، فـقـضـىـ لـاـ فـتـبـعـكـ ، وـفـؤـمـ بـكـ» . وـنـزـلـ فـيـهـمـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : «وـأـنـ اـحـكـمـ بـيـنـهـمـ مـاـ أـنـزـلـ اللـهـ وـلـاـ تـد~بـعـ أـهـرـاءـهـمـ وـأـخـذـرـهـمـ أـنـ يـفـتـنـوـكـ عـنـ بـعـضـ مـاـ أـنـزـلـ اللـهـ إـلـيـكـ فـإـنـ تـوـلـوـاـ فـاعـلـمـ أـنـّـاـ مـيرـيـدـ اللـهـ أـنـ يـصـيـبـهـمـ بـعـضـ ذـنـوبـهـمـ وـإـنـ كـثـيرـاـ مـنـ النـاسـ لـفـاسـتـونـ . أـفـحـكـمـ الـجـاهـلـيـةـ يـغـوـنـ وـمـنـ أـحـسـنـ مـنـ اللـهـ حـكـمـاـ لـأـقـوـمـ يـوـقـنـونـ»^(١) .

(١) سورة المائدة ٤٩ / ٥٠

ولجا اليهود إلى وسيلة خبيثة ، وفكروا في أن يمكروا بالرسول ، وأن يقنعوا بالجلاء عن المدينة ، كأجلاء وأصحابه أذى قريش عن مكة ، فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعاً إلى بيت المقدس وكان به مقامهم ، وأنه إن يكن رسولًا حقاً فعليه أن يفعل مثلهم ويصنع صنيعهم وأن يعتبر المدينة وسطاً في هجرته بين مكة ومدينة المسجد الأقصى ، وأوحى الله إلى رسوله أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل ونزلت الآية :

قُدْ نَرَى تَقْلِبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْنِكَ قِبْلَةَ تَرَضَاهَا فَوَلْ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحِينَماً كُنْتَ فَوَلْوا وَجْهَكُمْ شَطْرَهُ^(١)

وأنكر عليه اليهود ما فعل ، ووعدوه إن هو فعل ما أشاروا به عليه ، أن يتبعوه فنزل قوله تعالى :

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَأْمَمُ عَنْ قِبْلِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْها قَلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مِنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَةً وَسَطَّا لِتَكُونُوا شَهِيدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلَّا لِتَنْلَمَ مَنْ يَتَبَعُ الرَّسُولَ مِنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبِيهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الدِّينِ هَدَى اللَّهُ^(٢) ».

وخفت حاولات اليهود وفطن المسلمين لأمرهم وعرفوا غاية مسماهم وأدركوا الغاية التي يسعون إليها من وراء الجدل الكبير الذي أثاروه مع المسلمين وتمكنوا من أن يشعروهم بفشلهم في كل حاولاتهم ، فلم يجد اليهود بدأً من أن يسير الأمر في المدينة على ما هو عليه .

ولما استقر الأمر لرسول الله في المدينة رأى أن يضع نظاماً للحياة العامة

(١) سورة البقرة ١٤٤

(٢) سورة البقرة ١٤٣ / ١٤٢

يكون أساساً ل لتحقيق الوحدة بين أهلها فكتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار
كما عاهد اليهود وشرط لهم ويتضمن هذا الكتاب أموراً منها :

١ - جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم أمة واحدة وإنهم إمة
واحدة من دون الناس .

٢ - التضامن والتعاون بين الجماعة الإسلامية ، وإن المؤمنين بعضهم
موالي بعض دون الناس .

٣ - فتح الطريق للراغبين من اليهود في الإسلام وجعلهم يتمتعون
بجميع حقوق المسلمين . وإن من يتبعاً من اليهود فإن له النصر والأسوة
غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

٤ - تقرير حرية الاعتقاد لليهود « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم
 وأنفسهم » .

٥ - كيفية معاملة قريش التي كانت تقف من المسلمين موقفاً عدائياً .

٦ - ما يتبع في الحرب بين المسلمين وأعدائهم ، ويقرر أن على كل
جماعة أن تنفق على نفسها « على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن يبنهم
النصر على من حارب أهل هذه الصحفة » .

٧ - حرمة المدينة أي يحرم بها ما يحرم به .

وهذا الكتاب الذي كتبه الرسول صلى الله عليه وسلم يوقع عليه اليهود بني
النصير وبني قريظة وبني قينقاع إلا أن هؤلاء لم يلبثوا أن وقعاً بينهم وبين
النبي صحفاً مثلها .

وشرع الجهاد للإسلاميين بعد أن توحدت صفوفهم وانتظمت حياتهم
وصدر لهم الأمر الإلهي « كتب عليكم القتال » ، وكان لشرعية الجهاد أهمية
خاصة لهم إذ أعطتهم صفة سياسية ، فقد جعلهم نواة الأمة العربية الإسلامية
ولهذا يجب أن يجاهدوا في سبيل صون دعوة الإسلام وحمايتها من الفتنة ،
وإعلاء كلمة الله ، وجمع شتات العرب .

وبعد أن وقف الأنصار والهاجرون صفاً واحداً مع الرسول ، بدأ الرسول يستمبل القبائل المقيمة في الطريق بين مكة والمدينة إلى جانبه ، وأرتبط مع الكثير منها برابطة التحالف ، وكان يرى من وراء ذلك إلى إيجاد حلف له خارج المدينة كأصبح له أنصار داخلها . . . هذا إلى أن عائلة الرسول للقبائل التي تقيم في طريق قوافل قريش التجارية كانت تثير روع القرشين وتجعلهم يخشون بأس المسلمين في المدينة .

وبذلك أصبحت المدينة وما ورائها حرماً لأهلها ، عليهم أن ينضعوا عنها ، ويدفعوا أكل عادية عليها .

وعقد الرسول أولوية بعض السرايا للهاجرين دون الانصار لأن المهاجرين تعرضوا وحدهم لإيذاء قريش بمكة وقادوا آلام المиграة ، وكان القصد من هذه السرايا أن تدرك قريش أن العرب قادرون على الدفاع عن أنفسهم ، ودرء أي خطر يحيق بهم ، هذا فوق أن في استطاعتهم تعطيل طرق القوافل التجارية الملاحة بيدهم ، وحدث فعلاً أن وجه الرسول اهتمامه إلى الوقوف في سهل تجارة قريش التي كانت عاد حياتها ومصدر ثروتها ، وهو من هذه الناحية كان يعرف كيف يحمل قريشاً على التسلیم له من أقرب طريق .

والرسول وأهالي المدينة كانوا يرون ضرورة القضاء على نفوذ قريش حتى يمكن وحتى يتيسر نشر الدعوة الإسلامية وضم مكة إلى حوزتهم ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لقريش فقد أحسست بخطر وجود المسلمين بالمدينة على تجاراتهم القائمة من الشام ، ورأت في انتشار الإسلام خطراً كبيراً عليها وعلى ديانتها الوثنية وعلى سيادتها على الكعبة . . .

من هنا بدأ كل فريق يضعف شوكة خصمه ، ويعمل على التخلص منه وأصبح المسلمون والقرشيون وجهاً لوجه . . .

وبدأت بينهم معركة البقاء . . .
وكانت الحرب .

البابُ الثاني
خواص الرسول

(١)

- مناوشات قبل بدر
- غزوة بدر الكبرى
- مهد ويهد بن قينقاع
- مناوشات قبل أحد

مناوشات قبل بدر

قبل غزوة بدر الكبرى بعث الرسول بعض سراياه للوقوف في وجه قوافل قريش وهي في طريقها إلى الشام ومنه ... وقام الرسول بنفسه بقيادة بعض هذه الغزوات لذات الغرض ، ولم يحدث اشتباك في هذه الفترة حتى كانت غزوة بدر الكبرى .

ولعل الكثيرون يتسملون عن الدوافع التي دعت الرسول إلى إرسال هذه السرايا أو قيامه بتلك الغزوات ، وظن الكثيرون أن الرسول كان يهدف بتلك السرايا والغزوات إلى جر قريش إلى الحرب ، والواقع أن الرسول كان يرمي إلى غرضين نبيلين هما :

١ - رغبته في أن تشعر قريش أن المسلمين في المدينة قوة ، وأن في استطاعتهم قطع طريق القوافل إلى الشام ، وأن هذا معناه ضرورة إعادة النظر في موقف قريش من محمد ورجاله ، وأن على قريش أن تفكر جدياً في أن مصلحتها تقتضي التفاهم مع المسلمين ، فتكلف لهم حرية الدعوة إلى الدين في نظير سلامة تجارتهم وقوائهم .

٢ - رغبته في أن يعقد الصلح والمعاهدات مع القبائل التي تقطن بجوار المدينة ، كما سيظهر في خلال الحديث عن هذه السرايا^(١) والغزوات .

سرية حجزة :

في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة بعث النبي عليه حجزة بن عبد المطلب في ثلاثة راكباً من المهاجرين^(٢) ، إلى سيف البحر من ناحية العيص^(٣)

(١) السرية جماعة من المقاتلين وأصطلاح مؤرخو الإسلام على هذه التسمية ، ولم يشارك الرسول في هذه السرايا وإنما اشترك في الغزوات وهي التي يكون الجيش فيها كثيراً كثيراً العدد

(٢) يلاحظ أن النبي لم يبعث أحداً من الأنصار ضمن هذه السرايا لأن الأنصار كانوا قد بايعوه على أن يدافعوا عنه لا أن يهاجروا معه .

(٣) سيف يعني شاطئ العيص ناحية من نواحي المدينة .

وعقد له لواء^(١) أيعض حمله أبو مرثد ، ليتعرض قافلة لقريش كانت في طريقةها إلى الشام ، وكان الرسول قد رأى أن يصادر تجارة قريش في ذهبها وإيابها ، ليكون في ذلك عقاب لشركي مكة ، فتضعف قوتهم المادية ومن ثم تضعف قوتهم العسكرية... وكان على رأس القافلة أبو جهل بن هشام وكانت القافلة تتكون من ثمانية راكب من أهل مكة ... التقى الجماع إلا أن مجدى بن عمرو الجهمي اعترض الفريقين ودعاهما إلى الانصراف وكان موادعاً للذئبين مما فانهمر دون قتال .

سرية عبيدة :

في شوال من ذات السنة بعث الرسول عبيدة بن الحارث بن الماءاب في ثمانين راكباً^(٢) من المهاجرين ، وعقد له لواء أيعض حمله مسطح بن أناه ليتعرض تجارة قريش ، فسار حتى بلغ ماه بالحجاز بأسفل ثنية المرة فوجد عندها جمعاً من قريش يبلغ المائتين بقيادة مكرز بن حفص ، ولم يحدث بينهما قتال إلا أن سعد بن أبي وقاص أحد المسلمين الأوائل رمى بهم ، وحدث أن خرج من صفوف المشركين المقداد بن عمرو البهري وعتبة بن غزوان والتحقاً بصفوف المسلمين^(٣) .

غزوة الأباء^(٤) :

فـ أوائل السنة الثانية الهجرية بلغ الرسول أن تجارة لقريش

(١) اللواء هو العلم الذي يحمل في الحرب ويعرف به موضع أمير الجيش وقد يحمله أمير الجيش وقد يحمله في مقدمة الجيش وأول من عقد الألوية إبراهيم الخليل إذ بنى أن قوماً أغروا على لوط عليه السلام ففقد لواء وسار عليهم عوالمه .
ويطلق البعض على اللواء كله الراية إلا أن ابن اسحق وابن سعد يقولان أن الراية لم تذكر إلا بعد خير .

(٢) تقول بعض الروايات أن عبيدة خرج في ستين فقط .

(٣) يقال أن المقداد بن عمرو البهري وعتبة بن غزوان كانوا قد أسلما ولم يستطيعا العصاف بлерسول فأنهوا فرصة صرية عبيد الله والتبعها بها .

(٤) الأباء ، قرية تقع بين ككة والمدينة سميت كذلك لنبوة السبول بها وقتل لما كان بها من الوباء . أطلق السارى على هذه الغزوة لاسم غزوة الإباء وأطلق ابن الخطاف عليه غزوة ودان لقرب المكانين .

ستمر بطريق الشام ، نقرر أن يخرج بنفسه إليها لجمع جموعه من المهاجرين دون الأنصار ، واستختلف على المدينة سعد بن عبادة ، وأعطى لواهه ، وكان أليض ، أعممه حمزة بن عبد المطلب ، ومضى بجيشه حتى بلغ ودان^(١) ، إلا أن عِيرَ قريش كانت قد مرت من قبله فلم يحدث اشتباك وصالح النبي بنى ضمرة وحالفها وكان بينه وبينها كتاب جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصرة على من راهم » ، إلا أن يحاربوا في دين الله ما بلـ بحر صوفة^(٢) ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصره أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله .

وكانت هذه أول غزوة للرسول غاب فيها عن المدينة خمس عشرة ليلة .

غزوة بواط

بعد أن عاد الرسول يبلغه أن عيراً لقريش عائدة من الشام وفيها أمية ابن خلف وماة من قريش وألفان وخمسةمائة بعير ، فسار إليها بنفسه في مائتين من المهاجرين ، وحمل لواهه وكان أليض اللون ، سعد بن أبي وقاص ، واستخلف الرسول على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون ، ومضى حتى بلغ بواط^(٣) فلم يجد العيراً . لأن الأعداء أخذوا حذراً وأسرعوا إلى مكة ، فعاد الرسول إلى المدينة دون قتال وكانت هذه الغزوة في ربيع الأول .

غزوة العشيرة

وفي شهر جمادي الأولى علم الرسول أن قافلة لقريش في طريقها إلى الشام وأن هذه القافلة تحمل أموالاً طائلة قدرت بخمسين ألف دينار ، وأن التجارة محولة على ألف بعير ، وأن أبو سفيان بن حرب هو قائد هذه القافلة ، ومعه

(١) ودان قرية عند جبل ودان وسميت باسمه وبينها وبين الأبواء ستة أميال ، تنبع بفتح الواو وتشديد الدال .

(٢) مابل بحر صوفة أي ما يقع فيه ما يقابل الصوفة .

(٣) بواط جبل جهينة ناحية رضوى وهو أحد الجبال التي ينبع منها حجارتها أساس السكمة .

تسعة وثلاثون رجلاً من قريش منهم حمزة بن نوفل وعمرو بن العاص^(١) وخرج الرسول ومعه مائتان من المهاجرين ، وحمل لواه حمزة بن عبد المطلب واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وسلك الرسول نقب بني دينار ثم فيفاء الخبر ، فنزل تحت شجرة يقال لها ذات الساق وأدى الصلاة وأقام فيها مسجداً ، ثم تحرك بقوته إلى العشيرة من بطن ينبع ، وعلم أن القافلة قد مرت قبل قدومه بأيام ولم يحدث اشتباك ، ولكن الرسول حالف بني مدح وحلفاءهم من بني ضمرة .

غزوة سفوان

بعد عودة الرسول أغار كرز بن جابر الفهري ، وهو من المتصلين بمكة وبقريش ، على إبل المدينة وأغنامها ، خخرج النبي في طلبه واستعمل على المدينة زيد بن حرارة ، وحمل على بن أبي طالب الراية ، وسار الرسول حتى باع وادي سفوان ناحية بدر فلم يدرك كرز^(٢) .

سرية عبد الله بن جحش

في العام الثاني من الهجرة وفي شهر رجب ، بعث الرسول عبد الله بن جحش الأسدى^(٣) ومعه جماعة من المهاجرين ، ودفع إليه بكتاب أمره إلا يغضنه إلا بعد يومين من مسيره ، وحين يطلع عليه يغضى لما أمره به على إلا يستكره واحداً من أصحابه ... وبعد اليومين الحدين فتح عبد الله الكتاب ، وقرأ فيه أمر الرسول «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلةً بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارها» .

وبعد أن قرأ عبد الله هذا الأمر قال «سمعاً وطاعة» ، ثم جمع أصحابه

(١) هذه القافلة كانت السبب المباشر في غزوة بدر الكبرى فعند عودتها وقعت الغزوة كما سيأتي فيما بعد .

(٢) يطلق أكثر المؤرخين على هذه الغزوة اسم غزوة بدر الصفرى أو غزوة بدر الأولى

(٣) قال الرسول عند ما بعث عبد الله على رأس السرية «لأبشئن إليكم رجلاً أصركم على الجوع والعطش» . وأطلق عليه الرسول لقب أمير المؤمنين فكان أول من تسيى به الإسلام .

وعرض عليهم الأمر وقال لهم «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتىهم منهم بخبر» . وقد نهاني أن أستكثره منكم أحداً فلن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره فليرجع ، فاما أنا فما أنا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم» .

ومضى معه أصحابه جميعاً لم يتخلف منهم أحد إلا سعد بن أبي وقاص وعتبة ابن غزوان إذ ذهباً يبحثان عن بعيرين ضلاً فأسرتهما قريش .

وينها عبد الله وأصحابه في نخلة ، مرت بهم قلة قريش يقودها عمرو بن الحضرمي ، وكان الوقت في رجب وهو شهر حرم فيه القتال . إلا أن عبد الله وأصحابه تذكروا إسماءات قريش لهم ، فتشاوروا ، وقال بعضهم لبعض « والله لئن تركتم القوم هذه الدليلة ليدخلن الحرم فليمتنع منكم به وإن قتلتموه لتقتلنهم في الشهر الحرام» .

وترددوا وتحرجوا من قتالهم في الشهر الحرام ، ول kedنهم عادوا وأجمعوا على منازلهم ، ورمي أحدهم وهو واقف بن عبد الله التميمي سمه عمرو بن الحضرمي فقتله ، وأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وهرب نوبل ابن عبد الله ، واستولى عبد الله على القافلة ، وقسم الغنيمة على أصحابه بعد أن احتجز منها الخنس لرسول الله ، ثم عاد إلى المدينة فلما علم بالأمر الرسول قال « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » ، ورفض أن يأخذ نصيبه من الغنيمة فسقط في يد عبد الله وأصحابه وعنفهم إخوانهم من المسلمين ، وذارت قريش وقالت « قد استحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسرموا فيه الرجال » ، واتهزم اليهود الفرصة فأرادوا إشعال نار الفتنة إلا أن الله تعالى تدارك الموقف فأنزل على رسوله الأمين .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتالٌ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفُرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ

عِنَّ اللَّهِ وَالْفَتْنَةِ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَّالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرْدُووكُمْ
عَنْ دِينِكُمْ إِنِّي أَسْتَطِعُهُمْ «^(١).

وبنرول هذه الآية سعد المسلمين ، وأمر الرسول قضاء عبد الله في الغزيمة ، وبغض على الأسرى ، فبعثت قريش تطلب فداء هما فقال الرسول « لا نفديكم وما ^(٢) حتى يقدم صاحبنا فانا نخشاكم عليهم » - يعني سعد وعتبة فان تقتلوا هما نقتل صاحبكم ، وقدم سعد وعتبة فسلم النبي الأسرى ، وأعلن أحد هما وهو الحسم بن كيسان إسلامه ، وبقي بالمدينة : ومات شهيداً في موته . أما عثمان بن عبد الله فقد عاد إلى مكة ومات بها كافراً .

(٢) غزوة بدر الكبرى ^(٣)

أسباب الغزوة (١) من وجهة نظر المسلمين :

كان الرسول يرمي إلى القضاء على اقتصاديات قريش كما سبق القول . وكان يرى في ذلك إضعافاً لقواتها العسكرية .. وكان قد علم بخروج قافلة كبيرة لقريش قبل إنها جمعت جميع أمواها حتى أنه لم يبق بعده قرشى ولا قوشة يملك شيئاً فصاعداً إلا بعث به في تلك القافلة ، وقدرت أمواها بخمسين ألف دينار ، وحملت تجاراتها على ألف بعير ، وكان يقودها أبو سفيان وكان معه سبعة وعشرون رجلاً ، وقيل في رواية أخرى تسعة وثلاثون منهم خرمه ابن نوفل وعمرو بن العاص .. ورأى الرسول أن القضاء على هذه القافلة فيه هدم كبير لاقتصاديات قريش ، بالإضافة إلى الإساءة إلى مركزها العسكري ، وما ينتج عن ذلك من زيادة قوة المسلمين ورفع روحهم المعنوية .

(١) سورة البقرة ٢١٧

(٢) أى قبل فداء هما

(٣) تسمى أيضاً غزوة بدر العظمى يوم وقعة بدر وهو يوم الفرقان المذكور في قوله تعالى « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمآن . لأن الله تعالى فرق فيه بين الحق والباطل وهو يوم البطشة العسكرية في قوله تعالى « يوم نطشن العطشه العسكرية لانا منتفعون »

وبهذا سار الرسول إلى العشيرة كاً سبق القول ، إلا أن القافلة كانت قد مررت
فرأى الرسول أن ينتظر عودتها .

(٢) من جهة نظر قريش

قامت قريش كلها تحمي قافلتها في أثناء عودتها ، ولم يختلف عنها إلا أبو طلب
فقد أرسل مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، وكانت قريش ترى في استيلاء
محمد على القافلة هزيمة منكرة لها ، وتبنيتاً لمركزها ، وتأكيداً لصدق دعوته ،
ولهذا قررت أن تختاره وتناضل له لتحمي قافلتها ، ولتفصي على قوته ، فلا يعود
ثانية إلى الوقوف في وجه قوافلها .

الاستعداد للغزوة (١) من جانب المسلمين

بعث الرسول طلحة بن عبيدة الله وسعيد بن زيد يتضمن عودة القافلة فنزلوا
على كشد الجهن بالحوراء ، وأقاموا عنده في خباء حتى مرت العبر ، فأسرعوا إلى
محمد يفضيán إلّي بامرها ومارأيا منها ، ولم ينتظروا عودة رسولهم إلى
الحوراء ، فقد كان يخشى أن تفوته في عودتها كما فاتته في ذهابها إلى الشام وهذا
دعا المسلمين وقال لهم « هذه غير قريش فيها أمواههم فاخرجوا إلّيها لعل الله
ينفلّكوها » ، وخف بعض الناس وثقل البعض وأراد جماعة لم يسلموه أن
ينضموا طمعاً في الغنيمة ، ولكن الرسول أبى عليهم الانضمام إلا بعد أن
يعلّموا إسلامهم .

وحاولت أم ورقة بن نوفل أن تخرب مع الخارجين ، فقالت للرسول « يا رسول الله اذن لي في الغزو معك أمرض مرضًا كم لعل الله يرزقني الشهادة » ، فقال
لهما الرسول « قرئ في بيتك فإن الله يرزقك الشهادة ، وأطلق عليها الرسول
« الشهيدة » .

خرج الرسول مع أصحابه من المدينة في رمضان ، وجعل بها عمرو بن
أم مكتوم ليصلّى بالناس واستعمل عليها أبو لبابة^(١) ، وترك الرسول بالمدينة

(١) كان أبو لبابة ضمن الخارجين إلا أن الرسول رده عند المردحاء واستعمله على المدينة

عثمان بن عفان ، فقد كانت زوجته رقية ابنة الرسول مريضة وقال له « إن لك لأجر رجل وسهمه .. ، كما بقي بالمدينة أيضاً أبو أمامة بن ثعلبة الأنباري إذ كانت أمه مريضة فأمره الرسول بالبقاء إلى جوارها .

وارتفعت أمام المسلمين راياتان سوداوان ، وكانت إباهم سبعين بغير أزيد بادلون ركوبها كل ثلاثة أو أربعة منهم يتعاقبون بغير أزيد ، وكان حظ الرسول كحظ سائر أصحابه . فكان هو وعلى مرئه بن مرئه الغنوبي يتعاقبون بغير أزيد وكان رفيقاً الرسول يدعوه ليركب ويقول له « اركب حتى نمشي معك » ، فكان يرفض منها هذه الدعوة ويقول « ما أنتي بأقوى مني على المشي وما أنا بأغنى عن الأجر منكما »^(١) .

وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يتعاقبون بغير أزيد ، وكان عدد الخارجين مع الرسول في هذه الغزوة خمسة وثلاثة رجال منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين ، وواحد وستون من الأوس والباقيون من الخزرج ، وأسرع القوم خوفاً من أن يفلت منهم أبو سفيان هذه المرأة ، ونزل المسلمون في وادي ذفران وهناك علموا بخروج قريش بأجمعها . فبدأ النبي يجمع أصحابه ويقدر منهم موقفه ...

قال لهم « إن القوم قد خرجو من مكانة على كل صعب وذلول^(٢) فاتقولون؟ العير أحب إليكم من الغير؟ وبدأ الرسول يأخذ الآراء ، فقل أبو بكر رأيه وكذلك عمر ، ثم قام المقداد بن عمرو وقال « يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ». ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت منا عين تطرف فواهه الذي بعثك بالحق ندياً لوسرت إلى برك الفداد^(٣) بلجالدنا^(٤) ».

(١) رواه أبُد عن عبد الله بن مسعود

(٢) مسربين .

(٣) مدينة بالحيثة .

(٤) بلجالدنا أي ضربنا بسيوفنا وفي رواية أخرى « نقاتل عن عينك وعن باربك وبين يديك ومن خلفك ».

و جاء في الكشاف و ابن مسعود أن الرسول ضحك وأشرق وجهه عندما سمع مقالة المقداد ، و بايده الناس جميعاً ، فقال الرسول « أشيروا على أيها الناس ؟ » ، فقال عمر « يا رسول الله إنما قريش و عزها ، والله ما ذلت من ذعزت ولا آمنت منذ كفرت ، والله لتقاتلنك فتأهب لذلك أهبته وأعد لذلك عدته » .

وأعاد الرسول بعد أن فرغ عمر من قوله سؤاله قائلاً « أشيروا على أيها الناس ؟ » ، ففهم الأنصار أن الرسول يقصدهم ، فهم كانوا قد بايدهم يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونسائهم ، ولم يبايعوه على اعتداء خارج مدنهما ، فلما أحسوا أنه يريدهم قال سعد بن معاذ سيد الأوس وقال « لعلك تريديننا معاشر الأنصار يا رسول الله ؟ » ، فقال عليه السلام « أجل » ، قال سعد « قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيتك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها ألا ينصروك إلا في ديارهم ، وان أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاطعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، وقطع حبل من شئت ، وسلام من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلىنا مما تركت ، وما أمرت من أمر فامرنا نتبع أمرك ، فامض يا رسول الله لما أردت فتحن معك ، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تختلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وإننا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريد منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله تعالى فتحن عن يمينك وشمائلك وبين يديك ومن خلفك » .

وسرّ الرسول من قول سعد وقال « سيروا وابشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين فواله لكأن الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

وارتحلت قوة محمد من مواقعها في ذفران ، ونزلت موقعاً قريباً من بدر ، وأسرع الرسول ومعه أبو بكر ، وفي رواية أخرى معاذ بن جبل ، يجتمعان

الخبر عن قريش حتى وقفوا على شيخ يقال له سفيان ، وسأله الرسول دون أن يعرفه الشيخ عن قريش وعن محمد ، فقال له الشيخ « قد يبلغني أن مهداً وأصحابه خرجوا في يوم كذا فإن صدق الذي أخبرني به ، فهم اليوم بمكان كذا ، وببلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا فإن كان الذي أخبر به صدقاً فهم اليوم بمكان كذا » .

ولما كان الموضع الذي قال عنه الشيخ إن مهداً فيه صحيحاً ، فقد أدرك الرسول أن الموضع الذي قال الرجل إن قريشاً به صحيح أيضاً ، وعاد الرسول إلى قومه ودعا لهم وقال « اللهم إنيهم حفاة فاحلهم ، اللهم إنيهم عراة فاكسنهم ، اللهم إنيهم جائع فأشبئهم » .

وبعث الرسول على بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ، في نفر من أصحابه إلى بدر ، يتlossen له الخبر ، فأصابوا غلامين أحدهما لبني الحجاج والآخر لبني العاص ، فأتوا بهما إلى رسول الله فقال لها « أخبراني عن قريش ؟ » ، فقالا « هم وراء هذا الكثيب بالعدوة القصوى » ، فقال لها « كم القوم ؟ » ، قالا « والله كثير عددهم شديد بأسمهم » ، فقال لها « ما عددهم ؟ » ، قالا « لا ندرى » ، فسألها « كم تنتحرون كل يوم ؟ » ، قالا « يوماً تسعماً ويوماً عشر آما » ، فقال الرسول لاصحابه « القوم ما بين التسعمائة والألف » ، ثم عاد الرسول وسألها « من فيهم من أشراف قريش ؟ » ، قالا « عتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وأبو البحتري بن هشام ونوفل بن خويبل والحارث بن عامر وطعيبة ابن عدى والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وسهل العامري وعمرو بن عبد ود » ، فقال الرسول لصحبه « هذه هي مكة أقت إليكم أفلاذ كبدها » .

وكان اثنان من الصحابة قد ذهبوا حتى نزلوا بدرًا في ذات الوقت الذي ذهب فيه علي والزبير وسعد إلى ماء بدر وأناخ الرجالان إلى تل قريب من الماء ، وأخذوا وعاء لهما يستقيان ، وإنهما على الماء إذ سمعا جاريتين تخاضعن وتطلب إحداهما الأخرى بدين عليها ، وسمعا الثانية تقول « إنما تأق العير غداً

أو بعد غد فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك ، فعاد أرجلان وأخبرا الرسول بما سمعا .

وتحرك المسلمين إلى ماء بدر ، فلما جاموا أدنى ماء نزل به محمد وكان الحباب بن المنذر بن الجحوج عليها بالمكان فقال للرسول « يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلتك الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى وال الحرب والمكيدة ؟ » ، فقال الرسول « بل هو الرأى وال الحرب والمكيدة ؟ » ، فقال « يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانه ض بالناس حتى نأى أدنى ماء من القوم فنزل ثم نور ما وراءه من القلب (١) ثم نبى عليه حوضاً فنملوه ماء ثم نقاتل القوم فتشرب ولا يشربون » ، واستجابة الرسول لرأى الحباب وأخذ به (٢) .

وبعد أن بني المسلمون الحوض أشار سعد بن معاذ قاتلا « يا رسول الله نبى لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركابيك ثم نلق عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركابيك فلتحقت بمن ورآنا من قومنا فقد تختلف عنك أقوام يا بني الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ولو ظنوا أنك تلق حرباً ما تختلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصونك ويجهدون معلك » ، وأقر الرسول ما أشار به عليه سعد .

٢ - من جانب قريش :

كان أبو سفيان قد علم بخروج محمد لاعتراض قافلته حين رحلتها خاف أن يعترضه محمد ورجاله أثناء عودته ، بعد أن ربحت تجارتة ، وهذا كان كثير السؤال أثناء عودته ، فسأل الجھنی الذى نزل عليه رسول محمد بالحوراء فأبلغه من أمر محمد ورجاله ، خاف أبو سفيان عاقبة أمره ، إذ لم يكن من قريش من يحمي العير ويحرسه إلا ثلاثة أو أربعون ، فاستأجر ضحضم بن عمرو الغفارى ، وبعث به إلى مكة يخبر قريشاً أن محمد قد اعترض أموالهم

(١) الآبار .

(٢) أمر الرسول بتنفيذ رأى الحباب فتحول المسلمين في نصف الليل وامتلكوا مواعيده الماء .

ووصل ضحضم إلى مكة ، فقطع أنفه ، وجعله ، وحوال رحله ،
ووقف عليه وقد شق قيصه من قبل ومن دبر وأخذ ينادي ، يا معاشر قريش !
اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى
أن تدركوها .. الغوث .. الغوث ..

وكا سبق القول كان لكل قرشى وقرشية نصيب في هذه العير ، فثارت ثائرة قريش ، وكان أكثرهم ثوره أبو جهل . فأخذ يثير الناس ويستفزهم ، وكانت هناك طائفه من أهل مكة تردد بأمل لا يصبغ انعير مکروه وكانت هذه الطائفه تذكر أن هناك ثاراً بين قريش وبين کنانة ، وقد تستغل کنانة الفرصة لتهاجم قريشاً وتطعنها من الخلف ، وجاء مالك بن جعشن المدلي و هو من أشراف کنانة ، وأعطى قريشاً أماناً بala يطعنها وقومه کنانة في أثناء اشتباكاً مع محمد ، وهنا زادت قوة الداعين إلى الخروج للاقفه محمد ، وخرج أشراف قريش إلا إبا لمب الذى بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة .. حتى ان أمية بن خلف وكان رجلاً كبيراً وقد قرر القعود لم يسلم من أبي جهل وعقبة بن أبي معيط ، إذ دخلوا عليه ومهما بحمره فيها بخور ، ومكحلة ومرود وقال له عقبة « يا أبا على استجمرا فلما أنت من النساء » ، وقال أبو جهل « اكتحل أبا على فلما أنت امرأة » ، فقال لها أمية « ابتاعوا إلى أفضل بعير في الوادي ، وخرج معهم ، ولم يبق بمكة متخلف قادر على القتال .

نعود إلى أبي سفيان فتجده يسبق العير ، يتلمس الأخبار عن محمد ، خوفاً من أن يكون قد سبقه إلى الطريق ، فلما ورد الماء قرب بدر وجد مجدي بن عمرو فسأله هل رأى أحداً ؟ ، فقال له مجدي « رأيت رجلين أناخا إلى هذا التل . » فأسرع أبو سفيان إلى المكان وعرف أن الرجلين من المسلمين^(١) ، فعاد إلى أصحابه وعدل سيره عن طريق ساحل البحر ، حتى بعد ما بينه وبين محمد ونجا بذلك مع عيره .

(١) عند ما وصل أبو سفيان إلى التل تناول بمرات من فضلات الراحتين ثم قتها فإذا فيها التوى فقال « هذه والله علائق بثرب » وأدرك أن الرجلين من رجال محمد وأن جهنه قريب منه .

وعلمت قريش بنجاة ثياراتهم عندما بعث إليهم أبو سفيان يقول «إنكم قد خرجمت لمنعكم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا» .
ورأى من قريش رأيه عدد غير قليل ، وعارض أبو جهل الذي قال
«لازوج حق زد بدرآف فنقيم عليه ثلاثة نسخة الجزر ونطعم الطعام ونسقى
الخمر وتعزف علينا القبان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون
يهابوننا أبداً بعدها» .

نزلت قريش منازل القتال ، وبعثوا عمير بن وهب الجمحي يتقصى لهم خبر المسلمين ، فركب فرسه وجال به حول معسكر النبي ، ثم رجع إليهم وقال
«ثلاثمائة أو يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً لاكتين لهم ولا مورد ولكنهم
قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم فلا يموت الرجل منهم قبل أن يقتل
رجلًا مثله» .

وأبدى رجل من قريش «هو عتبة بن ربيعة رغبته في إيقاف القتال وفي
العودة إلى مكة» ، فقد جاءه حكيم بن حزام بعد أن سمع مقالة عمير ، وقال له
«يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها هل لك إلى إلا تزال
تشكر فيها بخير إلى آخر الدهر» ، فقال له «وما ذاك» ، قال حكيم «ترجع بالناس» ،
فقام عتبة خطيباً وقال «يامعشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا
وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر في وجهه رجل قتل
ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر
العرب ، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك لم تتعرض منه
لمسكروه» .

وغضب لهذه الدعوة أبو جهل وبعث إلى عامر بن الحضرمي يقول له «هذا
حليفك^(١) يريد أن يرجع الناس ، وقد رأيت نارك بعينيك ، فقم فانشد
مقتل أخيك» .

(١) قتل واقه بن عبد الله في سرية عبد الله بن جعشن إلى نحنة عمرو بن الحضرمي وتماله
عقبة مع أخيه عامر ليأخذ بالنار .

وعاد بنو زهرة ، وهم أخوال الرسول إلى مكة ، ولم يشتركوا في القتال وكيف ذلك رجع طالب بن أبي طالب ، وأراد بنو عبد المطلب العودة ، ولكن حال أبو جهل بينهم وبين ذلك .

ولم يعد هناك مفر من الحرب .

الاشتباك

برز رجل من صفوف قريش هو الأسود بن عبد الله المخزومي - وكان رجلاً شرساً سيء الخلق شديد العداوة لرسول الله - وقال : «أعاهد الله لأشرين من حوضهم أو لأهدمته أو لاموت دونه ..» وخرج له من صفوف المسلمين حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقى ضربه حمزة ضربة أطاحت بنصف ساقه ووقع على ظهره والدم يسيل من رجله ، ثم زحف حتى وصل إلى الحوض فشرب منه وركله برجله الصحيحة فهد جزءاً منه ، فأسرع حمزة وضربه حتى قتله .

وخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة ، وابنه الوليد ، ودعا المبارزة ، فخرج له ثلاثة أخوة من الأنصار هم معاذ وعوف ، فقال لهم عتبة «من أتم؟ قالوا «رهط من الأنصار» ، فقال لهم «مالنا بكم من حاجة ، نزيد قومنا ، يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا» ، فقال الرسول «قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا على ..» قوموا يا بن هاشم فقاتلوا بحقكم الذي بعث به نبيكم إذ جاءوا يبطئونهم ليطفئوا نور الله ..» فبارز عبيدة عتبة ، وحمزة شيبة ، وعلى الوليد ... أما حمزة فقتل شيبة ، وقتل على الوليد ، أما عبيدة فقد أصيب بضربة من عتبة ، فخذبه على وحمزة إلى الرسول الذي أكرمه بأن وضع على قدمه الشريفة خده وقال له «أشهد أنك شهيد ..»

وفي صبيحة يوم الجمعة الموافق سبعة عشر من رمضان بدأ الاتحاح .

وكان الرسول قد قام يبدل صفوف المسلمين ، فلما شاهد قوة المشركين وكثرة عددهم ، عاد إلى عريشه ومعه أبو بكر ، وهو أشد ما يكون خوفاً

واستقبل القبلة ، واتجه بكل نفسه إلى ربه ، وجعل ينشد ما وعده به ، وأخذ يردد « اللهم هذه قريش قد أنت بخيلاً لها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ». .

ومازال يدعو ربه ، حتى سقط رداوته ، وجاء أبو بكر يرد الرداء على منكبيه ، ويقول له « يا نبى الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك »، وظل الرسول في مكانه ، يدعو ربه ، حتى خفق خفقة من نعاس ، رأى خلاها نصر الله . فقال لأبي بكر « أبشر يا أبا بكر أنت نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنيا النقع ، ثم خرج إلى الناس يحرضهم ويقول لهم : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ، ونزل قوله تعالى :

« يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرْضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقَتْلِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . الآنَ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعْلَمَ أَنَّ فِيهِمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ يَا ذَنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »^(١) .

وخرج الرسول إلى قواته المقاتلة ، يدفعهم إلى مقالمة العدو ، وينظم لهم صفوفهم ، ويقودهم في أولى معاركهم ضد حلفاء الضلاله وجند الوثنية ، وكان يقول لجندته « إن دنا القوم منكم فانضوهم عنكم بالليل واستيقوا نيلكم على بعد فإن الرمى مع بعد غالباً يخطيء » ، « لا تسلوا السيف حتى يغشوك » ، وخطبهم خطبة حثهم فيها على التبات والصبر ، « إن العبد في مواطن البأس ما يفرج الله عز وجل به الهم وينجي به من الغم » .

واشتد القتال ووجه المسلمين همهم الأكبر إلى سادات قريش يريدون

(١) سورة الأنفال ٦٥/٦٤

استصالهم فقد عذبوا وصدموا عن المسجد الحرام ، ولم يلتحم بلال أمية بن خلف وابنه وكان أمية هو الذي عذب بلالا فقال بلال : «أحد... أحد... أمية رأس السكفر لا نجوت إن نجا» . وقتله بلال ، وقتل معاذ بن عمرو بن الجحوج أبا جهل^(١) ، وأخذ الرسول حفته من الحصبة فاستقبل بها قريشاً وقال : «شاهدت الوجه» ، ثم أمر أصحابه قائلاً : «شدوا ، فشد المسلمون وزل قوله تعالى :

«إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَيْكَ مَلَائِكَةً أَئِي مَعَكُمْ فَبَتَّوَا الدِّينَ آمَنُوا سَأْلُوكِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ»^(٢) «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى»^(٣) .

وفر سادة قريش ، وفر أيضاً جيش قريش وانتصر المسلمون . وكانت معركة بدر الكبرى في صالح محمد ورجاله .

بعد المعركة

ولى أهل مكة الأدبار ، كاسفاً بالظم ، خاشعة من الذل أبصارهم ، لا يكاد أحدهم يلتقي بنظر صاحبه حتى يوارى وجهه خجلاً من سوء ما حل بهم جميعاً .. وأخذ الحيسان بن عبد الله الخزاعي يبحث الطريق إلى مكة ، حتى كان أول من دخلها ، وأخبر أهلها بهزيمة قريش ومصابها في سادتها وأثير اهتمامها وكبرياتها .

أما المسلمون فقد بعثوا عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة يلقيان على أهل المدينة ، بما فتح الله على المسلمين من البصر ، ثم بقوا يدركون آخر النهار

(١) قبل ابن عفرا شد على أبي جهل وتركاه بين الحياة والموت ثم مر به عبد الله بن مسعود فجمد فوق سدره وجعل بهوى عليه بيته حتى خد

(٢) سورة الأنفال ١٢

(٣) سورة الأنفال ١٧

يجمعون قتيلاً قريشاً ويدفونهم في قليب حفروه لهم، وروى أن الرسول عندما رأه قال «بنس عشيرة النبي كنتم لذِيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وأواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس».

وفي الليل بقى الرسول وأصحابه يجتمعون الغنيمة ويسرون على الأسرى
وفي جوف الليل استمع المسلمون إلى صوت الرسول وهو يقول «يا أهل
القليل! يا عتبة بن ربيعة! يا شيبة بن ربيعة! يا أمية بن حنف! يا أبو جهل
ابن هشام (واستمر يذكر من في القليب واحداً بعد واحد) يا أهل القليب
هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإذ وجدت ما وعدنى ربى حقاً ، ، إنما له
المسلمون « يا رسول الله أتنا دى قوماً جيفوا ١١ ، فقال عليه السلام « ما أنت
باسم لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطعون أن يحيوني » .^(١)

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلّٰهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللّٰهَ
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ يَدِنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللّٰهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ . »⁽⁵⁾
وَحَسْمُ الرَّسُولِ الْمُوقَفُ بِجُمْعِ الْغَنِيمَةِ كَمَا وَحِجزَ لِنَفْسِهِ مِنْهَا الْخَيْرُ، وَدُرْزُخ
الباقِ تَنْفِيذًا لِأَمْرِهِ تَعَالٰى :

(١) تذكر عائشة هذا الحديث متحججة بقول الله « وما أتت بِعِصْمٍ مِّنْ فِي الْأَقْوَرِ ، إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ » ، وتقول إن « من الذي قاله الرسول « أَنْتُمْ أَعْلَمُ لِمَا أَنْتُ مِنْهُمْ . » (كتاب فتوح الملة)

(٢) بن حمود الفنا

(٢) من جهوا الفناء
(٣) كلانا بطال دعوه

(٣) من كانوا يطاردون العدو حتى هزّته

(٤) من كانوا يحرسون الرسول خوفاً من أن يرتد إليه المدوسون .

(٤٠) سورة الأنفال

«وَاعْلَمُوا أَنَّا غَنِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ مُحَمَّدَ وَالرَّسُولُ وَلِنِي الْقَرِبُ
وَالْيَتَائِي وَالْمَسَاكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمِنُتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى
عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانَ يَوْمَ التَّقَى الْجَمِيعُونَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(١)

نتائج الموقعة

١ - في جانب المسلمين

١ - أنهز أقه وعده ، وأعز جنده ، وتم لل المسلمين النصر ، وأعز من حضرها من المسلمين ، فهو عند الله من الأبرار ، وقد قال الرسول «لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال أعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة» ، وبهذه الغزوة ، وبهذا الانتصار استقر الأمر للMuslimين في بلاد العرب جميعاً ، وكانت هذه الغزوة مقدمة وبداية للإمبراطورية الإسلامية المتaramية الأطراف .

٢ - وضع مبدأ هام في توزيع الغنيمة وقرر ، بناء على أمر الله تعالى ، في سورة الأنفال الذي سبقت الإشارة إليه أن يكون للرسول الحس ، وأن يكون لورثة الشهيد حصة ، ولمن تختلف عن الحرب وكان قاتلاً بالعمل للMuslimين حصة ، ومن تختلف لعنده قبله الرسول حصة .

٣ - أيقن المشركون والمناقون واليهود^(٢) الموجودون بالمدينة أن موقفهم بعد انتصار الرسول على قريش قد أصبح ضعيفاً ريكـا ، فما كاد المسلمين يعودون إلى المدينة معزين بالنصر ، حتى أخذت هذه الطواف تغري بهم وترسل الأشعار في التحرير ضدهم ، وتذير ضدهم ، وامتلأت نفوس أفرادها بالغلو والجحود والضفينة ، وقد اضطرب المسلمين إلى قتل أبي عفك أحد بنى عمرو بن عوف لأنه ظل يقول الشعر طعناً في الإسلام

(١) سورة الأنفال ٤١

(٢) لم يصدق هؤلاء بأن انتصار الرسول الذي حبه لأبيهم زيد بن حارثة وبعد اتفاقه بن رواحة قالوا «لن نحصد قتل وأصحابه هزموا ومنه نافرها جميعاً ، ولو أنه انتصر لقيت منه ولنما يقول زيد ما يقول هذين من الفزع والرعب .»

وفي رسول الله ، وتحريضاً لغير الخروج على المسلمين ، فذهب إليه سالم بن عمير ووضع سيفه على كبدته وقتله ، واضطرب المسلمون أيضاً إلى قتل عصام بنت مروان من بنى أمية بن يزيد ، فقد ظلت تعيب الإسلام وتؤذى الرسول وتعرض عليه ، بفاجأها عمير بن عوف وقتلها^(١) .

كما اضطر المسلمين إلى قتل كعب بن الأشرف ، وهو الذي قال حين علم باتصار الرسول : « بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب أشراف الناس وسادتهم وملوك العرب وأهل الحرم » . وهو الذي ذهب إلى مكة يحرض أهليها على الرسول ويبيك أصحاب القليب ، حتى أثار ذلك جمأاً من المسلمين ، فدفعوا إليه أحدهم يستدرجه بعيداً عن بيته ثم صاح : « اضرموا حدو الله » ، فضربوه بأسيافهم حتى مات ، وقد أدى هذا التنازع بين المسلمين واليهود إلى اشتباك الطرفين كما سنو خنه فيما بعد .

٤ - وضع الرسول بعد بدر مبدأ خاصاً بمعاملة الأسرى مستعرض له في حدثنا عن الأسرى في باب قادم .

٢ - في جانب قريش

أذهلت المزينة قريشاً وأضاعت صواب أهليها ، حتى أن أبا هب ثمّ على أثر سماعه بما المزينة المرة ومات بعد سبعة أيام . . . وتشاورت قريش في الموقف ، وأجمعت على ألا تتوح على قتلها مخافة أن تثير شماتة المسلمين ، وعلى ألا تبعث في أسرائها ، حتى لا يتشدد عليها الرسول ويغلو في الفداء ، وبرغم هذا الذي أجمع عليه فإنها أخذت تفتدي أسراءها ، وكان الفداء يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل ، وقيل ألف ، وأما من لا شيء عنده ، فإن الرسول من عليه بمحريته .

وأخذت نساء قريش ينعن وي يكن على قتلها شهراً كاماً ، بفزن شعر دموسهن ، وكان يوئي برحلة الرجل أو بفرسه ويجتمع حولها النساء وينعن ،

(١) أقبل بنوها على عمير وقالوا له : « يا عمير أنت قتلتها ؟ » قال : « نعم فشكبون جبأ ثم لا تظرون فوالذي نفسى بيده لو قاتم بأجمعكم ما قالت لضربيكم بسفق حتى أموت أو أفسكم » .

ولم يخالف هذا سوى هند بنت عتبة زوج أبي سفيان .. قالت لها بعض النساء : « ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟ » ، قالت : « أنا أبكيهم فيبلغ مهدا وأصحابه فيشمتوها بنا ويشمت بناتي بنى الخزرج ، لا والله حتى أنا من محمد وأصحابه ، والدهن على حرام حتى نغزو محمد ، ولله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي لبسكت ، ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثارى بعيني من قلة الأحبة » .

وأما أبو سفيان فنذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمد .

ومن هنا يتضح أن قريشاً قبلت المزعمة مضطراً ، وأنها لا بد آخذة بالثار من محمد وأصحابه ، حتى أنه اجتمع في دار الندوة جبير بن مطعم ، وصفوان ابن أمية ، وعكرمة ابن أبي جهل والحارث بن هشام ، وحويطب بن العزى ، وقرروا أن تباغ العير التي كانت سبب الموقعة ، والتي عاد بها أبو سفيان من الشام ، وتعزل أرباحها ويجهز بها جيش لقتال محمد ، وأن تستنصر بها القبائل فيشاركونا قريشاً في أخذهم بالثار ، وقد استنفروا أبا عزة وهو شاعر عغا عنه النبي وكان ضئلاً ، أسرى بدر ، واستنفروا بعض من اتبعهم من الأحباش ، وصاحت النساء على أن يخرجن مع الغزاة .

الدروس المستفادة

وبرغم أن بدرأ تعد أول غزوة من غزوات جيش الإسلام ، وبرغم أنها المرة الأولى التي يقف فيها الرسول الكريم موقف المخرب ، فإننا نستخلص من هذه الغزوة دروساً حربية لها قيمة في مجال الحرب ، ومبادئ خطيرة لها شأنها في سير المعركة ، وبرغم اختلاف العصر الذي نعيش فيه الآن ، والعصر الذي تمت فيه غزوة بدر فإن هذه المبادئ لم تتغير ولم تتبدل لأنها الأساس السليم لكل حرب في كل عصر ، ومن عجب أن هذه الأساس نراها واضحة ظاهرة في حروب الرسول ، أى في الحروب التي استخدم فيها السيف والرمح والقوس .

ومن أهم هذه الدروس :

١ - أهمية الفضاء على قوة العدو الاقتصادية ، ووضعها في المقام الأول لأن في الفضاء عليها قضاء على القوة العسكرية ، ولقد أدرك ذلك الرسول وأهتم به إذ ثبتت هذا الاهتمام من الفزوات الأولى والسرايا التي بعث بها قبل بدر ، فقد كان هدفه الأول منها القضاء على تجارة وقوافل قريش ، ونحن في عصرنا هذا نسمع عن الحرب الاقتصادية والمحار الاقتصادي ، وما السلاح الذي استخدمه الرسول .

٢ - الشورى هامة جداً في الميدان وقت الحرب ، فالقائد الحكيم هو الذي يستشير جنده وخبراءه ليعرف منهم خطة السلية الصحيحة التي تؤدي إلى النصر ، وما لا شك فيه أن خطة توضع بعد دراسة أفراد عديدين وبعد مشاورات ومناقشات خير من خطة ينفرد بها فرد واحد .

٣ - أهمية القوى المعنوية للمحاربين ، وكل القادة يبدون اهتماماً كبيراً بهذه القوى ، لا يقل عن اهتمامهم بالقوى المادية وقد قال نابليون إن نسبة القوى المعنوية في الميدان إلى القوى المادية كنسبة ٣ : ١ والقوى المعنوية هي العامل الأول الذي دفع المسلمين إلى النصر برغم قلة عددهم وكثرة عدوهم .

٤ - تلاحظ أن الرسول اهتم اهتماماً بالغاً بالاكتشاف والاستطلاع ، وأنه كان يقوم بنفسه تقديرآ منه للتتابع الخطيرة التي تترتب على الكشف السليم الصحيح كما أنه صلى الله عليه وسلم كان يختار من يثق بهم لأداء هذه المهمة الخطيرة .

٥ - تنظيم أعمال الجواسيس والقناصة واختيار الصالحين لهذه العملية وعدم فرض فرد معين للقيام بهذا العمل الذي يحتاج إلى روح عالية ورغبة أكيدة .

٦ - تكتيكات الحرب الذي يبدو واضحاً في السرية التامة في التحركات ، وبخاصة خلال العملية ، فاحتلال المسلمين لموقع المياه تفيضاً لرأي الحباب

ابن المند تم في متصرف الليل حتى لا يشعر بهم العدو ، والرسول كان يأمر
جنه بأن يظلوا في أماكنهم لا يتحركون أو يتحدثون أو يأتون بما يثير انتباه
أعدائهم ، وكانوا بذلك يتذكرون عدوهم يتقدم ويتقدم ، ويظل في قدمه حتى
إذا أصبح في مرى النبال ألقواه عليه فتصيب منه العد الكبار ، فوق ماتعده
المفاجأة في نفسه فيربك ويضطرب وتكتثر إصاباته ويزيد عدد قتلاه .

٧ - الأساس السليم الذي وضعه الرسول في توزيع الفنية ، وواضح
أن الرسول جعل حصة للمجاهد في الصدف ، وحصة للمجاهد خلف الصدوف ،
وحصة للعجز الذي وقف عجزه أمام اشتراكه في المعركة ، وحصة لآسرة
الشهيد الذي دفع حياته ثمناً لدينه ولرسالة نبيه .

٨ - معاملة القتلى من الأعداء ؛ فإن النبي قضى نهار يوم بدر يجمع قتل
قريش ويدقفهم في القليب ، وهذه روح جليلة ومبدأ إنسان كريم لا يحمد له
مثيلاً في الحروب المختلفة في مختلف العصور والأزمان ، ولا ينفي عن بانيا
ما سمعناه من قصص التمثيل بالقتل وحرق الجثث وقطعها وتشويهها .

٩ - معاملة الأسرى معاملة كريمة ؛ فإن الرسول قبل الفداء ، وفوق هذا
أطلق سراح الأسير الفقير الذي لا مال له ولا شيء عنده يفتدي به نفسه .

١٠ - الروح السمحنة في الحرب ؛ فإن الرسول أصدر أوامره إلى المسلمين
لا يقتل أحد من بنى هاشم ، ولا يقتل بعض أشراف مكة . برغم أنهم
اشتركوا في القتال ، وكان الدافع لذلك أن الرسول كان يذكر لبني هاشم منهم
إياده منذ بعثه إلى هجرته ، حتى أن عمه العباس كان معه ليلة بيعة العقبة ، وذكر
لغير بني هاشم ما قاموا به وهم على الكفر ، يطالبون بتفصيل الصحيفة التي
اضطربت بها قريش الرسول أن يلزم هو وأصحابه الشعب .. لقد اعتبر محمد
هذا كله حسنة يجزى مقدمها بمثلها بل بعشرة أمثالها .

١١ - ضرورة تغلغل العقيدة في نفوس المغاربين ؛ فإن العقيدة المتعلقة
في نفوس المسلمين بلغت منزلة تسمى على صلات الرسم والتقرابة ، فكان

الرجل منهم يقتل أباه أو أخيه أو عمه أو قريبه من المشركين لا تأبه فيه شفقة أو رحمة، فها هو ذا عبد الرحمن ابن أبي بكر يقول لأبيه بعد إسلامه «يا أبا، لقد أهدفت لي يوم بدر مراراً فصدت عنك»، فقال له أبو بكر: «لو كنت أهدفت لي أنت ما صدلت عنك»، وجاء في السيرة الخلية أن الرسول نظر في وجه أبي حذيفة بن عتبة فألفاه كثيراً قد تغير لونه فقال «لعلك يا أبو حذيفة قد دخلت من شأن أيك شئ؟»، فقال «لا والله يا رسول الله! ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحيناً مفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما كان عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجو له، أحزقني أمره».

١٢ - الجزء الذي فاز به المجاهدون في سبيل الله .. خرج الرسول يوم بدر في ثلاثة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه، فلما انتهى إليها قال «اللهم إنهم جياع فأشبعهم، اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكفهم»، ففتح الله يوم بدر، وما رجل منهم إلا وقد رجع بحمل أو حملين واكتسوا جميعاً وشعروا^(١)

وروى أن أم حارثة بن سرافحة، وقد قتل يوم بدر، حامت الرسول وسألته «يارسول الله، أخبرني عن حارثة؟ فإن كان في الجنة صبرت، وإن فليرين الله ما أصنع، فقال لها الرسول «ويحك أهيلت؟ إنها جنان ثمان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى».

محمد ويهود بنى قينقاع

كان يهود بنى قينقاع أغنى يهود المدينة جميعاً، لأنهم كانوا صاغة أبططم الغنى وجرفهم الحسد لرسول الله والتفاف الانصار حوله عن سواه السبيل،

(١) عن عبد الله بن عمرو.

(٢) عن أنس بن مالك.

و咤يقهم أن يروا هذا الرجل الذي وفد عليهم منذ أقل من عامين فارقاً مهاجراً من مكة ، يزداد سلطاناً وبأساً ، ويقاد يكون صاحب الكلمة في أهل المدينة جميعاً لا في أصحابه وحدهم .

مستصرف الشر ١

ذهبت امرأة من الانصار إلى سوق لبني قينقاع تبيع بضاعة لها وجلسه إلى صانع ، فجاء جماعة من اليهود وجعلوا يراودونها عن كشف وجهها . فأبى فعمد الصانع إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، وقيل في رواية أخرى أتبه بشوكه إلى ظهرها ، وهي لا تشعر ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، ومحکوا منها ، فصاحت ، ووثب إثر صيتها رجل من المسلمين على الصانع قتلها ، وشدت اليهود على المسلم قتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، ووقع الشر بين المسلمين وبين يهود بني قينقاع ، وبلغ الخبر النبي فقال « ما على هذا أقرب فاجم » ، ثم دعا اليهود وقال لهم « يا مشر اليهود اخذروا من آلهة مثل ما نزل بقريش من النكمة فإياكم قد عرفتم أنى مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله تعالى إليكم به » ، فقالوا « يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنما والله لو حاربناك لتعلمون أنا نحن الناس ، وإنك لم تلق مثنا ، وأنزل الله تعالى فيهم :

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغلَبُونَ وَتُخْسِرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَهْدُ
قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِنَا التَّقَاتَا » .

كان بنو قينقاع أشجع اليهود وأكثرهم أموالاً وأشدّم بغياً ، واعزم الرسول حربهم ، وكان متبيأً من هذه الحرب ، فأنزل الله قوله :

« وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » (١) .

قال الرسول على أثر نزول هذه الآية : « إِنَّ أَخَافَ مِنْ بَنِي قِينَقَاعٍ وَاعزم حربهم مستندًا إلى ما رخص له الله فيه من ذلك .

(١) سورة الأفال ٥٨

وكان بنو قينقاع حلفاء للخزرج ، فلما علم عبادة بن الصامت ، أحد رؤسائهم
الخزرج ما كان من الإذن في حربهم ، تبرأ من حلفهم ، في حين تسلك عبد الله
ابن أبي بهذا الحلف ، وهو يقول « أخشى الدوازير » وأنزل الله تعالى :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بِعِظَمِ
أَوْلِيَاءِ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى
أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَنْ يُرِيَ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبُهُوا
عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ».

الحصار

أعد الرسول جيشاً كبيراً ، حل لواهه حزنة بن عبد المطلب ، وخلف على
المدينة أبو البابا الأنصاري ، وكان ذلك في منتصف شوال ، ولما علم اليهود
بسير الجيش الإسلامي ، تخربت شجاعتهم ، وهربوا إلى حصنهم وقبعوا فيها ،
وتحصنوا وراءها ، فأمر الرسول بمحاصره ودام الحصار خمسة عشر يوماً ،
لا يخرج منهم أحد ، ولا يدخل عليهم بطعم أحد ، حتى لم يبق لهم إلا النزول
على حكم محمد والتسليم بقضائه ، وأعلنوا استسلامهم ، فقرر الرسول بعد
مشورة كبار المسلمين قليلاً ، فأسرع عبد الله بن أبي إلى الرسول ، وكان
حليفاً لليهود والمسلمين وقال « يا محمد أحسن في موالي » وجاء عبادة بن
الصامت يحدث الرسول في أمر اليهود وقال « أربعمائة حاسرون وثلاثمائة دارع
قد منعوني من الأمر ، والأسود تحصدتهم في غداة واحدة » ، وقبل الرسول
وساطة الرجلين وقال لابن أبي « هم لك على أن يخرجوا من المدينة ولا يحاورونا
بها » ، وتقرر أن يجلو بنو قينقاع عن المدينة جزاء لهم ، وحاول ابن أبي أن يبيح
عليهين في المدينة ، فحال أحد المسلمين بينه وبين الحديث في هذا الرجاء إلى
الرسول ، واشتجر حتى شج عبد الله ، فقالت بنو قينقاع « والله لا نقيم بيلد

تفج فيه يابن أبيه ولا تستطيع عنك دفاعاً ، ثم غادروا المدينة إلى آخر عات بالشام تاركين ورائهم سلاحهم وأدوات الذهب الذي كانوا يصوغونه .

مناورات قبل أحد

١ - أقسم أبو سفيان بعد بدر ألا يمس النساء وألا يفضل بدنه بهاء ، حتى ينزو محمدأ ، ليثار لقتلي بدر وليعيد إلى الأذهان ، أن قريشاً ما زالت بغير وأنها ما زالت لها قوتها وعصيتها ، وأنها قادرة أبداً على الغزو والقتال ، ولذلك جمع ماتى راكب من قريش وسار بهم مستخفين ، حتى وصلوا إلى ناحية قرية من المدينة يقال لها العريض ، فوجدوا رجالاً من الأنصار وحليفاً له قتلوا هما ، وحرقوا بيتهن وخيلاً ، ثم ولوا هاربين عندما خرج إليهم الرسول ، وكانوا في أثناء هربهم يلقون بالزاد الذي معهم من السوق ، وكان المسلمون في مطاردتهم يأخذون ما يلقي ، ولما وجد الرسول أن الفارين أمعنا في الفرار عاد وأصحابه إلى المدينة وسميت الغزوة بغزوة السوق .

٢ - بلغ الرسول أن جماعاً من عطافان تحت قيادة أحدم ويسمى دعنور ، اعتزم الاعتداء على المسلمين . خرج إلى قرفة الكدر في أربعة وخمسين رجلاً ، ليأخذ عليهم الطريق ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان ، ولما سمع الجماع بسير الرسول إليهم ، تفرقوا وهرموا في رموس الجبال . . . وحدث أن اتتحى الرسول جانباً وزرع سلاحه ليستريح قبلاً ، وكان رئيس عطافان (دعنور) يراقبه من بعيد ، فلما رأى انفراده وتجدده من سلاحه تسلل ، ووقف شاكراً السلاح فوق رأسه وقال « من يمنعك من يا محمد؟ » قال الرسول في هدوء « أنت » ، فسقط السيف من يده ، فالتفت الرسول وقال له « من يمنعك مني؟ » ، قال « لا أحد » ، فمما عنده الرسول وأسلم الرجل وهو أقومه إلى الإسلام .

٣ - علم الرسول أن جماعاً من بنى سليم يهود بغزو المدينة ، فسار إليه في ثلاثة من أصحابه واستخلف على المدينة ابن مكتوم ولما وصل إلى بحران وجد القوم قد تفرقوا خوفاً وفزعاً ، فرجع إلى المدينة دون قال .

٤ - تجمع بعض من بنى نعلبة ومحارب يرمدون إصابة أطراف المدينة ،
نخرج عليه السلام في أربعاءة وخمسمين ، ولقي في طريقه رجال من نعلبة ، فسأله
عن القوم ، فقال له الرجل « لئنهم يا محمد سمعوا بمسيرك فهو بواب رومس
الجبال ، وأنا سائر معك ودالك على عورتهم » .

الحصار الاقتصادي

إن مكة تعيش على التجارة ، وعمل قريش الأول هو التجارة مع الشام ،
و طريق التجارة إلى الشام محفوف بالخطر ، فالمسلمون في طريقه يهاجرون
القوافل ، ويقطعون عليها الطرق ... وكان رسول يقصد بذلك هم
اقتصاديائهم وبالتالي هدم قوتهم العسكرية ...

وقف صفوان بن أمية يقول لسادة قريش « إن محمدأ وأصحابه قد
هوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه ، وهم لا يبرحون
الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسكن ،
وإن أقنا في دارنا هذه أكلنا رومس أموانا ، فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا
بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف ، وإلى الحبشة في الشتاء » .

وأشار عليه الأسود بن عبد المطلب أن « تنكط الطريق إلى الساحل
وخذ طريق العراق » ودلهم على فرات من حبان من بنى بكر بن وائل ليذلم
على الطريق ، وقال لهم فرات « طريق العراق ليس يطأها أحد من أصحاب
محمد ، فإنما هي أرض نجد وفياف » .

ولما علم الرسول بذلك ، بعث زيد بن حارثة في مائة راكب ، واعتربوا
التجارة عند القردة ، فقر الرجال ، وأصاب المسلمون العير ، وأسروا فرات
بن حيان ، وعرض عليه الرسول أن يسلم لينجو فأسلم ونجا .

وبذلك قطع الرسول طريق التجارة الجديد ، وبذلك أيضاً أكلت حلقات
الحصار التجارى فلم يعد لقريش منفذ إلى الخارج لتصريف تجارتهم ، وسدلت
في وجهها الأبواب والسبيل .

وقد حزن مكة لهذه النكبة الجديدة، وزادها ذلك إصراراً على المطالبة بثارها ، والتهيؤ للقاء المسلمين في تعبية كاملة ، فكان ذلك وما سبقه من أحداث التهديد القوى لحركة أحد في السنة الثالثة للهجرة .

الدروس المستفادة من العمليات بعد بدر :

١- استخدم الرسول الحصار في حربه ، والحاصر يعرف في صورنا هذا بالتطويق ، وهو يمنع القوات المحاربة من الاتصال بقوات أخرى ، كما يمنع عنها وصول الماء والتعين والذخيرة والمدد ، وبرور الوقت يتهمى ما تختلف به القوات المحاصرة ، ولا تستطيع لاستعوان المستهلك فلا يبقى أمامها إلا التسلیم ، وبتطور استخدام الطيران في الحروب الحديثة أصبح من السهل التغلب على الحصار بتموين القوات المحاصرة من الجو ، ومدها بما يلزمها من السلاح والذخيرة والعتاد .

٢- الروح الإنسانية النبيلة المسيطرة على الرسول ، وهو في الميدان عندما هدد دعور - رئيس غطفان - بالقتل . حتى إذا ما وقع دعور بين يدي الرسول ، منحه الصفح والحرية ، وكان في استطاعته قتله ، وهذه الروح الإنسانية النبيلة كان لها أثرها في نفس دعور ، فأعلن إسلامه ، ودعى أهله إلى الدخول في الإسلام .

٣- أهمية الروح المعنوية للقوات المحاربة في الميدان . . . فإن بني سليم وبنى محارب وبنى ثعلبة حينما تجمعوا المحاربة الرسول وأصحابه هربوا في المجال وفرقوا ، عندما سمعوا بتحرك الرسول إليهم لمواجهةهم ومقاتلتهم ، وهذا دليل كبير على أن الحالة المعنوية لدى هؤلاء كانت معدومة وضعيفة ، ولاشك في أن قوة الرسول وأصحابه وشدة تم في القتال هي التي دفعت هؤلاء إلى الفرار تهرباً من اللقائهم .

٤- أهمية الحصار الاقتصادي خلال الحرب وأثره البالغ في الإمداد والتعبية ، فما لا شك فيه أن قريش كانت في حاجة إلى أن تتعرض نجاحتها لزيادة ماطما ، فيزيد تبعاً لذلك سلامها ، ويتوفر لديها العتاد ، لنقضى به على دعوة

محمد ، وللغلط دينها هو الدين السادس في بلاد العرب ، ولقد أدرك الرسول ذلك فحمد إلى طعن اقتصاديات قريش ، وإلى القضاة على تجاراتها ، فتعرض لقوافلها ولعيرها ، وقطع على تجاراتها السبل إلى الشام وعمرقل وسائلها ، فأصاب اقتصادياتها ، وأضعف مجدها الحربي نتيجة لضعف اقتصادياتها .

ولا يغوتنا أن نierz أهمية المحالفات والمعاهدات التي ارتبط بها الرسول مع القبائل المقيمة على طريق التجارة إلى الشام ، وأثر هذه المحالفات والمعاهدات في تقوية موقف الرسول وتدعمه وازدياد الحرب الاقتصادية ضد قريش .

غزوات الرسول

(٢)

- غزوة أحد
- سرية أبي سلحة وابن أنيس
- مهد ويهد بنى النمير
- غزوات قبل الخندق

غزوة أحد

أسباب الغزوة

(١) من وجهة نظر قريش :

شامت قريش أن تنتقم من المسلمين هزيمتها في بدر ، وأن ثأر لقتلاها ، فقد كانت ترى في هزيمتها لطمة وعاراً ، وإصابة خطيرة لها في مركزها بين القبائل .

ورأت كذلك في غزوة السوبق أنها لم تقنها شيئاً .

ووجدت أن سرية زيد بن حارثة ، قد أخذت تجارة حين سلوكها سيل العراق إلى الشام .

وأثار ذلك كله قريشاً ، فقررت أن تعد جيشاً جراراً تقضي به على محمد ، وتزيل آثار هزيمتها في بدر ، وتعيد طريق التجارة حراً آمناً إلى الشام .

(٢) من وجهة نظر المسلمين :

بلغ العباس عم الرسول النبي أن قريشاً قد اجتمعت وقررت أن تخرج إليه ، ووجد الرسول نفسه مرة أخرى أمام قريش وجهاً لوجه ، يدافع عن دينه الجديد الذي يدعو إليه ضد قريش ، التي جاءته بربالها وأشرافها ، لعمل على هدم هذا الدين وتقويض أركانه .

الاستعداد

(١) من جانب قريش :

ذهب عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ومعهم كثيرون إلى أبي سفيان ، وإلى كل من كان له تجارة في العير التي كانت سبب غزوة بدر ، وكانت تلك العير في دار الندوة ، كاهى ، لم تعط لآربابها

قالوا «إن مهداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينوا بهذا المال على حربه ،
لعلنا ندرك منه ثاراً عنن ، أصابتنا ، ونحن طيبو النفس ، أن تجهزوا بربع
هذه للغير جيشاً إلى محمد» ، فقال أبو سفيان : «وأنا أول من أجاب إلى ذلك» .

وافتقت قريش أن يكون إعداد الجيش من ربع المال ، وكانت رموز
الأموال حسين ألف دينار ، وكان الربع لكل دينار ديناراً فكان ما أخرج
تجهيز الحلة حسين ألف دينار .

وأنارت قريش القبائل للانضمام إليها في حربها ضد محمد ، فقد قال صفوان
ابن أمية لأبي عزة الشاعر «يا أبي عزة ! يا أبا شاعر ، إنك شاعر ، فأعنينا بسانك ، ولك
على إن رجعت أن أغنىك ، وإن أصبت أجعل بناتك مع بناتي يصيبن
ما أسباهن من عشر ويس ، (١)» .

وأصرت النسوة على أن يسرن مع الغزاة ، فتشاور القوم ، فن قاتل
بغروجهن «فإنه أقى أن يحفظكم» (٢) ويذكركم قلي بدر ، ونحن قوم مستميتون
لا زيد أن نرجع إلى دارنا ، حتى ندرك ثارنا أو نموت دونه ، ومن فائز
«يا معاشر قريش هذا ليس برأي أن تعرضوا حرمكم لعدوكم ، ولا آمن أن
تكون الذيرة» (٣) عليكم فتفضحوا في نسائمكم ، وبينما يتشاررون ، خرجت
عليهم هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وصاحبت «إنك واقه سلت يوم بدر
فرجعت إلى نسائك ! نعم ، نخرج ، فتشهد القتال ، ولا يردن أحد ، كاردت
الفتيات في سفرهم إلى بدر ، حتى بلغوا الجحفة» (٤) فقتلت الأحياء يومئذ .

ودعا جبير بن مطعم غلاماً حبشاً يقال له وحشى ، كان يهتف بحرمة له

(١) أبو عزة الشاعر وقع أسرياً في بدر فذمبه إلى الرسول يطلب منه المدفع والأمان وفك
أسره ، فأجابه الرسول إلى طلبه على الا ظاهر عليه وأطلق سرايه ، ومع ذلك أفسنه صفوان
بالخروج مع قريش ، يعبثها بشعره ولسانه ووقع في الأسر مرة ثانية فأمر الرسول عاصم بن ثابت
ضرب عنقه .

(٢) يضفيكم

(٣) الذرة يعني المزينة وبمحوز استخدامها يعني التصر .

(٤) مكان بين مكة والمدينة وهي ميقات أهل مصر والعام .

قف الحبشه ، فلا ينصلحه القذف ، فقال له « اخرج مع الناس ، فإن أنت قلت حمزة بن عبد المطلب بعنى طعينة بن عدى فأنت حر » . وذلك لأن حمزة كان قد قتل طعينة يوم بدر ، وقالت له ابنة طعينة « إن قتلت عدراً أو حمراً أو علياً في أبي ، فإني لا أرى في القوم كفزاً له غيرهم ، فأنت عتيق » .

وخرجت قريش في ثلاثة ألوية ، عقدت في دار الندوة ، قوامها ثلاثة آلاف من رجال مكة وسادتها ومواليها وأحبابها^(١) (رهم بنو المصطلق وبني الهون بن خريمة) ومعهم مائه من ثقف ، ومائتا فرس ، وسبعينة دارع وأخذت قوات قريش معها العدة والسلاح الكثير ، وخرجت معها النساء حتى يكون ذلك أبلغ في استهانة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم ، وخرجت ضمن الخارجات خمس عشرة امرأة مع أزواجهن ، منها هند بنت عتبة^(٢) زوج أبي سفيان ، وأم حكيم بنت طارق مع زوجها عكرمة بن أبي جهل ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع زوجها الحرث بن هشام ، وزوجة عمرو بن العاص .

وخرج مع قريش راهب يدعى أبو عامر^(٣) كان ينكر نبوة الرسول وكان معه سبعون فارساً من الأوس .

وأخذت قريش موقعاً يطن الوادي من قبل أحد^(٤) ، وجعلت على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، ودفعت اللواء إلى

(١) سموا كذلك بالنسبة إلى جبل حبيش بأسفل مكة ، وقبل تعيينه تم أي تعيينه .

(٢) كانت هند أمتد النساء رغبة في الثأر لذليل يوم بدر أبوها وأخوها

(٣) كان متربطاً بالمدينة يزعم أنه ينتظر النبي المتظاهر ، وبذكر الناس كثيراً من صفاتيه ، ويقول لهم إنه قد قرب خروجه ، فلما هاجر الرسول إلى المدينة وانضجت صفاتيه للأنصار وانبعوه حسده أبو عامر وأذكى نبوته ، وكان رئيساً في الأوس ، وخرج من المدينة فدعاه عليه الرسول أن يعود وحيداً طريداً ، فاستجواب له الله وسمى بالفاش بدلاً من الراهب ، هرب يوم فتح مكة إلى أرض الروم حيث مات كافراً طريداً وحيداً .

(٤) سارت قريش من مكة إلى الأبواء ومررت بقرآن بنت وهب ففكراً بعضهم في نبش قبرها إلا أن الفاتحة رفضت ذلك خوفاً من أن تتبش قبور موتها ، وتابعت قريش مسيرها حتى العقبة ، ثم نزلت عند بعض السفح من جبل أحد ، على مسيرة خمسة أيام من المدينة .

عبد العزى طلحة بن أبي طلحة ، وجعلت نساء قريش يمشين خلال الصفوف
يضربن بالدفوف والطبول ، وعلى رأسهن هند تردد ويرددن من وراءها .

وينها بني عبد الدار وينها حماة الأدبار
ضربا بكل بتار

نحن بنات طارق نمشي على التارق
مشي القطا البوارق والمسك في المفارق
إن قبلوا نعاق ونفرض التارق
وإن تذربوا نفارق فراق غير وامق
عرس المولى طالق

٢ - من جانب المسلمين

كان العباس عم النبي من مكة يرقب في حذر شديد استعداد قريش لمهاجمة
أبن أخيه محمد ، وكان يطلع على كل جليل دقيق من شأنهم ، وكان يخشى على
أبن أخيه أن يصييه سوء ، وبرغم أنه كان ما يزال على دين آبائه ودين قومه ،
 فإنه كان يحس بمحنة شعور العصبية والإعجاب ، كما أنه لم ينس حسن معاملة
محمد له يوم بدر ، ولهذا استأجر العباس رجلا غفاريا ، وشرط عليه أن يأتي
المدينة في ثلاثة أيام ، فيدفع إلى الرسول بكتاب كتبه له ، ووصف فيه تجمع
قريش وصنيعهم وعدتهم وعديدهم .

ووصل الغفارى إلى المدينة ، فوجد الرسول بقباء فسلمه الكتاب ،
ودفع به الرسول إلى أبي بن كعب ، فقرأه عليه فاستكتمه محمد ما فيه ، ثم أبلغ
الرسول خبر الكتاب إلى سعد بن الربيع واستكتمه إياه ، إلا أن زوج سعد
كانت بالمتزل ، وسمعت ما دار بين زوجها وبين الرسول ، فأسرع سعد إلى النبي
يخبره بخبرها ويقول له : «إني خفت أن يفشوا الخبر ، فترى أنني أنا المفتشى له ،
وقد استكتمتني إياه ..» ، فقال له الرسول : «خل عنها ، وبذلك لم يعد
الأمر سرا .»

وقدر الرسول موقفه واتخذ خطوات حاسمة هي :

١ - أصدر الرسول أمره بحراسة المدينة كاها طيلة الليل ، خوفاً من أن تهاجمها قريش بالهجوم ، وجاء في السيرة الخلية أن وجوه المسلمين باتت ومعها سلاحها تحمي الرسول .

٢ - بعث الرسول بجماعات استطلاع تأتي إليه بخبر قريش ، نفرج أنس ومؤنس ابنا فضالة يستطلعان أمر قريش ، فوجداها قد قاربت المدينة وقد أطلقت خيلها ولبلها ترعي ذروع يثرب المحبيطة بها .

ثم خرج الحباب بن المنذر بن الجحوج ، وعد بمعلومات لا تختلف عن المعلومات التي وردت ضمن كتاب العباس .

وخرجت أيضاً جماعة استطلاع ثالثة مثلاً في سلية بن سلامة فعاد بحمل خبر اقتراب طليعة خيل قريش من المدينة .

٣ - جمع الرسول أهل الرأى وشاورهم في الأمر ، وببحث معهم الموقف وتبادلوا الرأى .

كان الرأى الأول للرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان يرى أن يتحسن بالمدينة ، وأن يترك قريشاً خارجها ، فإذا حاولت اقتحامها كان المسلمين أقدر على صدها ودفعها وإنفاق الخسائر بها .

وأيد عبدالله بن أبي بن سلول^(١) هذا الرأى وقال : « لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ، ونجعل النساء والأطفال في هذه الصيادي ، ونجعل معهم الحجارة ، ونشبك المدينة بالبنيان ، ف تكون كالحصن من كل ناحية ، فإذا أقبل العدو رمنه

(١) قيل في بعض المراجع إنه بعد مسيرة الرسول بقومه في اتجاه أحد انسحب عبد الله بن أبي في الطريق بثلاثة الناس قائلاً « ماندرى علام نقتل أنفسنا ؟ » ومحاججاً على أن الرسول ترك رأيه وأطاع غيره ، فتبعهم عبد الله بن حرام ونصحهم بالثبات وذكرهم بواجب الدفاع عن المدينة ضد المغزبين ، فأبى ابن أبي الاستئماع إليه ونزلت في ذلك الآية الكريمة « ولِيمَ الَّذِينَ نَاقَوْنَا لَهُمْ تَعَالَوْا فَاتَّلَوْا فِي سَبِيلِنَا أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمْ مَا لَيْسَ بِكُمْ لَسَكَرْفَرْ بِوْمَدْ أَقْرَبْ مِنْهُمْ لِلْإِعْلَانِ ... »

النسوة والأطفال بالحجارة ، وقاتلناه بأسياقنا في السلك ، إن مدینتنا يارسول اقد عذرناه ، ما فضت علينا قط ، ومادخل علينا عدو فيها إلا أصبهنا ، ومانخر جنا إلى عدو قط منها إلا أصابنا ، فدعهم يارسول الله وأطعنى في هذا الأمر ، فإني ورثت هذا الرأى عن أكابر قوى وأهل الرأى منهم ، .

وكان الرأى الثاني لبعض من الفتية ذوى الحبة لم يشهدوا بدرأ وأحبوها الخروج إلى العدو وملقاوه حيث نزل ، مخافة أن يظن أنهم كرهو الخروج ، وتحصنوا بالمدينة جنباً من اللقاء ، وقال أحدهم : «إن لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها ، فيقولوا حصرنا ملوكاً في صياصي يثرب وآظامها ، فتكون هذه مجرحة لقريش ، وهام أولاء قد وطئوا سعننا ، فإذا لم نذب عن عرضنا^(١) لم يزرع ، وإن قريشاً قد مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ، ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جامونا قد قادوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، حتى نزلوا بساحتنا ، أفيجلسوننا في بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرين لم يكلموا لأن فعلنوا لازدادوا جرأة ، ولشنوا الغارات علينا ، وأصابوا من أطراضاً ، ووضعوا العيون والأرصاد على مدینتنا ، ثم لقطعوا الطريق علينا ، .

وكان من دوافع تأييد القائلين بالخروج ، أنهم إذا اتتصروا فهو وعد الله الذى وعد به ، وإذا انهزموا واستشهدوا كانت لهم الجنة حيث «لا يسمعون فيها لنواً ولا تائياً إلا قيلاً سلاماً»^(٢) .

وفي ذلك قال خبيرة أبو سعد بن خبيرة : «عسى الله أن يغفرنا بهم ، أو تكون الأخرى فهي الشهادة ، لقد أخطأتني وقعة بدر و كنت عليها حريراً ، حتى بلغ من حرمي عليها أن ساهمت أبني في الخروج ، نفوج سمه فرزق الشهادة وقد رأيت أبني البارحة في النوم وهو يقول : «الحق بنا تراقنا

(١) العرض (بكسر العين وسكون الراء) هو كل واد فيه شجر .

(٢) سورة الواقعة ٢٥ .

فِي الْجَنَّةِ فَهُدِيَ وَجَدَ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ وَالله يَارَسُولُ الله أَصْبَحَتْ
مُشْتَافِي إِلَى مَرَاقِيَتِهِ فِي الْجَنَّةِ وَقَدْ كَبَرَتْ سَنِي وَرَقْ عَظِيمٍ وَأَحَبَبْتِ لِقَاءَ رَبِّي .
وَانْتَصَرَ الرَّأْيُ الْقَاتِلُ بِالْخُرُوجِ ، وَقَبْلِ الرَّسُولِ هَذَا الرَّأْيُ ، بِرَغْمِ أَنَّهُ
يُخْتَافُ مَعَ رَأْيِهِ فَقَدْ قَالَ « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ الْهَزِيمَةَ ، فَأَبُوا عَلَى هَذَا إِلَّا الْخُرُوجُ ،
فَقَبْلِ أَنْ يَنْزِلَ عَنْ رَأْيِهِ وَيَتَبعَ رَأْيِهِ .

وَقَامَ نَقَاشٌ عَنِيفٌ حَوْلَ رَأْيِ الرَّسُولِ فَقَدْ قَالَ أَسَيْدُ بْنُ حَضَيرٍ
وَسَعْدُ بْنُ مَعَاذَ لِلْقَاتِلِينَ بِالْخُرُوجِ « لَقَدْ رَأَيْتُمْ رَسُولَ الله يَرِي التَّحْصِنَ بِالْمَدِينَةِ
فَقَلَمْنَ ما قَلَمْنَ وَاسْتَكَرْتُمُوهُ عَلَى الْخُرُوجِ ، وَهُوَ لَهُ كَارِهٌ ، فَرَدُوا الْأَمْرَ إِلَيْهِ ،
عَلَى أَمْرِكُمْ فَافْعُلُوهُ وَمَا رَأَيْتُمْ لَهُ فِيهِ هُوَ أَوْ رَأَيْتُمْ فَأَطْبِعُوهُ » .

وَلَمَّا رَأَى الْقَاتِلُونَ بِالْخُرُوجِ ، الرَّسُولُ وَقَدْ لَبِسَ دَرْعَهُ وَتَقْلِدَ سِيفَهُ ، أَفْبَلُوا
عَلَيْهِ يَقُولُونَ « مَا كَانَ لَنَا يَا رَسُولَ الله أَنْ نَخَالِفَكَ فَاصْنَعْ مَا بَدَّلَكَ ، وَمَا كَانَ
لَنَا أَنْ نَسْتَكِرَهُكَ ، وَالْأَمْرُ إِلَى اللهِ شَمِيلِكَ » ، فَقَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ « فَقَدْ دَعَوْتُكُمْ
إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ فَأَبَيْتُمْ ، وَمَا يَنْبَغِي لَنِبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضْعُهَا حَتَّى يَحْكُمَ
لَهُ بِيَدِهِ بَيْنَ أَعْدَائِهِ ، اَنْظُرُوا مَا أَمْرَكُمْ بِهِ فَاتَّبِعُوهُ وَالنَّصْرُ لَكُمْ مَا صَبَرْتُمْ » .

وَرَغَبَتْ كَتِيَّةُ مِنَ الْيَهُودِ بِقِيَادَةِ ابْنِ أَبِي أَنْ تَسْتَرِكَ مَعَهُ فِي حَرْبِهِ لِقَرِيشٍ
إِلَّا أَنَّ الرَّسُولَ رَفَضَ قَاتِلًا « لَا يَسْتَنْصِرُ بِأَهْلِ الشَّرِكِ مَالِمُ يَسْلِمُوا » . فَانْصَرَتْ
كَتِيَّةُ الْيَهُودِ^(١) ، وَاسْتَعْمَلَ الرَّسُولُ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ مَكْتُومَ ، وَخَرَجَ فِي
سَبِيعَاتِهِ مِنَ الْمَقَاتِلِينَ الْأَشَدَاءِ ، وَعَقَدَ لَوَاءَ الْأَوْسَ وَجَعَلَهُ بِيَدِ أَسَيْدِ بْنِ حَضَيرٍ
وَجَعَلَ لَوَاءَ الْخُرُوجَ بِيَدِ الْحَبَابِ بْنِ الْمَنْذَرِ ، وَقَيْلَ بِيَدِ سَعْدِ بْنِ عَبَادَةِ ، وَجَعَلَ
لَوَاءَ الْمَهَاجِرِينَ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَلَوَاءَ الْمَشْرِكِينَ بِيَدِ مَصْعُبِ بْنِ عَمِيرٍ
ابْنِ هَاشِمٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ .

وَرَدَ الرَّسُولُ بَعْضًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْخَارِجِينَ ، لَصْفَرْ سَنَهِمْ ، وَمِنْهُمْ أَسَامَةُ
ابْنِ زَيْدٍ ، وَعَبْدُ اللهِ بْنِ عَمْرٍ ، وَزَيْدُ بْنِ ثَابَتٍ ، وَالْعَمَانُ بْنُ بشِيرٍ .

(١) راجع هامش صفحة ١٥٠ .

ونزل الرسول ميدان المعركة ، وقد جعل ظهره لأحد ، ووجهه للبدية
فقال عليه السلام للزبير بن العوام « استقبل خالد بن الوليد وكن يازاته ، وأمر
الرسول جماعة أخرى يازاه خيل المشركين ، وقال الحلي إنه لم يكن مع
المسلمين يوم أحد سوى حسين فرسا ، وجعل النبي عبد الله بن جبير بن النعيم
على الرماة وكانوا خمسين رجلا ، فأقامهم الرسول على جبل صغير مرتفع وقال
لهم : « احروا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا ، وارشقونا بالنبيل فإن الخيل
لا تقدم على النبيل ، إنا لا نزال غاليين ما ثبت في مکانکم ، اللهم إني أشهدك
عليهم ، . وفي رواية أخرى : « إن رأيتمونا تحطينا الطير فلا تبرحوها مکانکم
هذا حتى أرسل لكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأنهم وهم قتلى ،
فلا تبرحوها حتى أرسل لكم » ، وفي رواية ثالثة : « إن رأيتمونا نقتل
فلا نصروننا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا اللهم إني أشهدك عليهم » .
وأخذ الرسول يمر بين الصفوف يخطب ويحضر على القتال وبعد رجاله
النصر ما صبروا ، ومن أمثلة إثارته لروح الحرب ، أنه مد يده بسيف ، و قال :
« من يأخذ هذا السيف بحقه؟ » ، فقام إليه رجال فامسكه عنهم ، وكان منهم
أبو بكر و عمر وعلى والزبير ، ثم قام أبو دجانة سماكة^١ بن آخر شئه فقال :
« وما حنته يا رسول الله؟ » ، فقال الرسول : « أن تضرب به في وجه العدو
حتى ينتحن » ، وهنا قال أبو دجانة « أنا آخذه يا رسول الله » ، فقليل الرسول :
« لعلك إن أعطيتك تقاتل في الكثبور^(٢) » ، قال : « لا يا رسول الله » ، وكان
أبو دجانة رجلا شجاعاً له عصابة حراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه يسيطر على
فأخذ السيف من الرسول وعصب بعصابته - وكان يسمى عصابة الموت -
رأسه ومشي مختلاً بين الصفوف^(٣) ، فلما رأه النبي قال « إنها لمشية ينضها الله
إلا في مثل هذا الموطن » .

(١) الصنوف الخلفية .

(۲) کان اُو دجانہ یردد :

أنا الذي عاشرني خليلي ولا أفهم الدهر في السكول
ومنعني بالسفر لدى التخييل أضرب بسيف الله والرسول (ابن مثيم)

خرج أبو عامر عبد عمرو بن صيف إلى أحد في خمسة عشر رجلاً من الأوس ومن عبيد أهل مكة ، يحاول أن ينادي أهله المسلمين من الأوس الذين يحاربون في صف محمد ليتحاواروا إليه وينصروا فريشاً ، فناداهم « يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ، فأجابوه « لا أنعم الله بك عيناً يا فاسقاً ! » ، ثم بدأ القتال في مراحل أربعة :

- (١) المرحلة الأولى وهي التي بدأت فيها الاشتباكات والبارزات .
- (٢) المرحلة الثانية وهي التي قتل فيها حمزة .
- (٣) المرحلة الثالثة وهي التي أحرز فيها المسلمين النصر .
- (٤) المرحلة الرابعة وهي التي حلت فيها الهزيمة بال المسلمين بعد نصرهم .

المرحلة الأولى

حاول عكرمة بن أبي جهل قائد الميسرة أن يأخذ المسلمين من جناحهم ، ولكن المسلمين رشقوه بالحجارة حتى ول و من معه مدربين .
و ظهر حمزة في ساحة الحرب ، و رد صيحة القتال « أمت ، أمت ، (١) ...
و جاءت صيحة طلحة بن أبي طلحة من صفوف المشركين « من ييارز ؟ »
ثم سمعه المسلمون يقول لهم : « يا أصحاب محمد زعمتم أن الله يعجلنا بسيوفكم
إلى النار ، و يعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار
أو أجعله بسيفي إلى الجنة ؟ كذبتم واللات والعزى لو تعلمون ذلك حقاً خرج
بعضكم ، ... »

وبرز له علي بن أبي طالب ، وتقابلا وجهما لوجه ، فضربه على ضربة
أقت هامته ، فاغبط الرسول وكبر ، وكبر خلفه المسلمين ، ثم ضربه على
قطيع رجله ووقع على الأرض ، وبدت عورته فقال : « يابن عم انشدك الله
والرحم » . فرجع عنه فسأله الرسول : « ما منعك أن تجهز عليه ؟ » ، قال :
« نأشدف الله والرحم » . فقال له الرسول : « اقتلته » ، فعاد إليه وقتله .

(١) كان هذا هو شعار المسلمين في الحرب وهو أمر بالموت والمراد التفاوت بالنصر وكانت هذه الكلمة هي كلمة السر يتعارف بها المسلمين .

واندفع أبو دجانة ، وفي يده سيف النبي ، وعلى رأسه عصابة الموت ،
يقتل لا يلق أحداً إلا قله حتى التقى بهند بنت عتبة ، وهم يقتلها ، حتى إذا
عرفها ، امتنع عن ذلك وهو يقول : «كرهت أن أضرب بسيف رسول الله
امرأة لا ناصر لها»^(١) .

وبعد موت طلحة ، حل لواء أهل مكة من بعده عثمان بن أبي طلحة ،
فحمل عليه حزنة وقطع يده وكتفه ، فأخذ اللواء أخيه سعيد ، فرمي سعد بن
أبي وقاص وقتله ، فحمل اللواء من بعده مسافع بن طلحة ، فقتله عاصم بن
ثابت ، ثم حمله أخيه الحرش ، فقتله عاصم أيضاً حتى أن أم مسافع والحرش
نذرت إن أمكنها أقه من زأس عاصم ، قاتل ولديها ، أن تشرب المخزفه ،
وجعلت لمن يجيء برأسه مائة من الإبل ، واستمر اللواء ينتقل من يد إلى
آخر ، واستمر أبطال المسلمين يقتلون كل من يحمل اللواء .

وخرج من صفوف أهل مكة عبد الرحمن بن أبي بكر وصالح «من يبارزه
فهض إليه أبو بكر شاهراً سيفه ، إلا أن الرسول منعه قاتلا : «ارجع إلى
مكانك ومتخنا بنفسك» .

المرحلة الثانية

كان حزنة عم الرسول من أعظم أبطال العرب وبشاعتهم ، اشتراك في غزوة
بدر ، فكانت له صولة معروفة قتل فيها عتبة أبا هند ، وقتل أخيها ، ونكل
بالكثير من الأعزاء عليها ، وفي أحد كانت له صولة قتل فيها أرطاة بن عبد
الرحيم ، وقتل سباع بن عبد العزى ، وجعل يقطع بسيفه كل من لقيه
من أهل مكة ... وقلنا في سياق الحديث عن استعداد قريش إن هنداً وعدت
حبشياً يدعى «وحشى» ، خيراً كثيراً إن قتل حزنة ، وخرج وحشى على
ال القوم ينظر حزنة ، حتى شاهده وسط الناس يقطع بسيفه ، ويقتل كل من
يلقاه في طريقه ، فأعد وحشى حربته ثم دفعها ، فأصابت حزنة ما بين السرة

(١) كانت هذه تخفي نفسها تحت ملابس الرجال .

والعانة من أسفل بطنه ثم خرجت من رجليه ، وكانت إصابة خطيرة سقط على أثرها حمزة ، وما لبث أن مات .

ووصف جبى قته حمزة في قوله : « لما التق الناس ، خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته ، كأنه الجبل الأورق ، يهد الناس بسيفه هدا ، ما يقوم له شيء ! فو الله إني لأتمنى له أريده . وأستر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني إذ قدمني إليه سباغ بن عبد العزى ، فلما رأاه حمزة ضربه ضربة كأنما اخترط رأسه ، فهزت حربى حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه ، فوقيعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربى ورجعت إلى المعسكر ، فقدت فيه إذ لم تكن لي بغيره حاجة ، إنما قتله لاعتق ..» .

المرحلة الثالثة

أنزل الله نصره على المسلمين فصاروا يحسون الكفار حسناً كما قال تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه » وتمزقت قوة قريش وأوشكت نسوتها أن يؤخذن أسرى ذليلات ، وفر الرجال وأسرع المسلمين خلفهم حتى بدوا عن معسكرهم ، وأخذ المسلمون يجمعون الغنيمة وما أكثر ما كانت .

وقال ابن إسحاق « ثم أنزل الله نصره وصدق وعده ، فحسونهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت المزية لا شك فيها » وروى عبد الله بن الظفير عن أبيه قال : « والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواجهها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير » .

المرحلة الرابعة

رأى الرماة الذين وضعهم الرسول في شعب الجبل - يصدون الفرسان بالنبل ، فلا يتقدمون ولا يأتون المسلمين من خلفهم - رأوا المزية تحلى بقريش والنساء يهمن في الجبل والرجال يهون الأدبار ، والغائمات التي خلفها

ثلاثة آلاف مشرك تزحف الجبل ، ورأوا إخوانهم يجمعون الغنائم الكثيرة ، وكان الرسول قد أمرهم ألا ييرحوا الشعب حتى لو رأوه وأصحابه يقتلون ... أمرهم بذلك وشدد عليهم أن يلزموا مكانهم صيانة لمؤخرة المسلمين ، وأوصاعم ألا ييرحوا أبداً ولو رأوا الجيش تخطفه الطير ، غير أن إثارة من حب الدنيا عصفت بهم في ساعة غفلة ... قال بعضهم البعض ، وقد سال لعابهم لرأي الغنيمة ولم تقيموا ها هنا في غير شيء وقد هزم الله عدوكم . وهؤلاء إخوانكم يتهمون عسكرهم ! فادخلوا فاغنموا مع الغانمين ، ونبههم أحدهم « ألم يقل لكم رسول الله لا تبرحوا مكانتكم ، وإن رأيتمنا نقتل فلا تنصرونا ؟ » ، فقال الأولون « لم يُرد رسول الله أن نبقى بعد أن أذل الله المشركين » .

ودعاهم أميرهم عبد الله بن جبير إلى عدم خالفته أوامر الرسول فعصوه ، وانطلقوه وتركوا أماكنهم ، ولم يبق مع عبد الله إلا نفر قليل ... ورأى خالد بن الوليد خلاء الجبل الذي كان فيه الرماة ، وقف أهله ، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبي جهل^(١) فحملوا على الباقين الفليلين فقتلتهم وقتل عبد الله ، ووقعت الهزيمة المسلمين ، وصاح صاحع ان محمدآ قد قتل فاندفعت قوات قريش على أثر سماعها هذا الخبر تزداد انتصارها وتعززه إلا أن جماعة من المسلمين أحاطت بالرسول واستهانت في الدفاع^(٢) عنه ، إلا أن حجارة قريش أصابته وأصيبت رباعيته ، وشج في وجهه وكلت شفته ودخلت حلقتان من المغفر الذي يستر به وجهه في وجنته ، وكان عتبة ابن أبي وقاص هو الذي أصاب الرسول بقديفته من الحجارة ... ونجاة سقط الرسول في حفرة ، كان قد حفرها أبو عامر يقع فيها المسلمين ، فأسرع

(١) قبل ما ان امرأة تدعى عمرة بنت عائمة الحارثية هي التي دعت لواء قربش من الغرب بعد أن صرخ حملته فالتفت حولها جوع قربش وقد شاهدوا اللواء مرفوعا .

(٢) روى أن امرأة من الأنصار قتل لها ثلاثة رجال من يتها (أبوما وأخوها وزوجها) كانوا يدافعون عن الرسول وتتابع إليها نهى الثلاثة واحداً بعد واحد فكانت تسأل أولاً عن الرسول « كيف هو ؟ » فيقولون لها إنه سالم ، ثم لما رأت وجهه سرى عنها ولم تنهك أن صاحت قائلة « كل مصيبة بعدك جلل يارسول الله . »

على بن أبي طالب بمعاونة طلحة بن عَبَيْدِ اللَّهِ وَرَفِعَاهُ ثُمَّ اندفعوا جميعاً إلى أحد ناجين من اعتداء قريش .

وَعَادَ الرَّسُولُ يَصْبِحُ بِالْمُؤْمِنِينَ . . . إِلَى عِبَادِ اللَّهِ . . . إِلَى عِبَادِ اللَّهِ . . . حَاجَتْمَعَ حَوْلَهُ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَخْذُوا يَرْدُونَ قَرِيشًا بِالْبَنْبَلِ ، وَوَقَفَ سَعْدُ ابْنُ أَبِي وَقَاصَ إِلَى جَانِبِ الرَّسُولِ يَرْمِي بِالْبَنْبَلِ وَالرَّسُولُ يَنْاوِلُهُ وَيَقُولُ لَهُ « أَرْمْ فَدَاكَ أَبِي وَأَبِي » . وَكَانَ الرَّسُولُ يَرْمِي بِنَفْسِهِ عَنْ قَوْسِهِ حَتَّى انْدَقَتْ سِيَّنَاهَا ، وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ بِجَانِبِ الرَّسُولِ يَقُولُ لَهُ « نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ . . . إِنِّي جَلَدْ يَارَسُولَ اللَّهِ فَوْجَهِي فِي حِوَاجْلَكَ وَمَرْنِي بِمَا شَنَّتْ » .

وَاجْتَمَعَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرٌ وَبَعْضُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ ظَنَّوا أَنَّ الرَّسُولَ قدْ حَمَّاَتْ فِي مَكَانٍ مَنْزَلَ بِالْجَبَلِ ، حَتَّى جَاءَهُمْ أَنْسُ بْنُ النَّضْرِ فَقَالَ لَهُمْ « مَا يَجْلِسُكُمْ؟ » ، قَالُوا « قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ » ، فَقَالُوا « فَإِذَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ مِنْ بَعْدِهِ؟ » . . . قَوْمُوا خَفْوَتُوا عَلَى مَاتَ عَلَيْهِ » .

وَدَوِيَ صَوْتُ كَعْبَ بْنِ مَالِكَ فِي أَرْضِ الْمَعرَكةِ يَعْلَمُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الرَّسُولَ حَيٌّ ، وَانْدَفَعَ عَلَى أُثْرِ ذَلِكَ أَبِيَّ بْنَ خَلْفَ الْجَمْحِيِّ وَهُوَ يَرْدِدُ « أَيْنَ مُحَمَّد؟ لَانْجُوتُ إِنْ نَجَّا^(۱) » ، فَطَعَنَهُ الرَّسُولُ بِحَرْبَةِ الْحَارِثِ بْنِ الصَّمَدِ طَعْنَةً جَعَلَتْهُ تَقْلِبَ عَلَى فَرْسِهِ ثُمَّ يَمُوتُ .

بعد المعركة

أَسْعَدَ قَرِيشَا انتصارَهَا ، حَتَّى إِنَّ أَبَا سَفِيَّانَ صَاحِ « إِنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ ، يَوْمَ يَوْمِ بَدْرٍ . . . » ، ثُمَّ قَالَ « أَعْلَمُ هَبْلٍ » ، فَقَالَ الرَّسُولُ لِعُمَرَ « قَمْ يَا عُمَرْ فَأَجِبْهُ قَلْ أَللَّهُ أَعْلَى وَأَجْلُ ، لَا سَوَاءَ ، قُتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ ، وَقُتْلَانَا فِي النَّارِ » ، فَقَالَ أَبُو سَفِيَّانَ أَنْشِدَكَ اللَّهُ يَا عُمَرْ أَقْتَلْنَا مُحَمَّدًا؟ ، فَأَجَابَهُ عُمَرْ « اللَّهُمَّ لَا ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ كَلَامَكَ

(۱) فِي رَوْيَةِ أُخْرَى قَالَ أَبْنُ خَلْفَ لِلرَّسُولِ « يَا كَذَابَ أَبِنِ قَفْ؟ » وَحَلَّ عَلَى الرَّسُولِ بِسَيْفِهِ فَقَالَ الرَّسُولُ « بَلْ إِنَّا قَاتَلْنَا لَمْ شَاءَ اللَّهُ » ثُمَّ طَمَنَهُ فِي جَيْبِ درَرِهِ طَمَنَهُ وَقَمَ فِيهَا يَخْنُورُ خَوارِ الثَّورِ .

الآن ، فقال أبو سفيان « أنت عندى أصدق من ابن قيمة^(١) » ، ثم صاح « إن موعدكم بدر العام المقبل » ، فقال الرسول لرجل من أصحابه « قل نعم يبنتنا ويبنك موعد » .

وأما هند فلم يكفيها النصر ولم يكفيها قتل حزرة بل انطلقت ومعها باقى النسوة يمثلن بالقتل ، يجدعن عن الآذان والأنوف ، ثم بقرت هند بطن حزرة وجذبت بيديها كبده وجعلت تلوّكها بأسنانها ، حتى أن أبو سفيان أزعجه كثرة التغليل فقال « إنه قد كان في قتلامكم مثله واقه مارضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت » .

ودفنت قريش قتلاها ثم انصرفت .

و جاء دور المسلمين فبُطوا أرض المعركة يدفنون قتلام ، وخرج الرسول يلتسم عمه حزرة ، فلما رأه وقد مثل به حزن من أجله وقال « لن أصاب بذلك أبداً وما وقفت موقفاً قط أغrieve إلى من هذا » ، ثم قال « والله لن أظهرنا أقه عليهم يوماً من الدهر لامثلن بهم مثلها لم يمثلها أحد من العرب » ، وفي هذا نزل قوله تعالى :

« وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاكِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئنْ صَرَّتْمُ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرُوْ وَمَا صَرَّبُكُمْ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزُنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُونُوا فِي ضيقٍ مِمَّا يَعْكِرُونَ^(٢) » .

و دفن حزرة و دفن كذلك قتيلا المسلمين ، ثم عاد المسلمون إلى المدينة ، وفي اليوم التالي دعا الرسول المؤمنين لطلب العدو ، وخرج المسلمون ، فوقع في روع أبي سفيان أن الرسول جاءه من المدينة بعد جديد ، شفاف لقامه ، وبلغ محمد حمزة الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وكانت قريش وقتها

(١) هو الذي زعم أنه قتل النبي .

(٢) موردة النحل ١٢٦ ، ١٢٧ .

فِي الرَّوْحَاءِ ، وَمَرَّ بِهَا مُعْدُ الْخَزَاعِيُّ ، فَسَأَلَهُ أَبُو سَفِيَانَ عَنْ مُحَمَّدٍ فَقَالَ لَهُ « قَدْ خَرَجَ فِي أَصْحَابِهِ يَطْلُبُكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرْ مُثْلَهُ قَطُّ ، وَقَدْ اجْتَمَعَ مَعَهُ مَنْ كَانَ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ، وَكَاهُمْ أَشَدُ مَا يَكُونُ عَلَيْكُمْ حَنْقًا ، وَمِنْكُمْ لِلثَّارِ طَلْبًا » ؛ وَقَدْ أَبْوَ سَفِيَانَ مَوْقِفَهُ ، وَخَافَ أَنْ يَهْزِمَ فَيُضَيِّعَ أَثْرَ انتصارِهِ فِي أَحَدٍ ، فَبَعْثَ إِلَى الرَّسُولِ مَعَ رَكْبِ عَبْدِ الْقَيْسِ مِنْ يَبْلُغُهُ أَنْ أَبَا سَفِيَانَ فِي طَرِيقِهِ إِلَيْهِ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِ ، وَبَقَ الرَّسُولُ فِي انتظارِهِ أَيَّامًا ثَلَاثَةَ ، إِلَّا أَنْ أَبَا سَفِيَانَ آثَرَ الْعُودَةَ مَكْتَفِيًّا بِانتصارِهِ فِي أَحَدٍ .

نتائج الموقعة

(١) في جانب المسلمين :

عاد الرَّسُولُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَوُجِدَ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِهَا قَدْ تَنَكَّرُوا لَهُ وَلَا صَاحِبَهُ وَشَعَرَ بِأَنَّ الْقَبَائِلَ الَّتِي أَذْهَلَهَا انتصارُهُ فِي بَدْرٍ رَدَتْ إِلَيْهَا السُّكِينَةُ لَأَنَّهُمْ أَهْمَهُ فِي أَحَدٍ . . . وَحَاوَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْقَبَائِلِ الثُّورَةَ عَلَيْهِ ، كَمَا تَرَبَصَ بِهِ الْيَهُودُ ، وَحَدَّثَتْ غَزَوَاتٌ كَثِيرَةٌ سَنَفَرَدَ لَهَا جَزْءًا خَاصًا اتَّهَتْ كَلَّاهَا بِتَعْزِيزِ مَرْكَزِ الرَّسُولِ وَتَقْوِيَتِهِ .

(٢) في جانب قريش :

سعدَتْ قَرِيشٌ بِهَذَا الْإِنْتِصَارِ ، وَخَاصَّةً أَنَّهَا نَجَحتْ فِي قَتْلِ حَمْزَةَ ، وَكَانَ خَطَرًا عَلَيْهَا إِذَا نَشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَعْتَقَ حَبْشَى ، وَأَسْرَعَ أَبُو سَفِيَانَ يَحْلِقُ لِحَيْتِهِ ، وَرَجَحَ إِلَى دَارِهِ مُوفِيًّا نَذْرَهُ أَلا يَقْرَبُ زَوْجَهُ حَتَّى يَنْتَصِرَ عَلَى مُحَمَّدٍ . . . وَهَلَّتْ قَرِيشٌ وَرَفَعَتْ إِلَى كَبِيرِ آهْلِهَا هَبْلَ آيَاتِ النَّهَا وَالْمَحْمَدِ .

الدروس المستفادة

١ - أهمية حشد القوى جمع الرَّسُولُ أَصْحَابَهُ وَقَوْمَهُ وَنَظَمَ صَفَوفَهُمْ بِمَجْرِدِ أَنْ بَلَغَهُ كِتَابُ عَمِّهِ الْعَبَاسِ ، إِلَّا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَفَضَ كِتْبَيَةَ أَبِي فَعَادَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَمْ تَشْرُكْ فِي الْمَعرَكةِ .

٢ - الشورى عند وضع الخطة ، وقبول القائد للخطة التي يقرها مستشاروه ب رغم أنها قد تكون ضد خطته التي ينادي بها .

٣ - الروح المعنوية المسيطرة على رجال محمد القائلين بالخروج ، فقد كانوا يرغبون إما في النصر ، وهذا هو وعد الله المسلمين ، وإما في الهزيمة التي لن تأتي باستشهادهم ، وهم بذلك فائزون بالجنة ، وتبعد الروح المعنوية ، فيمارواه ابن إسحق عن سعد بن أبي وقاص قال « ما حرصت على قتل رجل قط حرسي على قتل أخي عتبة حين صنع برسول ماصنع » ... كما تبدو في قول عبد الله بن جحش « اللهم إني أقسم عليك ، أن ألق العدو غداً ، فيقتلوني ، ثم يقرروا بطني ، ويجدعوا أنفي ، وأذني ، ثم تسألي فيم ذلك ؟ فأقول فيك » ... ومن قول نعيم بن مالك « يابي الله لا تحرمني الجنة ، فوالذي نفسى بيده ، لادخلنا ولا أفر يوم الزحف » .

٤ - الأمان : أي حماية القوات في أثناء العمليات ... فوضع الرماة على شعب في الجبل مبدأ هام من مبادئ الحرب ، فهم في وضعهم هذا يحمون ظهر قواتهم ، ويصدون أعداءهم عن مهاجمتهم ، وثبتت أهمية هذا المبدأ حينما ترك الرماة أماكنهم فقد كان ذلك هو السبب المباشر في هزيمة المسلمين .

٥ - ضرورة تنفيذ أوامر القيادة ، فإن عدم تنفيذ الرماة أوامر الرسول بعدم مغادرة مواقعهم ، إلا بأمره الشخصي ، أدى إلى هزيمة المسلمين ولو أنهم ظلوا في أماكنهم ، لظل النصر في ركابهم .

٦ - أهمية وجود القائد في المعركة :

(ا) فإن المسلمين عندما أذيع أن الرسول قد قتل أصحابهم ما يشبه النهول ، فاجتمع أبو بكر وعمر ومعهما عدد من المسلمين وألقوا السلاح واحتلوا مكاناً بعيداً فوق أحد وظلوا هكذا حتى علموا بوجود النبي .

(ب) أثار الرسول حمية أبي دجانة بمنه سيفه ليقاتل به في الصفوف الأولى .

(ح) بقى الرسول مع بعض أصحابه يلقي بالنبل على الأعداء ، فكان ينالون
النبل لسعد بن أبي وقاص ، وكان سعد يقذف بها .

(ع) وكان من نتيجة وجود الرسول في المعركة أن نجح عمر بن الخطاب
في صد خالد بن الوليد على رأس فرسانه فوق الجبل ورده ، وقال الرسول
« اللهم إنا لا ينفعنـا لهم أن يعلوـنا ، اللهم لا قوـة لنا إلاـك » .

(هـ) بعد عودة المسلمين إلى المدينة ، قرر الرسول القيام بعمل هام يعيد
ثقة القبائل واليهود في المسلمين ، فقام في اليوم التالي مع قومه بمطاردة قريش
ووصل حتى حراء الأسد .

٧ - المطاردة من أهم دعائم النصر ، ولقد قرر الرسول مطاردة أبي
سفيان عند عودته إلى مكة ، فلما علم بذلك أبو سفيان خاف لقاءه حرفاً منه
على الانتصار الذي أحرزه في أحد .

٨ - شجاعة المقاتلين .. وقد بدت واضحة في قتال حمزة وعلى وأبي دجانة
وسعد بن أبي وقاص ، ونذكر في هذا المقال امرأة تدعى أم عمارة الأنصارية
فهذه كانت تمر بين صفوف المسلمين تحمل إليهم الماء ، فلما اشتتدت المعركة
حملت السيف والقوس وحاربت حتى أصيـت ، وتبدو شجاعة صـفـية بـنـتـ
عبد الـطـلـبـ أـخـتـ حـمـزةـ ، عـنـدـمـارـأـتـ ماـفـعـلـتـهـ هـنـدـ بـحـشـتـهـ ، وـكـانـ الرـسـوـلـ قدـأـمـرـ
ابنـهاـ الزـيـرـ بنـ العـوـامـ أـنـ يـرـجـعـ بـهـ حـتـىـ لـاـ تـرـىـ جـثـةـ آـخـيـهاـ شـفـقـةـ بـهـ ، فـلـقـيـهاـ ،
وـقـالـ طـاـءـ إـنـ الرـسـوـلـ يـأـمـرـكـ أـنـ تـرـجـعـ ، فـدـفـعـ يـدـهـ فـيـ صـدـرـهـ وـقـالـتـ «ـ وـلـمـ؟ـ
وـقـدـ بـلـغـنـيـ أـنـ قـدـ مـثـلـ بـأـخـيـ .ـ وـذـكـ فـيـ أـهـلـهـ ، فـاـرـضـانـ بـمـاـ كـانـ فـيـ أـلـهـ مـنـ ذـكـ
لـاحـتـسـبـنـ وـاـصـبـرـنـ إـنـ شـاهـ أـلـهـ تـعـالـىـ »ـ .ـ

٩ - دور المرأة في الحرب مقصور على أعمال الإعاـشـةـ ، فإن النساء كـنـ
يمـرـنـ بـالـصـفـوـفـ يـقـدـمـنـ المـاءـ وـالـطـعـامـ إـلـىـ الـقـوـاتـ الـمـارـبـةـ ، وـلـوـ أـنـ الـأـمـرـ
لـمـ يـنـتـهـ هـذـاـ الـحـدـ ، فـإـنـ اـمـرـأـةـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ عـنـدـ اـشـتـادـ الـمـعـرـكـةـ ، أـخـذـتـهـاـ
الـحـمـاسـةـ خـمـلـتـ السـيـفـ وـالـقـوـسـ وـحـارـبـتـ حـتـىـ أـصـيـتـ (ـ رـاجـعـ الـفـقـرـةـ ٨ـ)ـ ،
وـنـسـاءـ قـرـيـشـ كـنـ يـقـعـنـ بـدـورـ كـبـيرـ فـيـ إـنـاثـةـ الـمـاـشـأـرـ لـلـحـربـ ، وـلـاـ يـغـفـلـ أـحـدـ

دور هند في مقتل حمزة ، وكيف أنها كانت صاحبة الفكرة في قتله ، وأنها هي التي دعت حبشاً ، ومنتها بالخير الكثير ، وشجعه حتى استطاع أن يدخل المعركة ويقتل أحد أبطالها المقاوِر .

١٠ — أثر الإشاعات في الجيش المقاتل ... عندما أذاعت قريش أن الرسول قد مات ، أحس المسلمون أنهم قد قتلوا قاتلهم ، ومن ثم قطعوا السيطرة على أنفسهم ، ثم على المعركة ، وتولام الخوف والملع ، فأسرعوا بختفون من أرض المعركة في حين ألقى البعض السلاح ، وعزفوا عن القتال ، ولا شك في أن قريشاً كسبت كثيراً من وراء هذه الإشاعة التي أطلقتها لتهز بها قلوب المسلمين ، وتقضى على بعض حماستهم في الحرب ، وتقلل من عزيمتهم في القتال .

١١ — الروح السمحاء الكريمة التي كانت تسيطر على جنود المسلمين ، فإن الرسول الكريم والقرآن ينهيان عن قتل المرضى والشيوخ والنساء ، وهذا تهذيب واضح وصريح لفكرة الحرب التي لا تفرق بين المحارب في الميدان والقابع في بيته ...، فها هو ذا أبو دجانة يلقى في الميدان هند بنت عتبة ، وهي تدور بين الصفوف ، تشجع المحاربين في الفكر في قتلها ، ولكنها يعود فيرفض قائلة «كرهت أن أضرب بسيف رسول الله امرأة لأناصر لها»، برغم أن هذه المرأة كان لها شأن كبير في أنتهاء المعركة ،

سريرتا أبي سلمة وابن أنيس

سريرية أبي سلمة

بلغ الرسول أن طلحة وسلمة اثني خويا ، وما على رأس بني أسد ، يحرضان القوم لمحاجة المدينة ومحاربة الرسول ، وأن قيس بن الحمرث ناهم فلم ينتهوا ، فدعى الرسول أبا سلمة بن عبد الأسد ، وقد له لواه سرية تبلغ عدتها مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار ، من بينهم أبو هيبة بن الجراح

موسى بن أبي وقاص ، وأسيد بن حضير ، وأبو نائلة ، وقال الرسول لابي سللة « سر حتى تنزل أرض بني أسد بن خزيمة فأغرس عليهم .. »

وأمره الرسول بالسير ليلا والاستخفاء نهاراً ، وسلوك طرق غير مطرودة حتى لا يعرف بمسيرهم أحد ، ولا يطلع على خبرهم إنسان ، وبذلك يفاجئ عدوه بالإغارة عليه ، أى قصد من ذلك القيام بهجوم مفاجئ ..

ونفذ أبو سلمة أوامر الرسول ، فتقدم في المسير حتى بلغ قطن ، وهي اسم ماء لبني أسد بنجد ، وفاجأ القوم قبل أن يستعدوا ، وأحاط بهم ، خاذلتهم المفاجأة ، وتركوا منازلهم وهرروا فارسل لوامين من قوته لمطاردة الهاربين ، وعاد إليه اللوامان سالمين وغائبين ، وعادت السرية بأجمعها إلى المدينة ظافرة بعد غيبة عشرة أيام ..

سرية ابن أنيس

أخذ خالد بن سفيان بن ثُبَيْثَةَ الْمَذَلَّى يجمع الناس في موطنهم عرَّةَ ليغزو بهم الرسول ، فدعا الرسول عبد الله بن أنيس ، وبعثة لاستطلاع الأمر حتى يقف على جلية الخبر ، فسار عبد الله حتى التقى بخالد ، ودار بينهما حديث بدأه خالد بسؤال عبد الله :

— من الرجل؟

— من بني خزاعة ... سمعت بجمعك محمد فخشيت لا كون معك .

— نعم إني لفي الجمع له .

— عجبًا لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث ، فارق آلهة الآباء وسفه أحلامهم .

— نعم لأنه لم ياق أحدًا يشبهني .

وسار خالد ومن ورائه عبد الله ، وكان خالد يتوكأ على عصا ، حتى انتهى إلى خباءه ، وتفرق عنه أصحابه فقال عبد الله « هل يا أبا خزاعة اجلس » ،

جلس عبد الله معه حتى نام الناس جميعاً، فقام عليه وقتلته تنفيذاً لأمر رسول الله: «إذا أتبعته قاتله».

محمد و هود بنى النضير

بنو النمير قبيلة كبيرة من اليهود ، ينسبون إلى هارون أخي موسى عليهما السلام ، سكروا مع العرب ودخلوا فيهم . . . كان بينهم وبين الرسول مهد ، وجاءهم الرسول مطالبًا بمعونتهم من دية قتيلين ، فتظاهروا بالموافقة على طلبه والاستجابة له ثم ذرروا مؤامرة فيها بينهم لقتل الرسول والتخلص منه . . . كان الرسول قد جلس إلى جانب جدار من يوتهم ، فاجتمعوا وقالوا إنكم لن تجدوه على مثل هذا الحال متفرداً ليس معه أحدٌ من أصحابه إلا نحو عشرة^(١) . . . من يعلو على هذا البيت ، فيلق هذه الصخرة عليه ، فيقتله ويرينا منه ؟ ، وتطوع أحدم هو عمرو بن جحاش بن كعب ، إلا أن يهوديا منهم هو سلام بن مشكم قال لهم لا تفعلوا ذلك فواكه ليخبرن بما هم بيه ، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه . . .

وفي رواية أخرى قال لهم يا قوم أطیعوني في هذه المرة وخالفوني النهر ،
واله لئن فعلتم ليخبرن بأننا قد غدرنا به ، وأن هذا نقض للعهد الذي بيننا
وبيته .

قال ابن إسحاق إن الرسول جاءه الخبر من السماء مع جبريل ، قاتم عليه السلام مظهراً أنه يقضى حاجة ، خوفاً من أن يفطنوا الله فيؤذنوا أصحابه ، ولذا ترك أصحابه في مجالسهم ، ورجع مسرعاً إلى المدينة فلما استطعوه قاموا في طلبه وقال لهم حبي بن أخطب اليهودي ، لقد جعل أبو القاسم ، كنا نريد أن نقضي حاجته ،

ووجه في السيرة الخليلية أن كنانة بن صوير قال لليمود هل تدرؤن لي قام

(١) جاء في رواية أخرى أنهم قالوا لما رأوا قبة أصحابه وهم أبو بكر وعمر وعائذ وعمل
وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبي داود حبيب وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وكتبه وأخذ
 أصحابه أسرى إلى سكة فتنتهم إلى قريش .

محمد؟ ، قلوا « واقه ما ندرى وما تدرى أنت !! » ، فقال « أخبار واقه بما هم
به من الغدر ، فلا تخدعوا أنفسكم واقه إنه رسول الله ». ونزل في ذلك
قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرِّرَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ
يَسْطُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ فَكَفَّ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ ».

وقدر الرسول محاربة بني النضير ، وأمر أصحابه بالاستعداد للحرب ، ودعا
محمد بن سللة وقال له « اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم إن رسول الله
أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي ، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما
همست به من الغدر بي ، لقد أجلتكم عشرًا ، فمن رفي بعده ذلك ضربت عنقه » .
وبيتها القوم يبحثون رسالة محمد ، وصلهم رسولان من هذه عبد الله
ابن أبي يقولان « لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا في حصونكم ، فإن
هي أقوتين من قوى ، وغيرهم من العرب ، يدخلون معكم حصنكم ، وبمتوتون
عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم ».

وقال كبيرهم حبي بن أخطب « أنا مرسلا إلى محمد إننا لن نخرج من ديارنا
وأموالنا ، فليصنع ما بدا له ، وما علينا إلا أن نرمي حصوننا ، ندخل إليها
ما شئنا وندرج أزقتنا ، وننقل الحجارة إليها ، وعندنا من الطعام ما يكفيينا
منة وما زنا لا ينقطع ولن يحصرنا محمد سنة كاملة ».

وكان لامد من تنفيذ أمر الرسول « فمن رفي بعده ذلك ضربت عنقه ».

وانقضت الملة التي منحها إياهم الرسول ولم يخرجوا ...

وسار إليهم الرسول وحمل الراية على بن أبي طالب ، واستعمل على
المدينة ابن أم مكتوم ، وتحصن بني النضير في حصونهم ، وأمر الرسول
قطع نخلتهم⁽¹⁾ وحرقه ، وأجزاء ذلك اليهود فنادوا « يا محمد قد كنت تهوي ».

(1) موضع نخل بين النضير في مسكن يعرف بالبوبرة ، تصفيه بورقة وهي المفرة ، وهو
مسكان معروف من جهة مسجد قباء إلى جهة الترب .

عن الفساد وتعييه على من صنعه ، فا بالقطع التغيل ونحرثها ، فهو فساد
أمّا صلاح؟، ونزل في ذلك قوله تعالى :

« مَا أَفَطَّمْتُمْ مِنْ لِينَةٍ^(١) أَوْ تَرْكَتُمُوهَا قَاعِدَةً فَلَأَصْوَلُهَا فَيَأْذِنَ اللَّهُ
وَلَيُعْزِّي الْفَاسِقِينَ^(٢) »^(٣).

وقدف الله الرعب ، في رهط عبد الله بن أبي ، فلم يستطع تقديم آية مسوقة
لبني النضير ، ونزل قول الله تعالى :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَوْنَا يُقُولُونَ لِإِخْرَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ . وَلَا نَطْبِعُ فِيمَكُمْ أَحَدًا
أَبَدًا وَإِنْ قُوْتِلْمُ لَتَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِلَيْهِمْ لَكَاذِبُونَ . لَيْقَنْ
أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوْتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَيْقَنْ نَصْرُوْمُ
لِيُؤْلَئِنَّ الْأَدْبَارَ شَمَّ لَا يَنْصُرُونَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُورِهِمْ مِنَ الْهُوَ
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ »^(٤)

وحاصر الرسول بني النضير .

وأشتد عليهم الحصار وطال أمده .

فسألوا الرسول أن يخلصهم عن أرضهم ويكشف عن دمائهم فقال لهم
« اخرجوها منها ولكم دعاوكم وما حلت الإبل إلا الحلقة »^(٥) .

(١) البينة أنواع المتر ما عادا المجهولة .

وقيل إنها كرام التغيل
وقيل كل الأشجار فيها

(٢) يقصد بالفاسقين البوهود .

(٣) سورة الممررة

(٤) سورة الممررة ١٢/١١

(٥) يقصد السلاح والدروع .

وَقَبْلَ بَنْوَ النَّضِيرِ مَا هُرِصَّهُ الرَّسُولُ، وَخَجَوْا . . .
وَكَانُوا فِي خَرْوَجِهِمْ يَدْمِرُونَ بَيْوَتَهُمْ حَتَّى لَا يَسْكُنُهَا الْمُسْلِمُونَ، وَتَمَّ
جَلَّاقُمْ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَفِي ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى :

« وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَابُهُمْ فِي الدِّينِ وَلَهُمْ فِي
الآخِرَةِ عَذَابٌ أَنَّارٍ »^(١).

غزوَاتٌ قَبْلَ الْخَنْدَقِ

بَدْرُ الْآخِرَةِ

كَانَ أَبُو سَفِيَانَ قَدْ وَاعَدَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ اتِّهَامِ غَزْوَةِ أَحْدَادٍ يَوْمَ بَدْرٍ
وَالْمَوْعِدِ الْعَامِ الْمُقْبِلِ . ، وَكَانَ هَذَا الْعَامُ عَامُ جَذْبٍ ، وَكَانَ أَبُو سَفِيَانَ يَوْمَ
لَوْ يَوْجِلُ الْلَّقَاءَ عَامًا آخَرَ ، فَعَمِدَ إِلَى الْحِيلَةِ وَالتَّظَاهِرِ ، لِيَدْرِأَ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ
خَلْفَ الْوَعْدِ ، فَاسْتَأْجَرَ نَعِيمَ بْنَ مُسْعُودَ الْأَشْجَعِيَّ ، فَذَهَبَ نَعِيمٌ إِلَى الْمَدِينَةِ
يَقُولُ لِلْمُسْلِمِينَ : إِنَّ أَبَا سَفِيَانَ قَدْ جَمَعَ جِيشًا لَا قَبْلَ لَجَبَشَ مِنَ الْعَرَبِ
بِمَوْاجِهَتِهِ ، لِيَحَارِبَهُ ، وَيَقْضِي عَلَيْهِمْ . . .

وَرَأَى الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَتَجَنَّبُوا الْخَطْرِ ، فَأَظَاهَرُ كَثِيرُونَ الرَّغْبَةَ فِي حَدَّمِ
الْهُوَضِ وَالسِّيرِ لِبَدْرٍ ، فَقُضِبَ الرَّسُولُ ، وَأَقْسَمَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بَدْرٍ ، وَلَوْذَهَبَ
وَحْدَهُ « وَالَّذِي نَفْسِي بِيدهُ ، لَوْلَمْ يَخْرُجْ مَعِي أَحَدٌ لِتَرْجِتُ وَحْدَهُ » ، وَعَنْدَئِذِ
تَدَارَكَ أَنَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِهِ ، فَأَنَّارَ بِصَائِرَهِمْ ، وَشَدَ عَزَانِهِمْ ، نَفَرُجُوا مَعَ
الرَّسُولِ ، وَاسْتَصْبَجُوا مَعَهُمْ تَجَارِهِمْ ، لَأَنْ بَدْرًا كَانَ سُوقًا تَقامُ كُلُّ عَامٍ
عَمَانِيَّةً أَيَّامٍ .

سَارَ النَّبِيُّ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ عَدْتِهِ أَلْفٌ وَخَمْسَانَةٌ ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ
عَبْدُ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ . وَلَا بَلَغَ بَدْرًا عَسْكَرُهَا ، وَانْتَظَرَ قَدْوَمَ قَرِيشٍ ثَمَانِيَّةً

(١) سورة الحشر ٣ .

أيام ، فلما لم يصادفوا حرباً انفردوا بتجارة الموسم ، ثم تحدوا إلى المدينة ، ونزل
في ذلك قوله تعالى :

« الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ». الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ
قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوْهُمْ فَزَادُوهُمْ إِعْنَانًا وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ وَنِئْمَ الْوَكِيلِ
فَاقْتَلُبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ . لَمْ يَعْسِمْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ
وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ »^(١).

وأما ناحية التظاهر ، فإن أبا سفيان خرج بقريش في أكثر من ألفي
رجل ، وبعد مسيرة يومين ، نادى في الناس « يامعشر قريش ، إنه لا يصلحكم
إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن وإن عامكم هذا عام جدب ،
وإن راجع فأرجعوا ».

* * *

غزوة ذات الرقاع^(٢)

بلغ الرسول أن جماعة من غطفان ، وهم بنو حارب بن حفصة بن قيس ،
وبنوا ثعلبة بن سعد بن غطفان ، جمعوا جموعاً لمحاربتة ، فأمر أصحابه بالاستعداد
 واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى^(٣) ، ثم خرج في أربعة^(٤) حتى وصل

(١) سورة آل عمران ١٧٤ / ١٧٢

(٢) سميت ذات الرقاع قبل لأنهم رفعوا فيها راياتهم .

وقيل لشجرة في هذا الموضع يقال لها ذات الرقاع كان يجدها العرب

وقيل لأن الأرض التي تزلوا بها فيها بقع سود .

وقيل لأن خيلهم كان بها سواد وبياض .

وقيل لصلاحتهم فيها صلة الحروف

وذكر الطبرى (ج ٣) أنها سميت باسم جبل به سواد وبياض وحرقة وهي
من منازل لبني ثعلبة على مدخلين من المدينة .

(٣) قيل في رواية أخرى أن الرسول استعمل عثمان بن عفان .

(٤) قيل في رواية أخرى مضى في عاصمة .

ذات الرقاع « فلها علم بأمره بنو محارب ، وبنو نعبلة » تفرقوا تاركين وراءهم
نسامم ومتاهم ، ورجع المسلمين إلى المدينة ، على أنهم خانوا أن يرجع
العدو إليهم ، فتلقوا بواحراسة ليل نهار وجعل الرسول يصلّى بهم صلاة
الخوف



غزوة دومة الجندل

خرج الرسول في ألف من قومه إلى دومة الجندل ، وهي واحة تقع على
حدود ما بين الشام والجحاز^(١) ، واستعمل عسل المدينة سباغ بن عرفطة
الفارسي ، ولم يقابل القبائل التي أراد مقاتلتها ، إذ أنها عندما سمعت بقدومه
فرت مسرعة ، وترك للMuslimين الكثير من الغنائم ، وجاء في السيرة الحلبية ،
أن الرسول في تحركه إلى دومة الجندل كان يسير بالليل ويكون في النهار .



غزوة بن المصطلق

كانت قبيلة بنى المصطلق حرباً على المسلمين ... آذرت قريشاً في غزوة
أحد ، وأعدت العدة بعدها لغزو المدينة ، وبلغ ذلك الرسول ، فتجهز لغزوها ،
وخرج على رأس جيش كبير ، وخرج معه عبد الله بن أبي ، طعماً في عرض
الدنيا ، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة^(٢) ، وخرجت معه عائشة ،
وأم سلمة .

ولقى الرسول في طريقه جاسوساً لبني المصطلق ، وحاول أن يعرف
منه شيئاً عن أحوالهم ، فرفض الرجل أن يتكلم ، فأمر عمر بن الخطاب فضرب
عنقه ...

(١) في منتصف الطريق بين البحر الأخر وخارج طرس بينها وبين دمشق خمس ليال وبين
المدينة خمس عشرة ليلة .

(٢) قيل في رواية أخرى أنه الرسول استعمل أبو ذر الفارسي وفي رواية ثانية نعبلة
ابن عبد الله القيسي .

وصل الرسول إلى ماء يسمى المُرَبِّيْعُ ، ونظم صفوفه ، وجعل راية المهاجرين لابي بكر^(١) ، وراية الانصار لسعد بن عبادة ، وأمر عمر أن ينادي في الناس : «قولوا لا إله إلا الله ، امْنعوا بها أنفسكم وأموالكم».

ودار قتال عنيف . وكان على رأس بنى المصطلق ، الحارث بن أبي ضرار ، وقتل من المسلمين واحد ، هو هشام بن صبابة ، وقتل من بنى المصطلق عشرة ، وأسر الباقى ، وكانوا أكثر من سبعين ، وغنم المسلمين ألفي بعير وخمسة آلاف شاة ، وكان من ضمن الأسرى جويرية بنت الحارث ، فأعنتها النبي ، وتزوج بها ، وأدى هذا الزواج إلى إطلاق سراح الأسرى ، فلما علم بذلك بنو المصطلق ، جاموا إلى الرسول ، وأعلنوا إسلامهم ، وصاروا أفة الإسلام ، بعد أن كانوا أحراباً عليه .

الدروس المستفادة من هذه الفزوات

- ١ - حرص الرسول على تكتم أبناء العمليات التي سيقوم بها ، وكذلك
أبناء تحركاته ، ولهذا كان يسير بالليل ، ويكون في النهار ، وهذا هو غاية الحفاظة
على سرية التحركات ، خوفاً من أن يعلم بها العدو ، كما كان الرسول بأمر باتباع
الطرق غير المتبوعة ، حتى لا يعرف بمسيره أحد .
 - ٢ - وضحت أهمية المفاجأة كعنصر هام من عناصر الحرب .
 - ٣ - أرسل الرسول من يجمع المعلومات ، أى يقوم بالكشف قبل
إرسال بعثة ابن أبيه ، والكشف له دور كبير في العمليات ، فهو يقدم
المعلومات المفيدة عن العدو وعن عدته وتنظيماته ، ويمكن بوساطة هذه
المعلومات ، تقدير الموقف ، وإعداد الخططة التي تكفل النصر . (راجع
الحديث الذى دار بين عبد الله بن أبيه ، وبين خالد بن سفيان) .

(١) وَقِيلَ لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرِ .

٤ - ثبت أن الحرب خدعة ومكيدة ، ولقد أدرك الرسول ذلك ، فبعث بابن أبيس إلى خالد وأمره أن يقتله . وجلأ ابن أبيس إلى الخداع والمكيدة ، حتى تتمكن من أن يلتقي بخالد ، ثم تحدث إليه حتى أنس إليه واطمأن ، ثم غافله عند قيامه وقتله بعد أن اصرف عنه أعوانه .

٥ - الحصار وسيلة فعالة في الحرب ، تقنع عن المهاجمين الزاد والعتاد والمؤمن والمعاونات ، وهذا يؤدي إلى ضعف روح المقاومة ، وهذا ما حدث بعد أن حاصر الرسول بنى النضير ، إذ قبلوا شروط الرسول في التسلیم والجلاء عن المدينة بعد أن طال أمد الحصار .

٦ - شجاعة الرسول كقائد ، وأثر هذه الشجاعة في الجندي ، أمر لا يغفله إنسان ، فعندما خاف المسلمين الخروج لمقابلة ابن سفيان ، بعد أن سمعوا أنه خرج في جيش كبير ، غضب الرسول ، وأقسم أن يذهب وحده ، وكان هنا موقف من جانب الرسول سياسياً قوياً في إثارة الحمية ودافعاً لإشعال الحماسة في الجندي ، فقرروا أن يغروا جميعاً مع الرسول وأن يظلوه سنه وغضبه .

٧ - الواقية ، أي حماية القوات من مواجهة العدو لها ، ففي غزوة ذات الرقاع ، خاف الرسول أن يعود بنو غطفان إلى مهاجمة المسلمين فأمر بإعداد الحراسة وتشديدها ليل نهار ، وغرضه من ذلك هو حماية القوات .

٨ - إيمان القائد بالنصر ، فإن الرسول كان إذا تعقدت المواقف أمامه ، يلجأ إلى الله يسأله العون والرأي ، وعندما أحس الرسول أن قواته تملّكتها بعض الخوف في غزوة ذات الرقاع ، قام يصلّى بهم صلاة الخوف .

٩ - اتباع القائد للوسائل السياسية في بعض ما يعرضه من حالات فإن الرسول بعد غزوة بنى المصطلق ، أخذ الناس أسرى ، ثم رأى من باب السياسة ، أن يكسب بنى المصطلق إلى جانبه ، وأن يجعل منهم قوة تحارب معه فتزوج من جويرية بنت الحيث زعيم بنى المصطلق ، وأدى هذا الزواج إلى ذلك

أسر جميع الأسرى . ما أكب الرسول عببة القوم ، فأعلنوا إسلامهم ،
وصاروا قوة للإسلام .

١٠ - تلاحظ في جميع هذه الفزوات أن الرسول كان يخرج دائماً إلى
أعدائه ، أي أنه كان يتخذ خطوة المبوم دائماً ، وأنه ما كلن ينتظر حتى تهاجمه
قبيلة ، أو قورة مجتمعة فتضطر إلى اتخاذ خطوة الدفاع ، وما لا شك فيه أن فرص
الاتصال تكون موفورة للجانب المهاجم إذا ما أحسن تدبيره وإعداده
وتنظيمه .

غزوات الرسول

(٣)

• غَزْوةُ الْخَنْدَقِ

• غَزْوَاتُ بَعْدِ الْخَنْدَقِ

• مَحْدُودُ بْنِ خِيَّبَرٍ

• غَزْوةُ مَؤْتَةٍ

• عَلَيْتَانُ ضَدِّ قَضَايَا

غزوة الخندق

أسباب الغزوة (١) من جانب الأحزاب

استقر الأمر للرسول في المدينة ، ولكن الأمر لم يستقر بالنسبة لقريش وبالنسبة لليهود .. فقريش أبغضها هذا الدين الجديد ، وأبغضتها هجرة الرسول إلى المدينة ، وأبغضتها انتصاراته المتالية ، وقوته التي تزيد بمرور الوقت حتى أصبح له من الجمود ومن القوة ما جعله مرهوب الحابل .

واليهود أبغضها هذا النصر ، الذي سار في ركب محمد ، وهذه القوة التي بلغها حتى أخرج بنى قينقاع من المدينة ، وأجلت بنى النضير عن ديارهم . وكانت قريش في انتظار الفرصة لتفصي على محمد وعلى دعوه . وكذلك كان اليهود .

ودفع النضير بقريش وباليهود إلى التحالف ضد عدم المشترك .. فاتحدوا معاً وتحالفوا للقضاء عليه .

(٢) من جانب المسلمين

نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ودعوته ، وعرف المسلمون مبلغ الخطر المدحى بهم ، فرسموا على عجل الخطبة التي يدفعون بها عن دعوتهم ودولتهم .

وكان هدف المسلمين إذن في غزوة الخندق صد المعتدين ، وردم على أهابهم ، والدفاع عن عقيدتهم ، وحماية دينهم ودعوتهم .

الاستعداد (١) من جانب الأحزاب

كانت فكرة تأليب العرب قد اختارت في ذهن بنى النضير ، ولذا خرج نفر منهم على رأسهم سلام بن مشكم ، وكنانة بن أبي الحقيق ، وحيي بن أخطب ومعهم بعض من بنى وائل ، بقيادة هوذة بن قيس وأبي حمار ... خرج

هؤلاء إلى قريش في مكة ، فسلمهم أهل مكة عن بنى التغیر ، فقال حبي « تركتم بين خير والمدينة يتربدون حتى تأتونه فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه ، وسألوه عن قريظة فقالوا أقاموا بالمدينة مكرًا بمحمد حتى تأتونه فبليوا معكم » .

وعاد أهل قريش يستمعون إلى هذا الوفد وهو يقول لهم « إننا سنكون معكم على محمد حتى نستأصله » ، فقالت لهم قريش « إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا مختلف فيه نحن ومحمد ، أقديتنا خير من دينه ؟ » ، فقال وفد اليهود « دينكم خير من دينه وأتم أولى بالحق منه » ، فأنزل الله تعالى فيهم :

« ألم ترَ إِلَيَّ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبَنَا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِنِّ وَالظَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آتَيْنَا سَبِيلًا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنْهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْمِعْنَاهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا » (١) .

وسر قول اليهود قريشاً ورجبوا بدعوتهم ، واجتمعوا بذلك واستمعوا بهم أعدوا على وقت بخرجون فيه .

ثم خرج وفد اليهود بقيادة حبي بن أخطب إلى غطافان من قيس غالان ، والله بن مرة ، وإلى بني فزارة ، وإلى أشجع ، وإلى سليم ، وإلى كل من له ثأر عند محمد ، يحرضونهم على الانتحاد في سبيل القضاء عليه أخذًا بالنار ، ويعلنونهم أن قريشاً ستخرج معهم ، وأن النصر قد أصبح حقيقة واقعة .

واجتمعت الأحزاب التي دعتها اليهود لمحاربة محمد ، غرجرت قريش في أربعة آلاف ، وعقدت اللواء في دار الندوة ، وحمله عثمان بن أبي طلحة (٢) طوني القيادة أبو سفيان بن حرب ، وكان معهم ثلاثة فرس وألف وخمسمائة بعير ، وخرج بنو سليم في سبعمائة مقاتل يقودهم سفيان بن عبد شمس ،

(١) النساء ٥٢/٥١

(٢) فل قل أبوه وهو محمل لواء قريش في أحد .

وخرجت بنو أسد بقيادة طلحة بن خويلد الأسدى ، وضطُّلَّن بقيادة هنيفة
ابن حسن بن حذيفة ، ومرة بقيادة الحرفت بن عوف ، وأشجع بقيادة
مسعر بن رُخْيَنة ، وغيرهم من قائل العرب .

وكانت هذه أول تلك الأحزاب عشرة آلاف ، كما قال ابن إسحق ، وساروا
بعيضاً تحت قيادة أبي سفيان ، قاصدين المدينة ، فلما بلغوها تداولوا القيادة
يوماً بعد يوم على التوالى .

(٢) من جانب المسلمين

لما سمع الرسول بالأحزاب ، وما أجمعوا عليه من الأسر الذي زعموه
وهو القضاء على المسلمين وعلى دعوة محمد ، بدأ يفكر في ملاقتهم ، ولذلك
أدرك أن هذا العدد الكبير السائر إليه لن تستطيع قوة المسلمين أن تصيبه
أمامه .. فإذا عسى رجاله أن يفعلوا المقابلة هذه الآلوف المؤلفة من الرجال
والسلاح والخيل والإبل ؟ .. لئن اتفتح أن هناك وسيلة واحدة هي الخاد
خطة الدفاع .. أي احتلال المدينة والبقاء داخلها والملاعنه عنها ، ومحاولة صد
جميات المعدين .. ولكن هل يمكن هذا لمواجهة القوة المهاجرة ؟ سؤال لم يتوه
في ذهن الرسول ، وأخذ يفكّر في الإجابة عليه بقليله قائد المحارب الشجاع ،
تدبر الأمر ، وبخت الموقف ، وتشاور مع أصحابه ، وقدم إليه سليمان
الفارسي ^(١) رأياً وجده سليماً ، فأقره وأمر بتنفيذ فوراً .

كان رأى سليمان هو إقامة خندق ^(٢) حول المدينة ، ويحسن المسلمين
داخل المدينة ، وقال سليمان للرسول « يا رسول الله إننا كنا بفارس إذا
حوسنا لا سندقنا علينا » .

(١) سليمان من أهالي فارس من أصحاب فرجى أصبهان ، كان أباًه دعفان القرية وكان يهتم
لدرجة أنه جبيه في داره .. هرب سليمان من أخيه إلى الشام مع ركب من تجار التماريم وهو قبل
للجزرية العرب حيث اشتهر بهودي من بنى قريظة قدم به إلى يثرب وظل يعمد نفسه حتى مات
الرسول إلى المدينة فدخل في دين الله وأصبح من كبار الصحابة .

(٢) لم يكن العرب علم بالخندق ولكنه كان من مكابد الفرس وأثار به سليمان للناس

المفرد

وأخذ المسلمين في تنفيذ ما استقر عليه الرأي ، وببدأ الحفر^(١) وعمل فيه النبي يديه ، فكان يرفع التراب ، ويشجع المسلمين ويدعمون لضاقة الجهد ، وخط النبي لكل عشرة من الناس عشرة أذرع يعملون فيها ، وكان سلان يعلم عمل عشرة ، وتنافس المهاجرون والأنصار قال المهاجرون سلان منا ، وقالت الأنصار سلان منا ، قال لهم الرسول سلان منا أهل البيت^(٢) ..

وشهدت يثرب منظراً عجياً ، وجوماً ناصعة تتألف منها فرق شتى ، تضرب بالفتوص وتتحمل المكائيل ، وتعري من لباسها وزينتها ، لتلبس حلا من نسج الغبار المترافق والعرق .

و عمل بالخفدق بعض المنافقين ، فكانوا يعملون حلا ضعيفاً ، واعتذر كثير من المشركين عن الاشتراك في الحفر ، واستخدم المسلمين في الحفر من الأدوات المساحي^(٣) ، والكرازين^(٤) ، والمكائيل^(٥) ، وكان الرسول يمر بين المسلمين وهو يردد « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » ..

وخلال الحفر^(٦) رأى النبي ما بالصحابة من تعب ووجوع ، لأن الزمن كان عسرة والعام عام مجاعة ، فقال متمثلاً بقول ابن رواحة :

(١) جاء في كتاب الحياة العربية من الشعر الجاهلي أن الرسول عندما بدأ الحفر قال .

بس افة وبه بدينا ولو مبدنا غيره ثقينا
ياحبذا ربا وحب دينا

(٢) قال الرسول « السباق أورمة .. أنا سابق العرب ، وبلال سابق الهيئة ، وسيب سابق الروم وسلامان سابق الفرس .. »

(٣) المساحي جمع مسحاة وهي التي يمسح بها الطين أى يحرف ،

(٤) الكرازين جمع كرزون وكرزون وهي الفتوص .

(٥) المكائيل جمع مكثل وهو المقطف الذي يعدل فيه الزراب .

(٦) يقال أنه في أنتهاء الحفر اثنين للسلمن إلى الرسول بالي الحفرة لا يأخذ فيها للطور فأخذ الرسول المغول من سلان وقال « باسم الله » ثم ضربها قنطرة ثنتها ، وخرج نور وقال الرسول « الله أكبر أحطبت مفاتيح الشام » ، وأله الله لأبصر صورها الحر الشام من مكان ثم ضرب الثانية فقطع ثلاثة آخر وبرقت برقة من جهة الأرض ، فقال « الله أكبر أحطبت مفاتيح

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فارسم الأنصار والهاجرة
فأجا به الصحابة بقوتهم :

نَحْنُ الَّذِينَ بَيْنَنَا مُحَمَّدًا عَلَى الْجَهَادِ مَا بَقِيَنَا أَبْدًا

وفي النجار حديث البراء بن عازب قال « لما كان يوم الأحزاب وخندق
صلى الله عليه وسلم ، رأيته ينقل التراب ، حتى وارد الغبار جلده »^(١) . وكان
يرتجز وهو ينقل التراب بقول ابن رواحة :

اللهم^(٢) لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلبنا
فأنزلن سكينة علينا
وئبت الأقدام إذ^(٣) لاقينا
إن الآلى قد رغبوا علينا
إذا أرادوا فتنة أبينا

وتم حفر الخندق في ستة أيام^(٤) . وأمر الرسول بتحصين جدران المنازل
التي تواجه العدو ، إلى مسافة فرسخين من الخندق ، وأمر بإخلاء المساكن ،
وأقى بالنساء والأطفال إلى المنازل التي حصنت ، ووضعت الحجارة على جانب
الخندق من ناحية المدينة لتكون سلاحاً يرى به العدو عند الحاجة .

وبلغت قوة المسلمين ثلاثة آلاف ، واستخلف الرسول على المدينة

« روى ، وافق أن لأبصر قصر المدائن الأربع الآن » ، نم ضرب الثالثة وخرج لور من قبل
البيزن فقال « آفة أكبر أعطيت مقاييس البيزن » ، وافق أن لأبصر أبواب صنفها من مكانة الساعة .

(١) في رواية أخرى « كان رسول الله ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بهنه »

(٢) في رواية أخرى « وافق لولا آفة ما اهتدينا »

(٣) في بعض المراجع

وئبت الأقدام لأن لاقينا

والمعروكون قد بدوا علينا

ولأن أرادوا فتنة أبينا

(٤) قيل عصر وون يوماً وقيل أربعة وعشرون وقيل شهر .

ابن أم مكتوم ، وكان لواء المهاجرين يد زيد بن حارثة ولواء الأنصار يد سعد بن عبادة .

قريش أمام الخندق

كانت قريش وحلفاؤها يتوقعون إقامه محمد في أحد ، فلما لم يجدوه هناك قدموه إلى المدينة وفي خلال تقديمهم فوجئوا بالخندق ... وكان الخندق نوعاً من الدفاع المجهول لهم ، حتى إنهم قالوا عندما فوجئوا به « والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيد بها » .

وعسكرت جند قريش بمجتمع الأسباب من رؤامة ، وعسكرت جند عطfan ، بذنب نقمي ، أما الرسول فكان قد اتخذ مواقمه ، فجعل هضبة سلم من خلفه وجعل الخندق بينه وبين أعدائه .

رأى قريش أنه لا سبيل إلى اجتياز الخندق ، فبقيت في مواقعها تتبادل القراى بالبنال ، وصاروا يتناوبون ... فيغدو أبو سفيان وأصحابه يوماً ويغدو خالد بن الوليد وعمرو بن العاص يوماً ، وهبيرة بن وهب يوماً وعكرمة ابن أبي جهل يوماً ، وضرار بن الخطاب يوماً ، فلا يزالون يนาوشون أصحاب الرسول ، وكان الرسول يبشر المسلمين ويثبتهم ويقول لهم « ابشروا بعون الله ونصره ، إنما لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخذ المفتاح ، ولذلك كسرى وسير ، ولتنفقن أموالها في سبيل الله » .

محاولات الاقتحام

إذاء هذا النوع الجديد من الدفاع وقفت قريش وأعواها تفكّر ماذا عساها تفعل ؟ إن الأمر جديد عليها وهي حدثة العهد بأمر الخندق ، وفكّر بعض من رجالها في اقتحامه ، ونجحوا في ذلك من ناحية ضيقه ، وكانوا على خيولهم ومنهم عمرو بن عبد العماري ، وكان ابن تسعين سنة من الشجعان المشهورين ، ومنهم عكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة بن أبي وهب ، وضرار بن الخطاب ، فلما صاروا بالسبخة بين الخندق وسلع ، طلب عمرو بن عبد العماري

المبارزة وقال ، من ييارز ؟ ، فقام على وقال . أنا له باني أله ، وعاد عمرو يكرر النداء ويقول ، أين جتكم التي تزعمون أن من قتل منكم يدخلها أفلاترزون لي رجلا ؟ ، فقام على وأذن له الرسول وأعطاه سيفه وألبسه درره وعمه بعثاته وقال ، اللهم أعنـه عليه ، اللهم هذا أخي وابن عـي فلا تذرـف فرداً وأنت خـير الوارـتين^(١) .

فليـا التقـى عـلـى وعـمـرو ، قال عـلـى ، يا عـمـرو إـنـك كـنـتـ عـاهـدـتـ اللهـ لاـيـدعـوكـ رـجـلـ منـ قـرـيشـ إـلـى أحـدـ خـصـلـتـينـ إـلـاـ قـبـلـتـهـماـ ، فـإـنـي أـدـعـوكـ إـلـى اللهـ ، وـإـلـى رـسـوـلـهـ صـلـيـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ، وـإـلـى الإـسـلـامـ ، فـرـدـ عـلـيـهـ عـمـروـ ، لـاحـاجـةـ بـيـ إـلـى ذـلـكـ ، وـدـعـاهـ عـلـى إـلـى المـبارـزـةـ ، إـلـاـ أـنـ عـمـراـ قـالـ لـهـ ، يا بـنـ أـخـيـ مـنـ أـعـامـكـ مـنـ هوـ أـشـدـ مـنـكـ ، فـإـنـي أـكـرـهـ أـنـ أـرـيقـ دـمـكـ ، وـإـنـ أـبـاكـ كـانـ صـدـيقـاـ لـيـ ، وـوـالـهـ مـاـ أـحـبـ أـنـ أـقـتـلـكـ ، فـرـدـ عـلـيـهـ عـلـىـ ، وـلـكـنـتـ وـالـهـ أـحـبـ أـنـ أـقـتـلـكـ ، وـهـاجـهـ عـلـىـ وـتـمـكـنـ مـنـهـ وـقـتـلـهـ^(٢) ، وـأـسـرـعـ إـلـى الرـسـوـلـ يـنـبـهـ بـالـخـبـرـ ، فـسـأـلـهـ ، كـيـفـ وـجـدـتـ نـفـسـكـ مـعـهـ ؟ ، فـقـالـ عـلـىـ ، وـجـدـتـ أـنـ لـوـ كـانـ أـهـلـ الـمـدـيـنـةـ فـجـانـبـ لـقـدـرـتـ عـلـيـهـمـ .

وـعـنـدـمـاـ قـتـلـ عـمـروـ أـسـرـعـ كـلـ مـنـ اـقـحـ المـخـنـقـ مـنـ الـمـشـرـكـينـ ، هـارـبـاـ عـانـدـاـ إـلـى مـوـاقـعـ الـمـشـرـكـينـ ، وـتـبـعـهـ الزـيـرـ بنـ الـعـوـامـ وـضـرـبـ نـوـفـلـ بنـ عـبـدـ اللهـ بـالـسـيـفـ فـشـقـهـ نـصـفـيـنـ ، وـوـصـلـتـ الـضـرـبةـ إـلـىـ كـاـهـلـ فـرـسـهـ فـقـيلـ لـهـ ، ياـ أـبـاـ عـبـدـ اللهـ ماـ رـأـيـناـ مـئـلـ سـيـفـكـ ؟ ، فـقـالـ ، وـالـهـ مـاـهـوـ السـيـفـ وـلـكـنـاـ السـاعـدـ .

وـحاـوـلـتـ قـرـيشـ أـنـ تـفـاجـيـهـ الـمـسـلـيـنـ بـالـإـغـارـةـ عـلـيـهـمـ ، فـكـانـتـ تـرـسلـ الطـلـانـعـ بـالـلـيـلـ لـلـإـغـارـةـ ، وـمـنـ ذـلـكـ أـنـ خـالـدـ بنـ الـوـلـيدـ كـرـ بـطـاطـقـةـ الـمـشـرـكـينـ خـاصـدـ أـسـيدـ بنـ حـضـيرـ عـلـىـ الـخـنـقـ فـيـ مـاـتـيـنـ ، فـنـاـوـشـهـمـ ، وـجـاءـ الـخـبـرـ إـلـىـ

(١) وـفـ رـوـاـيـةـ أـخـرىـ ، لـهـ أـخـذـتـ عـبـيـدةـ مـقـيـ يومـ بـدرـ ، وـجزـءـ يومـ أـحـدـ ، وـهـذاـ عـلـىـ أـخـىـ وـابـنـ عـمـيـ ، فـلـاـ تـذـرـفـ فـرـداـ وـأـنـتـ خـيرـ الـوارـتـينـ .

(٢) بـثـ الـمـشـرـكـونـ لـلـهـ الرـسـوـلـ يـثـرـونـ جـمـاـنـ عـمـروـ بـعـشـرـةـ آـلـافـ فـقـالـ لـهـ الرـسـوـلـ هـوـ لـكـمـ وـلـاـ تـأـكـلـ ثـمـنـ المـوقـعـ .

الرسول ، فزولت قلوب المسلمين وبلغ الفزع من أهل يثرب مبلغه وعظم
البلاء ، وصار الخوف على النساء والذراري أشد من الخوف على أهل الخندق ،
ودعا رسول الله على الأحزاب قائلًا « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ،
اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزلهم » ، ثم قال الرسول
لقومه « أئها الناس لا تمنوا لقاء العدو وأسألوا الله العافية ، فإن لقيتم العدو
فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيف » ، ثم دعى الله « يا مجيد
المضطرين أكشف هم وغمي وكربي ، فإنك ترى ما نزل في وبأصحابي » ،
وبشره جبريل بالنصر وبأن الله سيرسل على أعدائه رحمةً وجنوداً .

كسب حلفاء جدد

ما لا شك فيه أن انضمام حلفاء جدد إلى إحدى جبهتي القتال فيه تقوية
وتدعم لمراكز هذه الجبهة ، ولهذا دار سباق كبير وبذلت محاولات كثيرة من
جانب الرسول ومن جانب قريش .. كل منها يحاول أن يكسب ..

١ - كان أهل قريطة في حلف مع محمد ، إذ أنه رأى أنه في حاجة إلى
المؤمن والذخائر في أثناء العملية ، وأنه لابد أن يعد سبلاً لا ينقطع منها حتى
يضمن إذا طال بقاوه هو ورجاله في مواقفهم أن يبق الجميع بالشعور نفسه
ولا يفتقرن إلى ماء أو غذاء أو سلاح ففتر همهم وتضعضع عزيمتهم ،
ويتمكنون من الجزع والخوف والجوع والعطش .. لهذا اتفق محمد مع قريطة
وتعاونوا معاً ، وهكذا احتفظ محمد بخطوط تموينه ، فظللت مستمرة غير
منقطعة ، وظل هو ورجاله في أماكنهم مستعينين في المقام . وأما قريش فقد
ضاق الأمر بها ، وأخذت تفكير في الوصول إلى حل سريع وأخيراً جاءت
إلى الحيلة ، فعرض حبي بن أخطب اليهودي إقناع بنى قريطة بقضاء اتفاقهم
مع محمد ، وبذلك ينقطع عنه المدد والغذاء ، وينفتح أمامهم الطريق للدخول
يترقب من الناحية الأخرى فيطمئنون محمدًا من الخلف ، وذهب حبي بن أخطب
إلى كعب بن أسد القرظي ، فأغلق كعب دونه باب حسنة ، وأبى أن يفتح
له فقال له حبي « ويحك يا كعب ، افتح لي أكلك » ، فقال له « اذهب عن إلك

أمر متشوّم ، وإن قد عاهدت محمدًا فلست بنافض ما بيني وبينه فإني لم أر منه إلا وفاءً وصدقًا ، فنسبه حبي إلى البخل ، وقال له « وآله ما أغفلت دني إلا تخوفًا على حشيشتك »^(١) أن كل معلم منها ، ولم يزل به حتى فتح له فقال « ويلك يا كعب لا توافقني .. جنتك بعن الدهر وبحر طام ، جنتك بقريش على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم بمجتمع السبيل ، ومن دون منزل قريش غطfan ، وقد عاهدوني على لا ييرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه ، فقال كعب « جئني والله بذلك الدهر ، ويلك يا حبي دعنى وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا وفاءً وصدقًا » .

وما زال به حتى أثار يهوديته ، فلن كعب إلى إخوانه اليهود وقبل ما عرضه عليه حبي ، ونقض عهده مع محمد وأعطاه حبي عهداً على أنه إذا رجمت قريش وغطfan ولم يصيروا ملائكة ، أن يدخل معه في حصنه يصيرون ما أصابه ، ثم أرسل حبي إلى قريش أن تبعث له ألف رجل منهم ، وإلى غطfan أن ترسل إليه ألفاً منهم ليغيروا على المدينة .

٢ - كان بنو قريطة بالمدينة .. كانوا في داخلها من خلف المسلمين .. كانوا يرسمون لأنفسهم دوراً في المعركة ، وكان هذا الدور هو أن يطعنوا محمدًا وال المسلمين من الخلف وأن يرهبوا .. كانت صفية بنت عبد المطلب في حصن حسان بن ثابت وكان فيه حسان ، فربهم يهودي ، فقالت صفية لحسان « إن هذا اليهودي يطيف بالحصن كما ترى ، وإن والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من اليهود ، ورسول الله وأصحابه قد شغلوا عنا فأنزل إلينه قاتله » ، فقال لها حسان « يغفر الله لك يا بنته عبد المطلب ! والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا » ، فعادت صفية الحصن ، وأخذت عموداً وضربت به اليهودي حتى قتلته ، فلما رجمت قاتل حسان « انزل إليه فاسمه فإنه لم ينفع من سلبه إلا أنه رجل » .

(١) الدشيش ..

وبانضمام بنى قريظة إلى الأحزاب قطعت «بنو قريظة»، المدد والميرة من المسلمين، وارتفعت روح قريش العسكرية فألفت ثلاث كنائب للهجوم بها على الرسول، إحداها من فوق الوادى بقيادة ابن الأعور السُّلْمَيَّ، والثانية من الجنب بقيادة عُيَّنَةَ بْنَ حَنْنَ، والثالثة من قبل الخندق بقيادة أبى سفيان وفي هذا الموقف نزلت الآيات الكريمة :

«إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ
وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْخَاجِرَ وَتَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ نَاهُنَّا لَكُمْ إِنَّ الْمُؤْمِنُونَ
وَرُزِّلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا، وَإِذْ يَقُولُ الْمَنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غَرُورًا، وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرَبَ
لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوهُ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيُّ يَقُولُونَ إِنَّ يُوَتَنَا
عَوْرَةً وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا»^(١).

ونادى الرسول في قومه «من يأتى بنى قريظة فياً تبَّى بِخَبْرِهِ؟» قال الزبير^(٢) «أنا يا رسول الله».

وانطلق إليهم . فلما رجع قال له الرسول «فذاك أبى وأمى» ، وأبلغه الزبير أن بنى قريظة قد نقضوا عهده وأنهم يقولون إنه لا عهد بينهم وبين الرسول ولا عقد .

٣ - أخذ الرسول يفكر في وسيلة سريعة إلى الخلاص ، وقنع الرسول بثوبه واضطجع ومكث طويلا حتى اشتد على الناس البلاء ، ثم غلبه روح

(١) سورة الأحزاب ١٣ / ١٠

(٢) ف رواية أخرى أن الرسول بعث سعد بن معاذ وسمد بن عبادة وعد آفة بن رواحة وخوات بن جبير وقال لهم « انطلقوا لتنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقاً فلمتوا إلى هنا أمره » وكان الرسول يقصد بذلك ألا يكلوه كلام صريحاً يفهمه الناس خوفاً عليهم من أن يقع لهم تنبيط .

الأمل فهض يقول «ابشروا بفتح الله ونصره» ، ثم قرر أن يلجمأ ، إلى الحيلة ، واتجه إلى أعدائه يحاول أن يفرق بينهم ، فما كاد يدرك أن غطفان قد بدأ تعلم ، وأنها أظهرت امتعاضاً من طول فترة الحصار حتى بعث إلى غطفان يعدها ثلث ثمار المدينة إن ارتحلت ، وفي خلال مفاوضاته مع غطفان جاءه سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة وقال له «أمرأ تحبه فتصفعه ، أم شيئاً تصفعه لنا» ، فقال الرسول «بل شيء أصنع لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبيوم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما» . فقال سعد بن معاذ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الآوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا فرق أو بيعاً ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم» .

وبذلك فُتئت المفاوضة بين محمد وغطفان .

٤ - وطرق الرسول طريقاً آخر يفرق به بين أعدائه .. إن قريشاً نجحت في أن تضم بني قريطة إليها ، فلماذا لا يفعل فعلها ويياعد ما بين قريش وقريطة .. أدرك الرسول أن الحرب خدعة ، وقرر أن يستخدم هذا المبدأ ، واتهزم فرصة قديوم نعيم بن مسعود إليه يعلن إسلامه ويقول «يا رسول الله إن قومي لم يعلموا بإسلامي فرق بما شئت» ، فبعث به إلى بني قريطة ، وكان نعيم صديقاً لهم ، فخرج إليهم حتى أتاهم فرحبوا به فقال لهم «إذا جئتم تخفوا عليهم لأشير عليكم برأيي . يا بني قريطة قد عرفتم ودى إليناكم وخاصة ما بيني وبينكم» ، قالوا «صدقت لست عندنا بهم» ، فقال «اكتموا عني» . قالوا «نفعل» ، قال «لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع ولبني النضير من إجلائهم وأخذ أموالهم ، وإن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم وبها نساؤكم وأموالكم وأبناؤكم ، لا تقدرون على أن ترحلوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاموا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهر توجه^(١) عليهم ، وابناؤهم وأموالهم ونساؤهم وغيره

(١) أي عاونتهم .

ظيسوا كأنتم فإن رأوا نهرة^(١) أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا بيلادم
وخلوا بينكم وبين بلادم ، والرجل بيلادم ، ولا طاقة لكم به إن خلابكم ،
فلا نقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم سبعين رجلاً
يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محداً حتى ينجزوه^(٢) ،
فقالوا له « لقد أشرت بالرأى والنصح وإنما فاعلون » .

وخرج نعيم ، ليجول جولته الثانية ، ولينفذ خطته مع الأحزاب ...
ترك بنى قريطة . واتجه إلى قريش ، وتحدث إلى أبي سفيان ، ومن معه من
أشراف قريش ، قال لهم « قد عرفتم ودى لكم ، وفارق محمد ، وإنه قد بلغنى
أمر ، قد رأيت أن أبلغكموه نصراً لكم ». إن يهود بنى قريطة ، قد نسموا
على ما صنعوا ، فيما بينهم وبين محمد ، من نقض عهده ، وقد أرسلوا إليه
وأنا عندهم : إننا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن تأخذ ذلك من القبيلتين
قريش وغطفان . رجالاً من أشرافهم ، فتعطيلك أيام ، فتضرب أعناقهم ، وتُردد
جناحنا الذي كسرت إلى ديارنا ، ثم تكون معك على من بقي منهم حتى
نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم ان نعم ، فإن بعث إليكم بنو يهود تتبع منكم رهناً من
رجالكم ، فلا تدفعوا إليها رجالاً واحداً ، واحتذروا على أسراركم » .

وضرب نعيم ضربته الأخيرة ، فوجئ بباب غطفان ، وقال لهم « إني
أهلي وعشيري وأحب الناس إلى ، ولا أراك تهموني » ، ثم قال لهم مثل
ما قال لقريش وحذيرهم .

ونجح نعيم بجاحاً باهراً في مهمته ، إذ أرسل أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل
إلى بنى قريطة يقول لهم « إننا لسنا بدار مقام وقد هلك الحلف والحاقر ،
فاغدو للقتال حتى تنجز محداً » ، فقالوا له « إن اليوم يوم السبت ، وقد علمت
ما نال منا من تعد في السبت ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً
سبعين رجلاً » .

(١) أى فرصة .

(٢) يقاتلوا .

ولجا أبو سفيان إلى خطفان ، فإذا بها هي الأخرى تتردد في الإقدام على قتال محمد ، متأثرة بما كان قد وعدها به من منحها ثلث ثمار المدينة .

وهكذا تفرق شمل الأخلاف ضد محمد .

وضجفت شوكة قريش .

وببدأ أثر السياسة واضحًا ، في رجحان كفة على أخرى ، في ميدان الحرب .

تأثير الجو على العملية

للجو تأثير كبير وخطير على العمليات الحربية .

هذا ما ي قوله العسكريون ، ولهذا فهم يعملون للجو حساباً كبيراً عند وضع خطة الهجوم .. أما أبو سفيان ، وأما قريش ، فلم تعمل له حساباً ، وهذا كان الجو في موقعة الخندق ، حرباً عليهم وعوناً لحمد .

قضى أبو سفيان وقتاً طويلاً أمام الخندق ، دون أن يستطيع افتتاحه واحتيازه ، وكان عليه أن يبق حول الخندق ، مدة طويلة دون أن يصل إلى غرضه .. كان الوقت شتااء ، شديد البرودة قارساً ، ذاعوا صرف رملية ، ورياح هوجاء ، كفات قدورهم ، وطرحت أبنائهم ، وقلعت بيوتهم ، وهدمت خيامهم وصارت الريح تلقى بالرجال ، وتطفئ نيرانهم ، وتغلّظ عيونهم ، واشتدت الريح بصوت مثل الصواعق ، وأظلمت من شدتها الدنيا .

قال حذيفة بن الحمأن في وصفه للليلة الأحزاب « ما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ، ولا أشد ريحاناً منها ، تطن في رياحها أصوات أمثال الصواعق ، وما يستطيع أحدنا أن يرى إصبعه من قائمها السائد » .

المزيمة والفرار

تملك رجال قريش الخوف والفزع ، وأدركوا أن معركتهم ضد محمد قد بامت بالفشل ، وأنهم غير محققين أهدافهم ، وباغت حالتهم النفسية درجة بالغة السوء ، حتى أن أبو سفيان قال لهم « يا معاشر قريش ، والله إنكم لستم

بدار مقام ، وقد هلك الکراغ والخف . وأخلفتنا بنو قريطة ، وبلغنا عنهم .
الذى نکره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، ما نطمئن لاناقدر ، ولا قوم
لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء . فارتاحوا في مرتاحل ، ثم وثب على جمله
وحل عقاله ، فقال له عكرمة بن أبي جهل « إمك رأس القوم ، وقادم ،
وقترك الناس !! » ، فاستحبأ أبو سفيان ، وأخذ ينادي في الناس « ارحلوا »
وأخذ الناس يرحلون .

وعلت غطfan بما صار إليه حال قريش ، فاشتدوا راجعين إلى بلادهم .
وعندما طلع النهار ، إذا ظاهر المدينة خلام ... ارتحلت الأحزاب ،
وانفك الحصار ، وعاد الأمان ، ونجح الإيمان في المحن ، وهتف رسول الله
يقول « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ،
وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » .

ورجعت الطمأنينة إلى النفوس ، وظهرت خيبة الأحزاب ، بعد أن
أقبلت من كل فج لتجتاح يثرب ، وظهرت صلابة المسلمين في مواجهة
الأزمات المرهقة ؛ وقال الرسول بعد هذا الفوز الكبير « الآن نفزوكم
ولا يغزوننا » .

بعد الغزوة

بعث أبو سفيان إلى الرسول بكتاب يقول فيه « أندسرت إليك في
جمع ، وأنا أريد ألا أعود أبداً حتى أستأصلكم ، فرأيتكم وقد كرمت
واعتصمت بالخدق ، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيفنا ، ولقاتنا ولتك مني
يوم كيوم أحد » .

ورد عليه الرسول « أتلق كتابك ، وقد يغرك باقة الفرور ، أما ما ذكرت
أنك سرت إلينا ، وأنت لا تزيد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر يحوله
الله تعالى بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة ، ول يأتيك يوم أكسر فيه
اللات والعزى ونائة وهبل » .

دروس المستفادة

وبدراستنا لهذه الغزوة نخرج بالدروس المستفادة التالية :

١ - استخدام وسائل حديثة لم يعهد لها العدو ، ومفاجأته بهذه الوسائل من شأنها أن تضعف من عزيمته ، وتقلب خططه رأساً على عقب ، فإن تريشاً فوجئت بوجود الخندق ، وكانت تجهله كوسيلة حديثة للدفاع ، فارتبت تفكيرها ، وطاش تدبرها ، وانقلبت خططها .

٢ - الحرب خدعة . . . وقد أثبتت ذلك نعيم بن مسعود في مسعاه إلى كل من بنى قريطة وقريش وغطفان ، وبما لا شك فيه أنه كان للخداع أثر كبير في تغيير دفة الحرب ، فقوات الأحزاب التي بلغت الآلوف ، لم يفدها العز الدين ، والعدة الوافرة ، والأعداد الكبيرة ، والسلاح والخيل والإبل ، إذ تمكّن ابن مسعود من أن يخدع القادة ، وأن يضرب الحلفاء بعضهم ببعض ، وبذلك تلاشى التعاون بين الحلفاء ، وقد القادة السيطرة على قواتهم مما كان له أكبر الأثر في إضعاف القوى ، وتشييط الهم .

٣ - تعاون القائد مع الجندي في الميدان أمر هام ، فإن الرسول الكريم حينما أحس بضرورة الإسراع في إنشاء الخندق وحفره ، لم يرض أن يقع هو في خيمته ويترك الجنود تحفر الخندق ، بل ظل بينهم يحمل التراب كما يحملون ، ويحفر كما يحفرون ، وكان ذلك حافزاً كبيراً للجند ، فأقبلوا على الحفر بروح طيبة ، وشعور فياض ، ورغبة أكيدة ، وكان لهذا كله أثر كبير في إتمام حفر الخندق في ستة أيام .

٤ - يجب أن تسيطر روح القتال على المقاتلين ، فهي تدفع بهم إلى الحرب دون خوف من الإصابة أو الموت .

أصيب سعد بن معاذ ، وكانت جروحه شديدة ، وكان هو عميق الرغبة في متابعة الجهاد حتى يستقر أمر المسلمين ، وتنكس راية خصومه فدعاه الله وقال : « اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فابقني لها .. وإن كنت

قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فاجعلها شهادة ، ولا تنتهي حتى تقر هنف من
بني قريطة ..

وموقف علي بن أبي طالب أمام عمرو بن عبد ود ، خير دليل على صدق
ما نذهب إليه ، فها هو ذا عمرو يهدد علياً وبخيفه ، ويطلب منه أن يرسل له
من هو أكثر كفاية منه ، فيأتي على ذلك ، ويصم على زواله ويقول له ، ولكنني
وأ والله أحب أن أقتلك ، . وبفضل الروح الحرية المسيطرة على علي رضي الله عنه ،
تمكّن من قتل عمرو . ولما شاهد ذلك زملاء عمرو ، الذين ينحووا في
اجتياز الخندق ، فروا هاربين بعد أن أيقنوا أنهم ملاؤن ذات المصير الذي
اتهى إليه عمرو بن عبد ود ..

وروح القتال سيطرت على صفية بنت عبد المطلب يوم رأت يهوداً
يُطّوف بمحسن حسان بن ثابت ، فحملت عموداً ضربت به اليهودي فقتلتة^(١) .

٥ - ضرورة وأهمية تأمين الخطوط الخلفية وضمان وسائل الإعاقة ،
في ميدان القتال ، ولقد أثبتت الرسول أنه قائد عتاز ، هندياً وضع هذين
الأمرتين أمام ناظريه ، فقد أدرك أن الحصار قد يطول ، وأنه في حاجة إلى
وسائل الإعاقة المختلفة ، كما أنه في حاجة إلى أن يؤمن ظهره ، ولهذا تعاقد
مع بني قريطة وتعاهد معهم ، حتى أنه عندما علم أنهم نقضوا عهدهم له ،
وانضموا إلى قريش ، سعى إليهم يعرض عليهم ثلاثي ثمار المدينة ليضمن بقاهم
بجانبه ، لأن في ذلك ضمان خطوطه الخلفية وتأمينها ، ولهذا دفع أيضاً بضم
ابن مسعود ليفرق بين بني قريطة وبين قريش ، ليحتفظ بخطوطه الخلفية ،
آمنة سليمة ، لا خطر منها يتهدده ..

٦ - أثبتت موقعة الخندق ضرورة الحصول على حلفاء جدد ، وضمهم
إلى جبهة القتال ... والصراع الذي دار بين الرسول وقريش ، حول ضم
بني قريطة دليل قاطع على أهمية الحصول على حلفاء ومعالفات ... ولقد كان

(١) راجع منحة ١١٦ فقرة ٧

من الضروري أن يتعاهد الرسول ويتصالح مع بنى قريطة ، لأن في ذلك نقوية لمركزه وتدعيمها لملكاته أمام أعدائه الذين جاموا إليه متحالفين متضادين ..

٧ - الجو .. الجو له أثر كبير على العمليات الحربية .. فلو أن أبوسفيان قدرا لهذا العامل أثره ، لاختار الوقت المناسب ، إلا أنه لم يقدر حق قدره ، وهذا طالت مدة الحصار ، وجاء الشتاء قاسيا ، وجاءت الريح شديدة ، فقلبت أحوال الجو حاليهم وجعلتهم يفرون ، بعد أن وقعت بهم خسائر فادحة ، فالرياح الشديدة ، والمطر الغزير ، والرعد القاصف ، والبرق اللامع ، والخيم التي اقتلت ، والقدور التي كففت ، كل هذا أدخل الرعب إلى نفوسهم واعتقد أبوسفيان وقومه أن المسلمين سيتذرون الفرصة ليعبروا إليهم ، حتى أن طبيعة ابن خوبيل نادى في الناس : « إن محمدأ قد بدأكم بشر فالنجاة النجاة » .

غزوـات بـعـد الـخـنـدق

١ - غزوـة بنـى قـريـطة

كان لا بد للرسول من أن يؤمن نفسه في المدينة من بنى قريطة ، فإن جوارهم لم يصبح مأمونا ، ولا سليم مكفولا ، ولا وعدهم مضمونا ، ولهذا أوحى الله إلى الرسول صديحة جلام الأحزاب أن يغزو بنى قريطة^(١) ورأى الرسول مباغته بنى قريطة قبل أن يستكملوا عذتهم ، ويقولوا حسونهم وأمر الرسول بلا أدنى في الناس : « من كان ساماً مطيناً فلا يصلين العصر إلا في بنى قريطة » .

واجتمع ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين ، وستة وثلاثون فرسا ، وسلم الرسول لواء الجيش إلى علي بن أبي طالب ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ،

(١) عن عائشة قالت أنه لما رجم الرسول يوم الخندق دق الباب فارتفع الرسول وخرج غرمت في أثره فوجده يحادث رجلا على دابة فدارجع سأله عن الرجل قال « إنه جبريل أمرني أن أمضي إلى بنى قريطة » .

ولبس صل أله عليه وسلم السلاح والدرع والمفر والبيضة ، وفقد القوم
وركب فرسه ، وأخذ قاتنه ، وسار والناس من حوله يقول لهم : « إن جبريل
بعث إلى بني قريطة ليزلزل حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم » .^(١)

ولما اقترب الرسول من حصونهم كان القوم لا يزالون على غوايتم فقد
نظروا إلى المسلمين ، ثم سبوا الرسول ونساءه سباقبيحا ، فرأى على أن يبعد
الرسول عنهم ، فاعتراض طريقه وقال : « يا رسول الله لا عليك ألا تندن من
هؤلاء الأخابث ؟ ، إلا أن الرسول تقدم وقال : « يا إخوان القردة هل
أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ ، وقال لهم أسيد بن حضير : « يا أعداء الله
لا تبرحوا حصونكم حتى تموتوا جوعا إنما أنتم بمثل ثعلب في حجر ، واشتد
المصار وقذف الله الرعب في قلوبهم ، فعرض عليهم كبرهم كعب بن أسد ،
ثلاثة حلول : إما أن يؤمنوا بمحمد ، وإما أن يقتلوا نسامهم وأولادهم ويحملوا
سلاحهم ويخرجوا إليه فيما يقضون عليه أو يقضى عليهم ، وإما أن ينزلوا فجة
على محمد وكان اليوم يوم سبت ، ولم يكن هو يتوقع نزولهم في هذا اليوم ، فلما
رفضوا حلوله الثلاثة قال لهم : « ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة
من الدهر حازما » .

ولما طال المصار طالبوا الرسول بأن يرسل إليهم أبا البابا بن عبد المنذر
ليستشيروه في أمرهم وكان حليفهم وصديقهم ، فأذن له النبي ، وذهب إليهم
فقالوه : « أترى أن تنزل على حكم محمد ؟ ، فقال لهم : « نعم إنه النفع » .

وسلم بنو قريطة فأمر الرسول فأوثقوا ، وطلب منهم أن يختاروا أحدهم
يحكم فيهم ، فاختاروا سعد بن معاذ سيد الأولين ، وقالوا له : « يا أبا عمرو إن
رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد : « عليكم بذلك
عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت ؟ ، قالوا : « نعم » ، وقال الرسول أيها :

(١) سأله الرسول أصحابه « هل مر بكم أحد ؟ » قالوا نعم دمية السكري مر على بطة يمساه
وأمرنا بحمل السلاح » فقال لهم الرسول « إنه جبريل »

«نعم، فقال سعد: «إنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الدرارى والنساء» . فقال الرسول: «لقد حكمت فيهم بحكم الله» .

وخرج الرسول إلى سوق المدينة وحرف بها الخنادق وأنى بهم وهو بين ثمانمائة وتسعمائة، وضرب أعناقهم^(١) ، وبلغت الغنائم ألفاً وخمسمائة سيف وثلثمائة درع ، وألف رمح ، وخمسمائة ترس وصحيفة ، وعددًا كبيرًا من الإبل والغنم .

* * *

٢ - غارة على بكر

اجتمع لفيف من الخزرج، وقرروا أن يقتلو زعماء اليهود ، وكان أول من قتل منهم سلام بن أبي الحقيق^(٢) ، ثم أرسل النبي سريعة برئاسة محمد بن مسلمة في ثلاثة راكبا؛ فشنوا غارة على بني بكر بن كلاب ، وكانوا بمكان على مسيرة سبع ليال من المدينة ، وكانوا يضارون الله ورسوله والمسلمين ، فهز متهم السريعة وقتلت منهم عشرة رجال .

* * *

٣ - غزوة بني لحيان

بني لحيان هم قوم غدروا بأصحاب الرجيم ، وقتلوا بعضهم وباعوا اثنين إلى قريش ، هما حبيب بن عدى ، وزيد بن الدئنة ، فقتلوا هما ، وكانا من أصحاب الرسول ، وما كان الرسول ليترك دم أصحابه ، ولهذا خرج على رأس جيش من مائة راكب واستخلف ابن أم مكتوم على المدينة ، وكان يكتم وجهته حتى لا يعرف أعداءه أنه في طريقه إليهم ، إلا أنهم عرفوا برغم التكتم الشديد فهربوا في الجبال .

* * *

(١) عندما جيء بيعلى لياق جزاءه ، نظر إلى الرسول وقال «أما والله ما لم تنسى فعداؤك ولستك من يخذلك أبداً» ثم خاطب قومه «أيها الناس لا يأس بأمر الله» ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ..

(٢) قتل عبد الله بن عتبة

٤ - غزوة ذى قرد^(١)

بعد عودة الرسول من غزوة حرب لبيان ، أغار عبيدة بن حصن في خيل من خطفان على إبل المسلمين ، وكانت ترعى في مكان يسمى الغابة على مسيرة يوم من المدينة ، وكان يرعاها أبوذر الغفارى و معه امرأته وأبنته ، فقتلوا ابنه وسيوا أمرأته . وأخذوا الإبل ، وكان أول من عرف سلطة بن عمرو بن الأكوع الأسللى فأخذ ينادى « وأصحاباه » ثم لحق بالقوم وأخذ يرميهم بالنبال ويناوشهم رغبة في تعطيلهم حتى يصله المدد ، ولما علم الرسول قال : « يا خليل الله أركبى » ، وأرسل طليعة تحت قيادة المقداد بن عمرو لتعقب القوم حتى يلحق بهم الجيش ، وجعل على المدينة سعد بن عبادة ، وعلى الصلاة ابن أم مكتوم ، وسار الجيش ولكنهم لم يلحق بال القوم فعاد إلى المدينة .

* * *

٥ - سرية إلى بني أسد

بعث الرسول سرية إلى بني أسد ، برئاسة عكاشة بن حصن في أربعين راكباً ، فهربوا من منازلهم ، وعاد عكاشة ومعه مائة من الإبل .

* * *

٦ - سرية إلى ذى القصة

علم الرسول أن أعراباً بذى القصة^(٢) ، يعتزمون الإغارة على المدينة ، فأرسل إليهم محمد بن سلطة في عشرة من المسلمين ، فاستشهدوا جميعاً إذ أخذهم أعداؤهم على غرة فأرسل الرسول أبا عبيدة على رأس جيش كبير ، ليقتصر منهم فلما علوا بعدهم هربوا في الجبال .

* * *

٧ - سرية إلى بني سليم

كانت قبيلة بني سليم تضارب المسلمين في تجاراتهم ، فأرسل إليها الرسول زيد

(١) اسم ماء وتشتت أيضاً غزوة الغابة .

(٢) موقع قرب المدينة .

ابن حارثة ، فلما علموا بقدمه هربوا ، وذلتهم امرأة على مكان يختبئ فيه بعض الأعداء ، فقبضوا على عشرة كان زوج المرأة أحدهم فعفا عنه الرسول .

* * *

٨ - سرية إلى بنى كاب

جهز الرسول جيشاً كبيراً بقيادة عبد الرحمن بن عوف لغزو بنى كلب في دومة الجنديل ، فأسلم القوم ودفع من لم يسلم الجزية .

ويجب بعد أن مررتنا هذه العمليات أن نقول إن الرسول قام بها لغرضين : الأول : رغبته في أن يؤمن نفسه وقومه من شر اليهود والقبائل التي كانت ضمن الأحزاب . ولقد نجح الرسول في ذلك نجاحاً كبيراً فقد أخضع جميع القبائل وأصبح آملاً .

والثاني : رغبته في أن تهابه العرب . وأن تدرك قريش أن مكانته قوية ، وأن العرب جميعاً تخشاه وتما به ، وتعمل ألف حساب لقوته التي زادت ورفعته التي اتسعت ونفوذه الذي امتد ، ومركزه الدینی والسياسي الذي أصبح حقيقة واقعة .

بقي أن نقول إن الإسلام وقع في قلب عمرو بن العاص ، إذ أثاره ما يلقاه الرسول من ظفر ، والتقد عمو وبحاله الذي كان قد أجمع أمره على الإسلام وقرر الذهاب إلى النبي ليتبّعه ، فقال له : أين يا أبا سليمان ؟ ، فقال : والله لقد استقام المنسم ^(١) وإن الرجل لنبي ، اذهب والله فأسلم . ، وانطلقوا معاً إلى يثرب مسلمين مهاجرين .

محمد ويهدى بنى خيبر

خيبر مدينة كبيرة ، ذات حصون ومزارع ونخل كثیر ، يسكنها يهود ، وكانت تعداد حصن اليهود بالحجاز ، وأهلها أقوى شकيمة ، وأكثر اليهود مالاً ،

(١) أى وضع الطريق .

وأشدّم عداوة للرسول ولدعوه ، آذروا الأحزاب في حصارها للمدينة ، وأبدوا الكثير من ضروب الغدر والخيانة المسلمين .. لهذا قرر الرسول أن يقضى عليهم ليأمن كيدهم .

ولهذا أمر في السنة السابعة للهجرة بإعداد العدة لغزو خيبر ، واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي ، ودفع رايته إلى علي بن أبي طالب ، وخرج إليهم في ألف وستمائة مقاتل ومائة فارس ، وقطعوا الطريق ما بين خيبر والمدينة في ثلاثة أيام ، حتى أن أهالي خيبر فوجئوا بقوات محمد أمام المدينة غربوا يتضاحكون ، هذا محمد والجيش معه ، وقال الرسول وهو يستمع إلى صيحاتهم « خربت خيبر ، إنما إذا نزلنا بساحة قوم فناء صباح المترzin .. » وبرغم هذا – أى برغم مفاجأة محمد لهم – فإن يهود خيبر كانوا يتوقعون أن يغزوه محمد ، ولما بحثوا الموقف كان هناك رأيان ، الأول : يدعوا إلى تأليف كلية منهم ومن يهودبني القرى وتيهاته تغزو المدينة وتقضى على محمد ، والآخر : يرى الدخول في حلف مع محمد ، إلا أن العداوة بينهم وبين المسلمين كانت على درجة لا تسمح بتنفيذ الرأى الثاني ، ولهذا كان يهود خيبر على اتصال ينطفئان يستعينون بهم على محمد .

كانت خيبر مجموعة من الحصون المنفصلة بعضها عن بعض ، والمنقسمة إلى أقسام ثلاثة : يسمى الأول : حصون النطة ، وهى تتألف من حصن ناعم والصعب وقلة ، والثانى : يسمى الكتبية ، ويتألف من حصن أبي والبرى ، والثالث : يسمى الشق ويتألف من حصن الفموص والوطيع والسلام .

وكان الرسول قد نزل بوادي الرجيم بين خيبر وغطfan ، ليحول بين إمداد غطfan لخيبر في أثناء القتال لأنهم كانوا متحالفين .. وأوهمت غطfan أن الهجوم يتجه إليها ، وأن قوة من المسلمين توشك أن تلتف بها ، وقد حدث غلا أن تحرك غطfan لمعاونة خيبر ضد الرسول ، إلا أنها حين غادرت منازلها ، سمعت من ورائها صوضاء ، فظننت أن المسلمين من ورائها ، فعادت

وخللت بين رسول الله وبين خبر ، وهكذا نجحت خطة الرسول في يهود خيبر عن حلفائهم المشركين .

وقف المسلمون أمام حصن خيبر متأهبين للقتال ، وتضرع الرسول إلى الله بهذا الدعاء « اللهم رب السموات وما أطلان ، ورب الأرض وما أقلن ، ورب الشياطين وما أضلأن ، ورب الرياح وما أذرين ، إنا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها وخير ما فيها ، وننحوذ بك من شرها وشر ما فيها . ثم قال ، أقدموا باسم الله .. »

وكان اليهود يبحثون الموقف ويتشاورون ، فأشار عليهم زعيمهم سلام ابن مشكم ، فأدخلوا أموالهم وعيالهم حصن الوطيط والسلام ، ووضعوا ذخايرهم في حصن ناعم ، ودخل المقاتلون منهم حصن نطة .

وواجه الرسول حصن النطة ؛ فجاءه الحباب بن المنذر وقال « يا رسول الله إنك نزلت منزلك هذا ، فإن كان عن أمر أمرت به ، فلا تتكلم وإن كان هو الرأى تكلمنا » . فقال له الرسول « هو الرأى » . فقال الحباب « يا رسول الله إن أهل النطة ، لى بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مدى منهم ، ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم ، تحول يا رسول الله » .

ونزل الرسول على رأى الحباب ، وتحول إلى حصن ناعم وحاصره سبعة أيام ، وكان يعطي الرأية كل يوم لواحد من كبار الصحابة ، وحدث خلال هذه الأيام السبعة اشتباك عنيف بين الفريقين ، حتى أن كتائب اليهود كشفت من أمامها من المسلمين ، حتى انتهت إلى موقف الرسول فاشتد ذلك عليه وبات مهموما :

وخلال الليلة السابعة من الحصار كان عمر هو رئيس الحراس ، فلأليق القبض على أحد اليهود وأمر بضرب عنقه إلا أن اليهودي طلب منه أن يسهل له لقاء محمد ، وعندما قابل الرسول ، قال اليهودي « إذا أمتمنوني على

حياتي فإني أدل لكم بأخبار أتم في أشد الحاجة إليها وفيها نجاحكم .. إن القوم قد أجدهم الحصار ، وهم يرسلون الأطفال إلى حصن آخر ، إذ قرروا أن يناجروكم غداً ، فإذا فتح الله عليكم هذا الحصن ، فإني أدلكم على بيت فيه منجنين ودبابات وسيوف ودروع ، تعينكم على فتح بقية المحسون ..

وبناء على هذه المعلومات بات الجيش معداً لخوض المعركة وتشاوروا فيما بين يعطى الرأي ويتولى القيادة ، وقال الرسول « ساعطي الرأي رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه » ، وفي الصباح استدعى الرسول « علي بن أبي طالب » ، وأعطاء الرأي وولاه القيادة قائلاً له « خذ هذه الرأي فأمض بها حتى يفتح الله عليك » ، ولما تهياً على للحملة قال له الرسول « يا علي والذى نفسى يده إن معك من لا يخذلك ، هذا جبريل عن يمينك يده سيف لو ضرب به الجبال لقطعها ، فأبشر بالرضوان والجنة يا علي إنك سيد العرب وأنا سيد ولد آدم » ..

سار « علي » على رأس الجيش إلى الحصن ، والتقي الجميع ، وبدأت المبارزة بين الطرفين ، وكان أول من خرج من اليهود حيث أخوه مرحب ، وكان معروفاً بالشجاعة ، فانكشف المسلمين ، ووثب « علي » فتضارباً وتقاتلاً ، فقتله على ، ولما علم بذلك مرحب خرج سريعاً من الحصن ، وقد ليس درعين ، وتقلد سيفين ، ومعه رمح لسانه ثلاثة أسنان ، وأخذ يقول « قد علمت خيراً أنى مرحب .. شاكى السلاح بطل مجرب ... إذا الحروب أقبلت نهب ... (١) ، وبرز له على (٢) وأخذ يقول منشداً ...

(١) قد علمت خيراً أنى مرحب
أنهن أحياها وحينما أضرب
إذا البيوت أطبقت نغرب (تنصب)
إن حمای للعنى لا يقرب بعم عن مولتي المغرب
(٢) جاء في كتاب الحياة العربية من الشعر الجاهلي أن الذى برق هو كعب بن مالك ، وأمه رداً عليه .

قد علمت خيراً أنى كعب
وأنى متى شب المرب
منى حسام كالتفيق عصب
ما من عل المول جرى صلب

أنا الذي سمعتني أمي حيدره^(١)

کلیٹ غابات کریہ المناظر۔

أكيلكم بالسيف كيل السندره

وهيجم مرحبا على «علي»، وضربه فطرح ترسه من بين يده، فتناول على بابا
وجده عند الحصن وترس به عن نفسه وظل يقاتل به، حتى فتح الله عليه
الحصن، ثم ألقاه من يده وراء ظهره. وكان طول الباب ثمانين شبراً ويكال
إن سبعين رجلا لم يستطيعوا تحريره إلا بعد جهد.

وحاصر المسلمون حصون خيبر ، وأحداً وراء آخر ، وأخذوا يرمونها بالحجارة ، وينزعون عنها الزاد والماء ، حتى استولوا عليها جميعاً بالقوة ، ماعداً حصن الوطيط والسلالم ، فإنهما فتحا صلحًا ، وغم المسلمين غنائم كثيرة من ما كل وملابس ، ويقول بعض الصحابة إن المسلمين لم يلعنوا بطونهم من طعام إلا بعد فتح خيبر^(٢) .

كان اليهود في قتالهم أشداء أقوياء لا يناظرون عن أي شبر من الأرض ولا يسلمون حصناً ، إلا بعد أن يدافعوا عنه دفاعاً مجيناً ، وبعد ألا يبقى لديهم قوة يصدون بها المسلمين .. كانوا يغادرون الحصن إلى الحصن الآخر يذودون عنه حتى إذا اضطروا إلى التسلم انتقلوا إلى غيره وهكذا .

عامل الرسول يهود خير بغير ما عامل به بنى قينقاع وبنى النصیر حين أجلامهم عن أرضهم ، لأنه أمن بسقوط خير يأس اليهود ، واطمأن إلى أنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قامة .

(١) حيدرة من أسماء الأسد، سمت بها فاطمة بنت أسد بن هاشم ابنتها علياً ، وأرادت بذلك أن يكون اسم ابنتها كاسم أبيها ، وكان أبو طالب غائباً فلما حضر كرم الإسم وسماه علياً .

(٢) قيل لـ الموثنة عند المسلمين قلت فتوجه بماضهم إلى الرسول يشكوا له أمرها ، ويطلبون ما يسكنون به رقمهم ، فلم يجد شيئاً يعطيهم إباه ، فأذن لهم في أكل لحوم الحيل ، ودعالهم « اللهم اذنك قد عرفت خالقهم وأن ليست بهم فوة وأن ليس بيدي شيء أعطيتهم لإيه الله أفتح أكثر المحسون طعاماً ..

وكان انتصار الرسول على يهود خيرًا أكبر علّي يهود ذلك ، فبعثوا إلى الرسول يصالحونه على النصف من غلة أموالهم قبل منهم ذلك .

وكذلك فعل يهود تيماه فقد رضوا بدفع الجزية .

أما يهود وادي القرى فأبوا أن يستسلموا أو يصالحوا ، فسار إليهم الرسول وحاصرهم ثم قاتلهم وهزمهم وغنم منهم مفاثم كثيرة ، واتهى بهم الأمر إلى قبول الوضع الذي قبله أهل خير ، يزرعون الأرض ويخدمون التخل وطم نصف الغلة .

وبعد أن أنهى الموقف بين الرسول واليهود ، بعث الرسول بعض حلات تأديبية فأرسل عمر بن الخطاب على رأس ثلاثة رجال إلى بعض من هوازن ، ووجه بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة ، ثم وجهه إلى رئيس فزاره ويسمى عينة ، وأرسل غالب بن عبد الله الكلبي من بني ليث إلى بني الملوح بعذيد . وقد وافق فتح خير قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة بعد أن ظلوا بها بضعة عشر عاما ، وقد سر الرسول سروراً كبيراً حتى أنه قال مبتهجاً « وافق ما أدرى بأيهما أفرح ؟ بفتح خير أم بقدوم جعفر » .

غزوة مؤتة

مؤتة مدينة معروفة بالشام ، على مسافة مراحلتين من البيت المقدس ، وقعت الغزوة في العام الثامن للهجرة وفي شهر جمادى الأولى على التحديد ، ولم يشترك فيها الرسول ... كان الرسول قد بعث الحارث بن عمير الأزدي إلى أمير بصرى من جهة هرقل ويسمى الحارث بن أبي شمر الغساني ، فلما نزل مؤتة عرض له شرجيل بن عمرو الغساني وقال له « أين تريد ؟ » فقال « الشام » فعاد يقول « لعلك من رسول محمد » فقال له « نعم » فأمر به فأوثق ثم ضرب عنقه ، ولما علم الرسول حزن على مقتله أشد حزن وقرر أن ينتقم له .

أمر الرسول مولاه زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف وقال «إن قتل زيد فالأمير جعفر بن أبي طالب ، فإن قتل فعبد الله بن رواحة^(١) ، فإن قتل فليرتضى المسلمين رجالاً من بينهم يجعلونه عليهم أميراً» .

وخرج الرسول مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف يودعهم وقال «أوصيكم بتقوى الله وبن معكم من المسلمين خيراً . . اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدوا ولا تغدوا ولا تقتلو وليداً ، ولا امرأة ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منزعلاً بصومعة ولا تقربوا نحيل ، ولا تقطعوا شمراً ولا تهدموا بناء . . .» .

ووصل الجيش العربي إلى معان ، وهناك علم المسلمين أن جيش هرقل قد نزل بأرض البلقاء ، وأن عدد الجيش يبلغ مائة ألف من الروم مع ما انضم إليهم من لخم وجذام وبهرام ، وهؤلاء يبلغون مائة ألف ، وجاء في روایة أخرى أن القوم كانوا مائتي ألف والعرب خمسين ألف ومعهم خيول كثيرة .

(١) زيد بن حارثة أبوه حارثة بن شريحيل ، أمه سعدى بنت نبلة ، اختطفه وهو صغير رجال وباعوه في سوق عكاظ فاشتراه الحكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خوبيل : ٤٠٠ درهم فلما تزوجت من الرسول وهبته له ، ولا علم أبوه أسرع إلى الرسول مع أخيه يستردونه فقال لهم الرسول «ادعوه خفيوه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء وإن اختاروني فواقة ما أنا بالذى اختار على من اختارنى» فلما دعى زيد قال للرسول «ما أنا بالذى اختار عليك أحداً . أنت مني مكانت الأب والأم» ولما سمع منه الرسول ذلك قال «يامن حضر أشهدوا أن زيداً لابن أربه ويرني» وأسلم زيد وهاجر ضمن المهاجرين إلى المدينة وأخى الرسول بينه وبين حزة ، واشتراك في حروب المسلمين في الخندق والمديبية وخider وحنين ، وخرج أميراً لسيج سراياها كانت آخرها مؤنة حيث استشهد .

ووجه بن أبي طالب أبوه أبو طالب عم الرسول وأمه فاطمة بنت أسد ، تربى في كنف عم العباس بن عبد المطلب وأعلن إسلامه ثم هاجر إلى المدينة مع المهاجرين وكان مندوب المسلمين إلى النجاشي ضد وفد قريش بقيادة عمرو بن العاص وعاد إلى المدينة يوم فتح خيبر واستشهد في مؤنة وأما عبد الله بن رواحة فقد جاء مسكة مع وفد من المدينة وأسلم ثم رافق الرسول وشهد بدرا وأحد والمديبية وقد بعض السرايا حق اشتراك في موقعة مؤنة وتردد ثم حارب وقتل ... ويقول ابن اسحاق لأن الرسول قال في ذلك «رأيت فيما يرى النائم قد رفعوا إلى في الجنة على سور من ذهب ورأيت في سرير عبد الله ازووارا عن سرير صاحبيه» فسئل الرسول «لماذا هذا؟» قال «مضياً وتردد عبد الله بعض الردد ثم مضى» .

وتبادل المسلمين الرأى فقال البعض « نكتب إلى رسول الله فنخبره
للتغبير ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضى له .. »

وأنهى الموقف عبد الله بن رواحة إذ خطب فيهم قائلاً « يا قوم واقف إن
التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون ألا وهي الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد
ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا
جذاماً هي إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة .. »

وتشجع الناس وقالوا « صدق ابن رواحة .. »

ومضوا إلى لقاء عدوهم حتى إذا كانوا بخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل ،
والتحم الجيشان في معركة عنيفة لا تعادل فيها بالمرة ، يفوق فيها جيش هرقل
جيش المسلمين كما سبق القول ، وقتل في بداية القتال الأمير الأول زيد بن
حارثة طعناً بالرمح ، فأخذ الراية من بعده جعفر بن أبي طالب ، وقاتل وهو
على فرسه فلما أحلط به أعداؤه نزل عن فرسه وعقرها ، ثم قاتل قتالاً مجدها ،
حتى إذا اشتد القتال أخذ يردد على مسمع من جنوده :

يا حبذا الجنة بواقترابها
طيبة وباردا شرابها
والروم روم قد دناعذابها
كافرة بعيدة أنسابها
على إذ لاقيتها ضر ابها

وافتصر على هامات الروم يطير بها يميناً وشمالاً وخاصة قاده الروم ..
خشى هؤلاء قواتهم وأحاطوا به من كل جانب ، وأخذوا يوقفون سيله ،
ويغلقون سيله إلى داخل صفوفهم ، حتى استطاعوا أن يصييروه بضربة سيف ،
قطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره فأصيبت بضربيه قطعتها ، فحمل اللواء بعندديه
وأخذ يكدر ويهلل ، حتى تسلطت عليه سيف الروم قطعت رجليه ، ثم
شقّلّوت جسده شطرين ، وقتل بعد أن استقرت بفي صدره دون ظهره ثلاثة

وتسعون طعنة كانت كلها في حال الإقبال لا في حال الإبار .

ثم حمل الرأبة من بعده عبد الله بن رواحة ، فتقدم وهو على فرسه ، وكان يتردد بعض التردد^(١) ثم قال مخاطباً نفسه :

أقسمت يا نفس لنزاره
لنزاره أو تكرهه
إن أجل الناس وشدوا الرنه
مالي أراك تكرهين الجنة
قد طالما كنت مطمئنة
هل أنت إلا نطفة في شنة^(٢)
ثم نزل عن فرسه وقاتل بسيفه حتى قتل .

وأخذ الرأبة ثابت بن أقدم العجلاني فقال « يامعشر المسلمين أصطلحوا على رجال منكم » ، قالوا « أنت » ، قال « ما أنا بفاعل » .

وأخيراً أصطلحوا على أن يتولى القيادة خالد بن الوليد ، وذهب إليه ثابت وقال له « أنت أعلم بالقتال مني .. »

وتولى خالد القيادة وحارب حرباً لا هواة فيها ، حتى قيل أن تسعه أسياف اندقت في يده ، ولما تهاجم القوم ليلاً ، أعاد تنظيم جيشه ، فجعل الميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة ، والمسافة مقدمة ، والمقدمة ساقفة ، حتى ظن الروم أن مددًا جديداً وصل المسلمين وحارب خالد في همة وقوة ، وكان في ذات

(١) راجع هامش صفحه ١٩٩ وصفحة ٢٠٠ .

(٢) فرواية أخرى ياقس ان لا تقتل تونى

هذا حام الموت قد صليت
وما ثبتت فقد أعطيت
ان تفعل فعلهما هديث

الوقت ، ينسحب بقواته إلى قرية مؤته وظل يناوش الروم سبعة أيام حتى تم الانسحاب ، وعاد بقواته إلى المدينة^(١) .

ولموقعه مؤته آثار كثيرة منها :

١ - أن القبائل العربية المتاخمة للشام وللعراق ، لم تكن عن قرب بسالة المسلمين وشجاعتهم في الحرب واستماتتهم في القتال واستشهادهم بروح عالية لا مثيل لها وبإيمان عجيب يسيطر على نفوسهم ، وكان هذا كله سبباً في دخول الكثيرين في الإسلام ، حتى أن قائدًا لإحدى فرق الروم ويسى فروة ابن عمرو الجذامي أعلن إسلامه ، فقبض عليه هرقل ووادره بالعفو وبإعادته إلى قيادته إن ارتد عن الإسلام ، فلما أبى قتله .

ودخل في الإسلام كثير من سليم على رأسهم العباس بن مرداس ، وكذلك كثيرون من أشجع وغطfan وعبس وذيان وفزانة ، وبذلك اشتد الأمر للمسلمين في شمال المدينة حتى حدود الشام ، وازداد الإسلام عزة وقوة ومنعة .

٢ - رأت قريش أن في عودة المسلمين من مؤته انهزاماً لـم ، ولهذا قررت أن تنقض عهودها مع المسلمين .. فإن عهد الحدبية قضى أن من شاء الدخول في عقد محمد فليدخل ، ومن شاء الدخول في عقد قريش فليدخل ، ونتيجة لذلك دخلت خزاعة في عهد محمد ودخلت بنو بكر في عهد قريش ، وكان بين الاثنين ثأر وعداء ، وبمقتضى عهد الحدبية حدأت الحالة بينهما .. ولكن هزيمة المسلمين في مؤته كاصورها القرشيون ، جعلت بنو بكر تنقض العهد وتهاجم خزاعة ، فأسرع عمرو بن سالم الخزاعي إلى الرسول ينبهه بنقض العهد ، فقال له الرسول « نصرت يا عمرو بن سالم » ، ورأى الرسول في اعتداء

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله نهى زيداً وجثراً وابن رواحة الناس قبل أن يأبهم خبر فقال « أخذ الرأبة زيد فأصيب ، ثم أخذها جفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ثم أخذ الرأبة سيفاً من سيفون الله حتى فتح الله عليهم »

بني بكر نفعناً من جانب قريش للعهد ، ولهذا قرر أن يعد العدة لهاجم
قرشاً في داخل مكة ، وبدأ يستعد للحرب القادمة ... للحرب الكبرى
المقبلة ... للغزوة العظيمة ... غزوة الفتح .

عملية ضد قضاعة

١ - العملية الأولى بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، فقد علم الرسول
أن قبيلة قضاعة النازلة على ساحل البحر تعد لحرب المسلمين ، فجهز جيشاً من
ثلاثة مقاتل كاف لهم عمر بن الخطاب ، وزودهم الرسول بجراب به تمر يأكلونه
في أثناء تحركاتهم ، وأشرف القائد أبو عبيدة بنفسه على تموين القوات ،
حتى إذا أوشك التمر على الفراغ أخذ يعطي كل محارب تمرة واحدة في اليوم
وقيل لأحدهم «كيف كنتم تصنعون؟» ، فقال «نصها كامص الصبي الثدي ،
ثم نشرب عليها الماء فتشفينا يومنا إلى الليل» .

وبعد أن انتهى التمر أكل الجيش ورق الشجر ، ثم أرسل الله عليهم حوتاً
ضخماً يبلغ طوله خمسين ذراعاً ، فأكلوا منه وشعروا عشرين يوماً ، وكانت
هذه الغزوة في شهر رجب ولم يذكر أن هذه السرية قاتلت أحداً .

٢ - العملية الثانية^(١) بقيادة عمرو بن العاص^(٢) على رأس ثلاثة رجال
وكانت الغزوة في شهر جادى الآخرة ... سار عمرو بقواته ، حتى بلغ ماء
بأرض جذام يسمى السلسل ، وبلغه أن العدو ذو عدد كبير ، فأرسل يطلب
المدد من الرسول ، فأمده بما ترى رجل فيهم أبو بكر وعمر ، وعلى رأسهم
أبو عبيدة بن الجراح^(٣) ، ومضى الجيش تحت قيادة موحدة بزعامة عمرو بن
العاص ، والتزم مع العدو ، وانتصر المسلمون .

(١) تسمى ذات السلاصل .

(٢) اختبر عمرو بالذات هذه الغزوة لأن جدته قضاعبة وأراد الرسول أن يرسل إلى الأعداء
إبن أختهم فيقاتلهم .

(٣) أراد أبو عبيدة أن يوم الناس فرض عدو قاتلا «إنما قدمت على مدد وأنا الأمرير
ولا لمارة بك حتى توم الناس» ، فقال أبو عبيدة «لا ، أنا على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه
نم عاد أبو عبيدة يقول «يا عمرو إن رسول الله قال لي لا تختلفا ، ولذلك ان عصيتي أطمعتك» .

ومنع عمرو المسلمين من اقتقاء أثر العدو ، خوفاً أن تكون هزيمتهم إحدى مكابد الحرب ، كما منعهم من إيقاد نار ، واعتراض عمر إلا أن أبا بكر قال له : « إن رسول الله اختاره رئيساً علينا لمعرفته بالحرب أكثر منا » ، وكان عمرو قد هدد جنده « لا يوقد أحد ناراً إلا قذفه فيها » ، ولما عاد الجيش اشتكي الجندي إلى الرسول فسألته الرسول عن سبب عدم مطاردة العدو وعدم الإذن لرجاله بإيقاد النار فقال : « كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد » .

الدروس المستفادة من العمليات بعد المحنق

١ - سلامة الدولة الإسلامية المبدئية كانت غاية هامة من وجهة نظر الرسول ، فإن دعوته قامت وسط مجموعة من الأديان التي كانت ترى في قوة دعوته وانتشار دينه الجديد خطرًا كبيرًا عليها ، وهذا كانت تعمل جاهدة على إضعاف شأن الدعوة وعلى القضاء على الرسول وعلى مؤيديه ومعتنق دينه وهذا كان من أهم ما ألقى على عاتق الرسول القضاء على شوكه هؤلاء ، لأن في القضاء عليهم وإضعافهم تقوية لمركزه وتدعمها لدعوته . . . وإن معتنق هذه الأديان كانوا يتضامنون جميعاً في سبيل مصلحتهم المشتركة ضد محمد ودعوته وهذا أسرع الرسول فقضى على اليهود ، حتى إذا ما أحسن بخطر المقيمين منهم في خير ، قضى عليهم ليأمن خطرهم .

وإذا تحدثنا عن سلامة الدولة فسلامة الجيش ضرورية ولازمة ، ويجب على القائد أن يعمل جاهداً في سبيل تحقيقها ، وفي سبيل المحافظة على قواته المسلحة ، خلال العمليات ، حتى تقل الخسائر سواه في الأرواح أو في العدة أو في العتاد ، وهو ذا عمرو بن العاص يأمر قواته بعدم إشعال النار ، وأغضبهم منه ذلك الأمر فلما شـَكوه إلى الرسول قال القائد العبقري الحكيم « كرهت لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم » . وأيده في ذلك الرسول .

٢ - المفاجأة من ألم أسلحة الحرب ، فقد تلاحظ أن يهود بنى خير

فوجئوا بوجود قوات محمد أمامهم ، حتى أنهم ذهلاً وظلوا يتصلبون : « هذا محمد والجيش معه » .

و تلاحظ أن بشير بن سعد في سيره إلى جماعة من بنى عطفان كان يسير ليلاً ويكتن نهاراً ، وهذا السلوك دليل واضح على مخاوفة القائد على مواجهة قوات عدوه ، فهو يسير ليلاً حتى لا يشعر بحر كاته مخلوق ويكتن نهاراً حتى يختفي عن أعين الرقباء .

وفي سيرة غالب بن عبد الله الكابي أمهل بنى الملاح حتى ناموا ، ثم هاجهم وقتل منهم كثيرين .

٣ - كانت الشورى من أهم الأسباب في اختيار الخطة الصالحة لهذه العمليات وكما سبق القول كان الرسول يهتم بالشورى كل الاهتمام فهو حينما واجه حصون النطأة نصحه الحباب أن يغير وجهته ودليل على ذلك بأسباب ومبررات عسكرية وجيهة قبلها الرسول وآمن بصحتها وعمل بها ، حتى أنه غير وجهته إلى حصن ناعم .

٤ - من أهم الأسباب التي تسهل عملية الهجوم الحصول على معلومات وافية عن العدو ، ففي غزوة خيبر وقع عمر على يهودي ، فأخذنه إلى الرسول الذي استجوبه ووقف منه على معلومات هامة عن عدوه ، تمكّن بسببها من إعداد خطة إعداداً سليماً أدى إلى قهر يهود بنى خيبر .

٥ - الإعاقة في الميدان من الأمور الجوهرية الحامة ، فقد ذهب كثيرون إلى النبي يشكون إليه قلة المثنونة في أثناء حصار خيبر ، فلم يجد عنده شيئاً فأمرهم بأكل لحوم الخيل ودعا قائلاً : « اللهم إملك قد عرفت حالم ، وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه ... اللهم افتح أكثر الحصون طعاماً » .

وفي غزوة قضاعة كان أبو عبيدة يتولى بنفسه شؤون الإعاقة حتى أنه كان يوزع التمر بنفسه على المقاتلين ، فلما نفذ التمر أذن لهم أن يأكلوا ورقة الشجر ، حتى عثروا على حوت ضخم فأكلوا منه وشعروا بعدة عشرين يوماً .

٦ - الشجاعة ضرورية في الميدان ، فهي التي تؤيد السلاح في المصول على النصر ، وفي غزوة مؤتة دليل كبير على شجاعة القادة الثلاثة الذين استشهدوا في هذه الغزوة .

و شجاعة على تبدو في محاربة مرحباً اليهود ، فهو حيناً فقد سيفه خلال المبارزة حل باباً كبيراً ، كانوا قد نزعوه من مكانه ، ثم قاتل به ، وأحرز النصر لقواته .

٧ - توحيد القيادة من أهم الأمور في العمليات ، فعند خروج المسلمين لغزوة مؤتة ، عين الرسول زيد بن حارثة قائداً للقوة ، ثم رتب من بعده القيادة إذا استشهد ، فجعل جعفراً من بعده قائداً للجيش ، ثم جعل من بعده عبد الله بن رواحة ، ثم أمر الجيش بعد ذلك باختيار من يخلف عبد الله .

وفي العمليات ضد قبضة طالب عمرو الرسول بعد ، فأمده بجيش يقوده أبو عبيدة ، وحاول أبو عبيدة أن يتولى القيادة كائناً ، أو أن يتولى قيادة المهد وحده ويتولى عمرو قيادة الجيش الذي سار به ، إلا أن عمرو أرفض ذلك عملاً بحكمة توحيد القيادة في شخص واحد ، واقتنع أبو عبيدة بوجهة نظر عمرو وعمل تحت قيادته كجندي

وما يسترعى النظر ويستحق التقدير . أن عمراً وأبا بكر كانوا ضمن المدد الذي أرسله النبي إلى عمرو ، فلم يفكر واحد منهم في أن يتولى القيادة ، رغم كاتتها المعروفة ، وبرغم علم ما يفتون الحرب ، بل قبل أن يعملا جنديين بسيطين تحت إمرة عمرو وقبل أن ينفذوا أوامره ، بل وأقروا أبو عبيدة بأن ي عمل هو الآخر تحت قيادة عمرو جندياً مخلصاً لآوامره وقال أبو بكر في ذلك إن رسول الله قد اختاره رئيساً علينا لعرفته بالحرب .

٨ - ليس الانسحاب معناه الانهزام ، فالانسحاب قد يكون لغرض أكثر سمواً من الهزيمة أو الفرار من وجه العدو ، خالد عندما انسحب بقواته في مؤتة إنما انسحب لغرض نيل هو حماية الجيش من الفناء أمام قوات تفوقه سبع

مرات أو أكثر في العدد والعدة ، وعملية الانسحاب ذاتها في حاجة إلى مرونة وإلى مقدرة حتى يتم الانسحاب دون خسارة في الأرواح أو العتاد ، وقد نجح خالد بن جراح ببعدها في إتمام العملية دون خسائر فادحة .

٩ — معاملة الأعداء بعد هزيمتهم أمر في حاجة إلى سياسة وكياسة ، وبعد هزيمة يهود بنى خير لم يشأ الرسول أن يعاملهم ذات المعاملة التي عمل بها يهود بنى قينقاع وبني النضير ، فهو لاء أمرهم الرسول بالجلام عن أرضهم ، أما يهود بنى خير فقد أمر الرسول بيقاومهم حيث هم على أن يعملوا في الأرض ..

وكان هذا هو شأن الرسول مع يهود فدك ، فقد صالحهم على النصف من غلة أموالهم ، وكذلك وافق يهود بيته على دفع الجزية ، أما يهود وادي القرى فقد أتوا ما دعاهما إليه الرسول . خاربهم حتى أخضعهم ، ووافقو على أن يزروا الأرض وينتموا النخل و لهم نصف الغلة ، وما لاشك فيه أن الرسول قد كسب بذلك كثيراً ، فهو لاء يزرعون الأرض فيوفرون له الأيدي التي يحتاج إليها في جهاده الأكبر لنشر الدعوة الإسلامية وتأكيدها في الجزيرة العربية .

ومن أهم أوجه معاملة الأعداء ما يتضح في الرسالة الحالدة التي وجهها الرسول إلى زيد بن حارثة حينها سار إلى مؤنته ، فقد نهاه عن قتل النساء والأطفال والشيوخ والمريض والعجائز والمتعبدين ؛ كما أمرهم بعدم قطع النخل والشجر ، وبعدم هدم الأبنية والدور ..

كانت هذه الروح الطيبة الكريمة من جانب الرسول في معاملة الأعداء وفي معاملة غير المقاتلين في الميدان سياسة حكيمة من رسول الله وتهذيبها واضحاً لفكرة الحرب .

غَزَّالَاتُ الرَّسُول

(٤)

- غَزَّوْةُ الْفَتْح
- غَزَّوْةُ حَنْيَنْ
- غَزَّوْةُ الْطَّائِف
- غَزَّوْةُ تَبُوك

غزوَةُ الفتح

أسبابُ الغزوَةِ

قلنا إن قريشاً قد عقدت صلحًا مع الرسول هو صلح الحديبة ، وكانت عدته سنتين ، وقلنا أيضاً إن هذا الصلح كان ينص على أن من يرغب في الدخول في عهد محمد فليدخل ، ومن يرغب في الدخول في عهد قريش فليدخل ، وقلنا أيضاً إن خزاعة دخلت في عهد رسول الله ، وأن بكرًا قد دخلت في عهد قريش ، وقلنا إنه كانت بين القبيلتين حروب ومنازعات مستمرة سكنت وهدأت بعد عقد الصلح بين قريش و محمد .

وبعد عودة المسلمين من مؤتة ، رأت بكر في عودتهم هزيمة لهم وخذلاناً ، فقررت أن تحرش بخزاعة ، فبعثت برجل يهجو الرسول على مسمع من أحد الخزاعيين ، فضرر به هذا وشجه ، فثار الشر بين القبيلتين ، وطلبت بنو بكر من قريش إمدادها بالرجال والسلاح فأمدتهم ، ووقع بينهما القتال ، واشترك فيه من قريش عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وحوى طب بن عبد العزي وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو .

ولجأت خزاعة إلى البيت الحرام بعد ما أصابها من فقد ثلاثة وعشرين من رجالها ، فلم تجرها قريش ولم تحمها ، برغم زعمها أنها تحمى البيت ، وأن لها حق حماية كل لاجئ إليه ، وصاح نوقل بن معاوية رئيس بنى بكر في قومه « لا إله إلا يوم يا بنى بكر ... أصيروا ثاركم ... »

وأسرع عمرو بن سالم من خزاعة إلى الرسول في أربعين راكباً فيهم بديل ابن ورقاء ، ووجد الرسول في المسجد فوقف يناديه :

يا رب إني ناشد محدا حلف أيمه وأبينا الآتلدا^(١)
قد كتتم ولدا وكنا والدا ثمة أسلمنا فلم نزع يدا^(٢)

(١) القديم .

(٢) يقصد أن بنى عبد مناف أهمهم من خزاعة .

وارع عباد الله يأتوا مددًا
 أيضر مثل البدر تسمو صعدا
 في فلق كالبحر يجرى مزددا
 ونقضوا ميثاقك المؤكدا
 وزعموا أن لست أدعوا أحدا
 هم يبتونا بالوثير^(٨) مجدًا
 فانصر هداك الله نصراً أعيدا^(٩)
 خالق هداك الله نصراً أعتدا^(١)
 خيم رسول الله قد تجردا^(٢)
 إإن سيم^(٣) خسفاً^(٤) وجهه تربدا^(٥)
 إن قريشاً أخلفوك الموعدا
 وجعلوا لي من كداء^(٦) رصدًا^(٧)
 وهم أذل وأقل عددا
 وقتلوا ركماً وسبداً
 خلها سمع منه الرسول ذلك قال «نصرت يا عمرو بن سالم»^(١٠) ..

مفاصدات من أجل الصلح

ادركت قريش ما جرته على نفسها من شر بسبب نقضها عهد الرسول ،
 بما أعلنت به بكرأ على خزانة ، وعلمت أن الرسول سيعرف بهذا النقض ،
 خاجتمع رجالها وتشاوروا وقرروا إيفاد بعثة إلى الرسول ، يكون لها غرضان :
 تأكيد العهد^(١١) ، وإطالة مده ، وعهد بهذه المهمة إلى أبي سفيان ، فلما وصل
 إلى موضع على مرحلتين من مكة يدعى عسفان ، لقي بدبل بن ورقه من بنى
 خزانة عائداً من المدينة فسأله «من أين أنت قادم يا بدبل؟» ، قال «من

(١) حاضرا

(٢) نهياً للعرب .

(٣) كلف خطة لا يرضيها

(٤) ذلا

(٥) أى ثقب لون وجهه إلى السواد

(٦) موضع أعلى مكة .

(٧) رقبياً .

(٨) مكان أسفل مكة .

(٩) شديدة .

(١٠) في رواية أخرى قال الرسول «لانصرت إن لم أنصركم بما أنسركم به قسى» ،
 وفي رواية ثالثة «والله قسى بيده لأمنهم مما أمن من قسى وأجل بيته» .

(١١) عهد الحديبية

زيارة لخزاعة على الساحل ، فعاد يسأله «أو ما جئت محمداً؟» ، قال «لا» ، ولما انصرف عرف أبو سفيان أنه جاء محمدًا إذ وجد في مكان رحالة النوى مختلطًا بروث الإبل ، وهذا قرر ألا يلقى محمدًا ، وجعل وجهته بيت ابنته أم حبيبة زوج الرسول .

ولما أسمات ابنته^(١) استقباله توجه إلى الرسول وتحدث إليه في العهد وإطالة مدته ، فلم يرد عليه بشيء^(٢) ، فكلم أبا بكر ليكلم له النبي فأبى ، فلما اتجه إلى عمر أغاظله القول «أنا أشفع لكم إلى رسول الله» ، فوالله لو لم أجده إلا الذر «جاهدتكم به» ، واتجه أبو سفيان إلى علي ، فأبلغه أن أحدًا لا يستطيع أن يرد الرسول عن أمر قوله ، وكانت فاطمة زوجة فاستشعفها أن يغير ابنتها الحسن بين الناس ، فقالت له «ما يغير أحد على رسول الله» .

ولما أدرك أبو سفيان أنه قد أخفق نصح له على «قم فأجر بين الناس» ، ثم الحق بأرضك ، وما أغلن ذلك مغنياً ، ولكنني لا أجده لك غيره» ، فتوجه أبو سفيان إلى المسجد وأعلن أنه أجار بين الناس ، ثم ركب راحته وعاد إلى مكة والألم ملء نفسه لما لقي من هوان على يد ابنته ، وعلى يد من كانوا يحملونه بل ويتجفون منه ، حتى إذا ما وصل إلى مكة وقص على أهلها ماحدث لم يصدقوا أنه كان جاداً في تحقيق مطلبهم ، بل اتهموه بأنه خالف رسالتهم ، وأنه تابع الرسول على دينه وقالوا له «ويلك» ، وآفة ما زاد الرجل على أن لعب بك» .

فشل محارلة كشف أسرار الغزوة

أمر الرسول بتجهيز الحملة إلى مكة ، وقرر أن توضع خطة الاستيلاء على مكة على أساس عدم إراقة دماء ، وهذا اعتمدت الخطة على المفاجأة ، أي مباغتة القوم ، بما لا يجدون له دفأً فيسلمون دون إراقة الدماء .

(١) عندما ذهب أبو سفيان إلى بيت ابنته أراد أن يجلس على فراش الرسول فطلبه أم حبيبة ولما سألها «بابنتي ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟» فقالت «بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشعر بمحنة ولا أحب أن تخجلني عليه» .

(٢) قبل أن الرسول سأله أبو سفيان «هل كان من حدث؟» فأجاب «لا» ، فقال له الرسول «فنحن على مديتنا وصلحتنا» .

وبلغ من حرص الرسول على إخفاء تحركاته إلى مكة أنه دعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى لا تعرف شيئاً عن تحركه « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها ^(١) »، كما أمر الرسول بحراسة الطرق إلى مكة ، والقبض على كل من يتربّط فيه ، وكان عمر هو الذي يتول الحراسة وكان يقول « لا تدعوا أحداً يمر بكم إلا ردّتموه .. »

وحدث أن كتب حاطب بن أبي بلتعة – وهو أحد المسلمين الذين شهدوا بدرًا – خطاباً إلى قريش ^(٢) ينبيئها باعتزام الرسول مهاجمتهم . وأعطى الكتاب لا مرأة تسمى سارة ، استأجرها بعشرة دنانير ، وقال لها أخفِيه ما استطعت ، ولا تعرِّي على الطريق ، فإن عايه حرساً ..

وعلم الرسول بالخبر ، فبعث علياً والزبير والمقداد بن الأسود ورآها ، وقال لهم « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة منها كتاب من حاطب ابن أبي بلتعة إلى المشركين نفذوه منها .. »، وانطلقوا ورآها حتى قبضوا عليها ، و قالوا لها « اخرجي الكتاب »، فقالت « ما معك كتاب » ، فقالوا « ما كتب رسول الله لخروجك الكتاب أو إنلقين عنك الثياب .. » ^(٣)

وإذاء هذا التهديد قالت المرأة لعلى « أعرض »، ثم حلّت شعرها ، وأخرجت الكتاب ، فذهبوا بها إلى رسول الله الذي اطلع على الكتاب فإذا فيه « إن رسول الله جامكم بجيش عظيم يسير كالسيل ». فوافقه لو جامكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده فاظروا أنفسكم ، وقيل في رواية أخرى « إن الرسول قد أذن في الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحبت أن تكون لي عندكم بدء ». فدعا الرسول حاطباً وسأله عن الدافع لإرساله هذا الكتاب قال

(١) وفي رواية أخرى « اللهم خذ على اسمائهم وأسمارهم فلا يروننا إلا بتنة ولا يسمون بنا إلا فتنة » ..

(٢) كان الكتاب موجهاً إلى سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية ومكرمة بن أبي جهل ..

(٣) وفي رواية أخرى « أو لكشفك ولضر بن عتفك .. »

« يَارَسُولَ اللَّهِ ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا غَيْرُهُ وَلَا بَدْلُ ، وَلَكِنِي
كَنْتُ أَمْرًا لِلَّذِينَ لَهُ فِي الْقَوْمِ مِنْ أَهْلِ وَعِشِيرَةٍ ، وَكَانَ لِي بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ وَلِدًا وَأَهْلِ
فَصَانِعِهِمْ عَلَيْهِمْ » ، وَثَارَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِإِجَابَةِ حَاطِبٍ وَقَالَ لِلرَّسُولِ « دُعِنِي
يَارَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عَنْقَهُ فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ نَافَقَ » ، فَرَدَهُ الرَّسُولُ رَدًا جَيِّلًا
« وَمَا يَدْرِيكَ يَاعُسْرَ لَعْلَ اللَّهُ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَحْصَابِ بَدْرٍ يَوْمَ بَدرٍ فَقَالَ أَعْلَمُوا
مَا شَتَّمْ قَدْ غَفَرْتْ لَكُمْ » ، وَهُنَا نَزَّلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوّي وَعَدُوّكُمْ أَوْلَاءَ تُلْقُونَ
إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ » ^(١).

وَهَكُذا أَخْفَقْتُ الْمَحاوِلَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي بَذَلْتُ لِتَوْصِيلِ الْأَخْبَارِ عَنِ الْحَلَةِ
إِلَى قَرِيشٍ ، وَهَذَا دَلِيلٌ كَبِيرٌ عَلَى مَدِي الْاَهْنَامِ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ الَّتِي حَفَقَتْ
السَّرِيَّةُ فِي الْعَمَلِيَّاتِ وَأَكَدَتِ الْكَتْهَانَ فِي التَّحْرِكَاتِ ، مَا جَعَلَ قَرِيشًا فِي
ذُهُولٍ عَنْدَ مَا عَلِمَتْ بِمَقْدِمَةِ مُحَمَّدٍ ، وَبِطَرْقَةِ أَبْوَابِ مَكَّةَ يَطْلُبُ مِنْهَا التَّسْلِيمَ
وَالْاسْتِسْلَامَ .

التَّحْرِكُ

بَعْثَ الرَّسُولِ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْعَرَبِ (مِثْلُ أَشْجَعَ وَغَفارَ وَسَلِيمَ) وَطَلْبَ اِنْضِمَامِهِمْ إِلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَالَ « مَنْ كَانَ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلِيَحْضُرْ رَمَضَانَ بِالْمَدِينَةِ » ، وَقَدْفَقَتِ الْجَمْعَ عَلَى الْمَدِينَةِ ، وَبَلَغَ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ بِقِيَادَةِ الرَّسُولِ عَشْرَةَ آلَافَ ، وَقِيلَ فِي رَوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ عَشْرَ آلَافًا مِنَ الْمَاهِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَسْلَمَ وَغَفارَ وَمَزِينَةَ وَجَهِينَةَ وَأَشْجَعَ وَسَلِيمَ وَغَطْفَانَ .

وَبَدَأَ الْجَيْشُ التَّحْرِكَ فِي الْلَّيْلَةِ الْعَاشِرَةِ مِنْ رَمَضَانَ فِي السَّنَةِ الْثَّامِنَةِ لِلْهِجَرَةِ
بَعْدَ أَنْ اسْتَخْلَفَ الرَّسُولُ عَلَى الْمَدِينَةِ أَبْنَ أَبِي مَكْتُومَ ، وَصَحْبَ الرَّسُولِ مَعَهُ مِنْ
زَوْجَانِهِ أَمْ سَلِيْمَةَ وَمِيمُونَةَ .

(١) سورة المتعنة ١

وعلم بعض من أهل مكة بخروج الرسول فرجوا من مكة للقاءه ..
خرج عم النبي العباس بن عبد المطلب^(١) ولقي الرسول في الجحضة^(٢) .. ولقي
الرسول أيضاً في الطريق أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن عمّة الرسول
وأخاه في الرضاعة من حامية السعدية ، وكان معه ابنه جعفر .. ولقي الرسول
أيضاً عبد الله بن أبي أمية ، وكان اللقاء في الأبواء ، وكان الاثنين أشد الناس
عداوة للرسول ، وكان يلقى منها الشدة والأذى والجفوة^(٣) .

الحرب الباردة

فلنا إن الرسول كان يبغى دخول مكة دون قتال أو إراقة دماء ، وكان يود
من صميم قلبه أن تظل مكة حراماً ، ولهذا دعا عمه العباس ، وطلب منه أن
يكون سفير الله ، يلقي في قلوب القوم من قريش الرعب والخوف .

وخرج العباس على بعلة الرسول البيضاء ، حتى جاء ناجحة الأراك ، وأخذ
يبحث عن نفر يبلغ قريشاً بمكان الرسول ، وينبئهم بقوته التي سار بها إليهم ،
ليستطيعوا تدارك الأمر ، بطلب الأمان قبل أن يدخل مكة عنوة .

وكان الرسول قد نزل بجيشه من الظهران : وهو مكان على بعد يسير من
مكة ، وأمر الجيش بإيقاد نيران كثيرة في الليل ، ليرهب قريشاً ، فأضاعت
نيران المسلمين الوديان والجبال ، حتى أصبح المنظر رهيباً مرعياً .

(١) قبل ان يلقي العباس عم الرسول أسلم قبل ثأر الرسول لغزو مكة . ولكنه ثُلث يكتم أمر
إسلامه بأمر الرسول ، حتى يبقى في مكة فيبعث إليه بأخبار قريش .
(٢) موقع على بعد أربعة فراسخ من مكة .

(٣) لما جاء إلى الرسول استأذنت أم سلمة الرسول ليدخله عليه فقال « لا حاجة لي بها ،
أما ابن عمّي فقد هتك عرضي وأما ابن عمّي وصهرى فهو الذي قال ما قال عمه (واق
لا آمنت بك حق تأخذ سلاماً إلى السماء فترج فيه وأنا انظر ثم تأتي بصك وأربعة من اللاءات
يشهدون أن الله أرسلك) » فقللت لها أم سلمة ما قاله الرسول فقام أبو سفيان وقال « يا أبا
للي أو لا تخذن بيد ابني ولذعنين في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . » فلما بلغ ذلك الرسول
غير لها ورق ثم دعاهما فدخلها عليه وأسلماً وقال لها الرسول « لا تثريب عليكم اليوم ، ينفر افة
لكم وهو أرحم الراحمين » .

وشعرت قريش في ذات الوقت بالخطر الذي يتهددها ، فبعثت أبو سفيان ابن حرب ، وبديل بن ورقاء ، وحكيم بن حزام ، يستطلعون الأمر ويتسمون الأخبار .. وبينما العباس يسير على البغة سمع حدثاً بين أبي سفيان وبديل ..

أبو سفيان — ما رأيت كالليلة ناراً قط ولا عسكراً .

بديل — هذه والله خزاعة حمّشتها الحرب .

أبو سفيان — خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسركاً .

ونادى العباس أبو سفيان . فلما استجاب هذا لنداء العباس قال له « ويحك يا أبو سفيان ! هذا رسول الله في الناس ، وأصبح قريش إذا دخل مكة عنوة ، فقال له أبو سفيان ، وما الحيلة فداك أبي وأمى ؟ ... فأخذ العباس وسر به بين جنود جيش المسلمين ، وقد أوتدوا النار ، فلما مر بنار عمر وعلم — أى عمر — أن العباس يريد أن يجبر أبو سفيان أسرع إلى الرسول وطلب أن يضرب عنقه « يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير هقد ولا عهد فدعني فلا ضرب عنقه » . فقال العباس « إني يا رسول الله قد أجرته » .

ودار حديث بين الرسول وبين أبي سفيان ...

الرسول — ويحك يا أبو سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

أبو سفيان — بأبي أنت وأمي ما أحملك وأكرملك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد .

الرسول — ويحك يا أبو سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم إني رسول الله ؟

أبو سفيان — بأبي أنت وأمي ما أحملك وأكرملك وأوصلك ، أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً .

وتدخل العباس وطلب من أبي سفيان أن يعلن إسلامه فأسلم^(١) ، وقال

(١) روى ابن حسان عن عبد الله بن أبي بكر قال « خرج رسول الله وأبو سفيان جالس في المسجد فقال أبو سفيان في نفسه « ما أدرى بم يفانيا محمد » فأناه صلى الله عليه وسلم فضرب صدره وقال « باقة نقلبك » فقال « أشهد أنك رسول الله » .

للعباس للرسول « يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئاً ». فأجاب الرسول « نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن .. » ثم أمر الرسول العباس أن يأخذ أبا سفيان حتى تخطم الجبل ^(١) حيث تمر به جنود المسلمين ، ومرت القبائل من أمامه ، ثم مر الرسول في كتيبة الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار ، فسأل أبو سفيان العباس « سبحان الله يا عباس ! من هزلاه ؟ قال العباس « هنا رسول الله في المهاجرين والأنصار » ، فلم يتمالك أن صاح قاتلا للعباس « مالاحد هزلاه قبل ولا طاقة ، واقه يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً » ، فقال له العباس « إنها النبوة ، فرد عليه « نعم هي إذن » ..

وأسرع أبو سفيان إلى قريش يقول لهم « يا معاشر قريش هذا محمد قد جامكم على الأقبل لكم به فمن دخل داري فهو آمن » ..

وثارت زوجته هند بنت عتبة ، وصاحت في القوم أن اقتلوه ، فقال لهم « ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جامكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل داري فهو آمن » ..

فقالوا له « قاتل الله وما تقني عنا دارك » ، ١١١

فقال « ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن » ..

ونزلت كلامه على الناس كالصواعق فأسرعوا هاربين إلى دورهم ، وأسرع البعض إلى المسجد ، ووهنت روح الحرب عندم ، وتملأكم الخوف وأصبحوا يدركون أنه لا قبل لهم بمحمد ، وأنه سيدخل مكة شاموا أم رفضوا ... سلوا أم قاتلوا ...

(١) مكان ييزد منه الجبل فيضيق الطريق .

ونجحت خطة محمد في تحطيم أعدائه وروحم المعنوية قبل العمليات.
الحرية .

خطة الغزو

وصل الجيش الإسلامي الزاحف إلى مكة ذي مطوي ، وهناك أصدر
الرسول أمره ، بتقسيم الجيش إلى فرق أربع ، وأمر الفرق كالماء ألا تقاتل
وألا تسفك دمآ إلا إذا أكرهت على ذلك . ووضعت خطة دخول مكة كالتالي:

(١) الجناح الأيسر .

يقوده الزبير بن العولام ، ويدخل مكة من شمالها .

(ب) الجناح الأيمن .

يقوده خالد بن الوليد ، ويدخل مكة من أسفلها .

(ح) جماعة الأنصار .

يقودها سعد بن عبادة ، وتدخل مكة من جانبها الغربي (١) .

(د) جماعة المهاجرين

يقودها أبو عبيدة بن الجراح ، وتدخل مكة من أعلىها بجذام جبل هند .

وجعل الرسول قيادته على جماعة من المهاجرين .

تنفيذ الخطة

دخلت جيوش المسلمين مكة حسب الخطة الموضوعة ، ولم تلق الفرق
صداً أو مقاومة إلا قوة الجانب الأيمن بقيادة خالد بن الوليد ، فقد كان
الحي أهل مكة أشد قريش عداوة لمحمد ، فأعد رجاله عدتهم للقتال أسفل
مكة عند الخدمة ، وكان على رأسهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان وسهيل ،

(١) قال سعد بن عبادة «اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحق الحرمـة» فأمر الرسول بسحب
الراية منه وتسليمها إلى ابنه قيس وقال «هذا يوم يعظم فيه الكعبة ويوم تسكتى فيه
الكـعبـة» .

فليا دخلت فرقة خالد ألقوا عليها النبال ، ولكن خالداً استطاع أن يتغلب عليهم ويقضي على مقاومتهم ، وولى القادة الثلاثة الأدبار ^(١) ، ولما علم الرسول بهذا القتال أسف له ، ولكنه عندما وقف على أمر مقاومة الناس . خالد قال : إن الخيرة فيها اختياره الله .

واسسلست مكة .

ودخلها محمد مظفراً . . .

وكان أول ما فعله أن سار إلى الكعبة متطلباً ناقته القصواه وطاف بالبيت سبعاً ، ثم دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ووقف على بابها وتکاثر الناس في المسجد ، فتلا عليهم قوله تعالى :

« يَا إِيَّاهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنَثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِيلٍ تَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ إِنَّهُ اللَّهُ أَتَقْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِخَيْرِكُمْ » ^(٢) .

وأشار الرسول إلى الأصنام الموجودة بالكعبة ، وقال « جاء الحق وذهب الباطل إن الباطل كان زهوفاً ، وسقطت الأصنام التي بلغ عددها ثلاثة واحداً وراء الآخر . . . ورأى الرسول صورة لإبراهيم الخليل وبده الأزلام ^(٣) يستقسم ^(٤) بها فقال :

(١) وصف حاتس بن خالد — وهو من قبيلة بني بكر وكان من المشركين الذين قاوموا خالداً يوم الخندمة — الاتباع في قوله :

لأنك لو شهدت يوم الخندمه
لذا فر صفوان وفر عكرمه
وابو يزيد قائم كالمؤمنه
واسقبلهم بالسيوف للسلامه
ضرها فلا يسمع إلا غضنه
لم تطقن بالعلوم أهون كلهم
مؤعة أى اسطوانه

وأبو بزید هو أبو يزيد سهيل بن عمر

(٢) الحجرات ١٢

(٣) السهام

(٤) يضرب بها

«مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»^(١).

واستقر الأمر للسلمين في مكة فإذا حدث بعد هذا الاستقرار؟

بعد الغزو

١ - تجمعت قريش في المسجد الحرام تنظر ما يفعله الرسول بأصنامها ولا تحرك ساكناً، ثم راحوا ينتظرون حكم الرسول فيهم، فإنه في هذه الساعة قد تذكروا ما فعلوه به وبأصحابه وكيف عاملوه وأذوه وأخرجوهم من ديارهم وحاربوهم، ووقف الرسول يسألهم «يا معشر قريش ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟»، قالوا «أخ كريم وابن أخ كريم»، فقال «اذهبا فأنتم الطلقاء، ثم قال «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نعوة الجاهلية وتعظمها بالآباء.. الناس من آدم، وآدم من تراب»... ثم قال «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام من حرام إلى يوم القيمة»، فلا يحل لأمرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ولا يعتصد فيها شبراً. لم تحمل لأحد كان قيل، ولا تحمل لأحد يكون بعدي، ولم تحمل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلهما، ثم رجعت حيرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ..

ونادى الرسول في أهل مكة «من كان منكم يؤمن باقه واليوم الآخر،
خلال يترك في داره صننا إلا حطمه» ..

٢ - بقى الرسول في مكة ينظم شئونها، ويقفه أهلاً، ويقبل إسلام الداخلين في الإسلام من رجالها ونسائها .. وفي هذه الآونة خيل الأنصار أن الرسول تارك المدينة إلى وطنه الأول، وقد فتحه الله عليه وقالوا «أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها»، إلا أن الرسول عندما عرف بما يخوافهم قال «معاذ الله الحمد لله حيَاكم ولهمات عاتكم».

(١) سورة آل عمران ٦٧

وبذلك أبى الرسول بعده الذى قطعه على نفسه فى يبه العقبة ، ولم ينفعه أهله ، ولم تنسه مكة والبيت الحرام وفاته وبره بن وقفوا بجانبه وقت شدته ولهذا بقى الرسول بمكة خمسة عشر يوماً بعد الفتح ، ثم عاد إلى المدينة مع الأنصار .

٣ - كانت أبرز ظاهرة بعد إتمام الفتح ، أن قريشاً لمست فسحة صدر الرسول وغفوه الشامل ، فطبع أملوها فى الدخول فى الإسلام ، وجاء الكثيرون يطلبون الصفح والعفو ، وكان الرسول سمحاً كريماً مع الجميع ، قبل إسلامهم ، وعلى رأس هؤلاء ابن أبي السرح ، وعكرمة بن أبي جهل ، وكان قد فر إلى البين ، فأسللت زوجه أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، واستأمنت له الرسول قائمته ، نفرجت إلى البين وعادت به ، وصفوان بن أمية ، وهند زوج أبي سفيان الذى مضفت كبد حزنة بعد استشهاده فى أحد ، وفضالة بن عمير^(١) .

وأمر الرسول بالغفو عن كثيرين من كان قد أمر بقتلهم .

ولا ننسى في هذا المجال أن نذكر أن الرسول أمر بقتل عدد من قريش حتى ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة ، وكان ذلك لا حقداً عليهم أو غضباً منهم ، وإنما لعظم الجرائم التي ارتكبواها .

٤ - خرج خالد بن الوليد إلى نخلة ليهدم العزى ، وكانت لبني شَنِيان ، فلما هدمها خرج إلى جذيمة ، فلما رأه القوم ، أخذوا السلاح ، فطلب خالد منهم أن يضعوه ، نخرج رجل منهم ، وصاح فيهم: « ويلكم يا نبى جذيمة ، إنه خالد ،

(١) بينما الرسول يجهز على الأوتوان اقترب منه فضلاً محاولاً انتهاز الفرصة لقتله ، وعرف الرسول بنظره إليه طوبته فسأله « ماذا كنت تحدث به قتيلاً؟ » فقال « لاشيء ». كنت أذكري أتفاق ، ففجع الرسول ثم قال له « استغفر أتفاق ». وبينما فضلاً عائداً إلى بيته مر بأمرأة كان لها منها شأن فلما رأته قالت « مل مل المديث ». طابت قولها .

قالت : هل مل المديث قلت : لا يا بني عليك أتفاق والإسلام
لو ما رأيت محمدأً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين أتفاق أضحي بيننا والعمر يغنى وجيه الإسلام

وأقه ما بعد وضع السلاح إلا الاسار ، وما بعد الاسار إلا ضرب الأعناق . .
ولكن الناس لم يسمعوا له ، ووضعوا سلاحهم ، فقتل خالد من قتل ، فلما علم
الرسول بذلك ، رفع يديه إلى السماء ، وقال : « وأقه إني أبرأ ما صنع خالد بن
الوليد » . وبعث الرسول إليهم بعلى ، وقال له : « اخرج إلى هؤلاء فانظر
في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » . وخرج على وأخذ معه
مala اعطاء إياه الرسول ، فدفع الديبة عن الدمام وعما أصاب الناس من أموال .
وأرسل الرسول عباد بن العاص هدم سواع ، وهو صنم تعظمه
هذيل فهدمه .

وبعث الرسول أيضاً سعد بن زيد الأشهل هدم مُناة ، وهو صنم لكتاب
وخزاعة فهدمه .

إن غزوة الفتح تقدم للتاريخ العسكري وللمسكريين دروساً هامة نذكر منها :

الدروس المستفادة

١ - التصميم على الغرض .

لاحظنا خلال غزوة الفتح ، أن الرسول وضع نصب عينيه أغراضًا
معينة ، وأنه خلال العمليات لم يتتحول عن هذه الأغراض ، فمن ذلك أنه كان
قد قرر دخول مكة ، فلما جاءه أبو سفيان ، يطلب مد مدة الصلح الذي يتبناه
 وبين قريش ، رأى الرسول أن في ذلك المد تعطيلًا للغرض الرئيسي الذي
يهدف إليه . ولماذا رفض الرسول دعوة أبي سفيان بعد مدة العقد أو العهد .

ومن ذلك أيضاً أن الرسول قرر عند وضع خطته أن يدخل مكة دون
قتال أو إراقة دماء ، وأصدر أوامره هذه إلى قادة الفرق التي أعدت لدخول
مكة ، فلما شاهد عليه صلوات الله خالداً وهو يحارب في الجبهة الجنوبيّة خضب
ودعاء إلى إيقاف الحرب ، حتى إذا علم بما قوبل به خالد من المقاومة قال :
« الخيرة فيها اختياره الله » . .

ومن ذلك أيضاً أن الرسول كان يسعى إلى نشر الإسلام وقيامه على

أقاضى الونية وعبدة الأصنام ، ولهذا فعندما دخل مكة لم ينس الفرض الرئيسي الذي يجاهد من أجله ، ولهذا حطم الأصنام في الكعبة ، ثم أمر بهدم كل صنم في داخل البيوت « من كان منكم يومئذ بالله واليوم الآخر فلا يترك في داره شيئاً إلا حطمه » ، ولم ينس الرسول الأصنام التي كانت تعبد خارج مكة فبعث السرايا لهدتها وللدعوة لعبادة الله الواحد القهار .

٢ - المفاجأة أو المباغة .

للحظ في هذه الغزوة أن الرسول قرر مباغة قريش رغبة منه في عدم إراقة الدماء أو إثارة القتال ، ولهذا فإنه دعا إلى الإعداد للحملة في سرية تامة ، وكذلك بأن دعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى لا تعرف شيئاً عن تحركاته ، وبأن أصدر أوامره بمراقبة الطرق إلى مكة ، والقبض على من يشك فيه ، ضماناً لعدم نقل أو وصول أخبار تجمعاته وتحركاته إلى قريش .

ولما عرف الرسول برسالة حاطب ، أرسل ثلاثة من رجاله م علي والزبير والمقداد ، فعثروا على الرسالة ، وأعادوا المرأة^(١) إلى المدينة .

ولضمان تحقيق رغبة الرسول في دخول مكة بجأة وبسرعة وبدون قتال ، حشد الرسول قوات كثيرة ليدخل بها مكة ، حتى أنه قبل إن العدد الذي حشد تحت قيادته عشرة آلاف وقيل اثنى عشر ألفاً ... كما أن الرسول بعث إلى القبائل العربية المجاورة يدعوها للانضمام إليه ، وذلك رغبة منه في حشد أكبر قوّة ممكنة لتحقيق الهدف الأساسي والفرض الأول وهو عدم القتال والدخول دون حرب .. وكان الرسول يرى في هذا الحشد الكبير تفتيتاً لقوة قريش وإضعافاً لرغبتها في القتال إن رغبت .

٣ - الحرب النفسية ..

لقد اهتم بها الرسول اهتماماً بالغاً فقد علم عليه الصلاة والسلام أهمية الروح المسيطرة على المهاجرين في الميدان ، ولهذا دفع بالعياس على بناته اليهود

(١) راجع صفحة ٢١٣ .

ليكون سفيراً له يحمل إلى قريش أنباء الجيش الكبير القادم إليها، ولما جاء العياس بأبي سفيان طلب منه الرسول أن يأخذه إلى مكان ضيق في الجبل، ليزري الجيش وليعرف قوته وليس بنفسه ما تجلبه قريش على نفسها لو أنها قررت القتال والمقاومة، وكان لاحشد الهائل الذي أعده الرسول أثر كبير في نفسية أبي سفيان، حتى أنه اعترف بالنبوة وأعلن إسلامه ثم أسرع إلى قريش يدعوها إلى التسليم ويقول «من دخل بيتي فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن». وهرب القرشيون على أثر ذلك إلى بيوتهم وإلى المسجد ينشدون فيها الأمان.

٤ - الروح السمعة في الحرب ..

وهذه الروح واضحة في هذه النزوة، فهؤلاء الذين حاربوا الرسول منذ اليوم الأول الذي دعا فيه إلى الدين الجديد ... حاربوا وآذوه وعدبوا وعذبوا أصحابه ودفعوا بهم إلى المجزرة إلى الحبشه ثم إلى المدينة، هؤلام لم ينلهم منه أذى ولم يحاول الرسول أن يرد إليهم أنعامهم بل صفح عنهم جميعاً صفحه الجليل الذي سجله له التاريخ.

إن موقف الرسول بالنسبة لأهل قريش كان موقفاً كريماً كما توقعوا م أنفسهم في قوتهم له «أخ كريم وابن أخي كريم».

ما من أحد من قريش جاء إلى الرسول يطلب الصفح والأمان إلا ومنه الرسول الأمان، وأمه على نفسه وولده وماله.

ما من أحد من قريش إلا ووجد عند الرسول الروح السمعة والنفس الصافية والعاطفة النبيلة التي تمثلت في عفوه وصفحه.

وهل هناك روح أكثر سماحة من تلك التي أعلنت في الجزيرة العربية كلها «اذهبو فأتموا الطلاقام^(١) مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخواته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين».

(١) سمي أهل مكة الطلاقاء — ابن الأثير ج ٢

إن الروح السمححة لدى الرسول هي التي هدأت من نوره عمر على حاطب
ابن باتحة حينها لـ عمر «دعني يا رسول الله أضرب عنقه فإن الرجل قد نافق»
ورد عليه الرسول رداً جيلاً . . .

«وما يدريك يا عمر لعل الله قد أطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال
اعملوا ما شتم فقد غفرت لكم» .

غزوة حنين

كان الرسول أحد طرفي هذه الغزوة وكان الطرف الآخر هو ازن، وهي قبيلة كبيرة من العرب، وسميت غزوة حنين، وهو اسم موضع في طريق الطائف، وتسمى هذه الغزوة أيضاً، غزوة أوطاس، وهو اسم موقع كانت به الموقعة، وتسمى كذلك غزوة هوازن.

تقيم هوازن على مقرية من مكة إلى جنوبها الشرقي، فلما هلت باتصار المسلمين في مكة وتحطيمهم الأصنام، خشيت أن تدور عليها الدائرة، وأن يوجه إليها الرسول ضربته التالية، وخافت أن يسير إليها ويفزوها، فاجتمع رجالها وقالوا «قد فرغ لنا فلا مانع له دوننا فالرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا» .

أسباب الغزوة

(١) من وجهة نظر هوازن :

وقيل إن أهل هوازن كانوا قبل فتح مكة يربون قال الرسول، وروى عن أبي الزناد أن هوازن أقامت سنة تجمع الجموع، وتسير رؤساه من العرب تجتمعهم معها، فلما انتصر الرسول في مكة عزموا على أن يغزووه قبل أن يغزوه .

وتولى أمر الدعوة إلى محاربة محمد مالك بن عوف، فاجتمع إليه من القبائل أفراد عديدون وجموع كثيرة، منهم سعد بن بكر، وهم الذين كان الرسول مسترضاً فيهم، وبلغ عدد الجيش الذي تم إعداده ثلاثة ألفاً، وتولى مالك قيادة الجيش وكان عمره ثلاثة سنين، وطلب منه الكثيرون استشارة دريد

ابن الصمة وهو من بني سعد اجتاز المائة والخمسين من عمره ، وكان ضريراً ، وكانت له دراية في الحرب .

كان مالك قد أمر القوم بأن يأخذوا معهم نسائهم وموالיהם وأموالهم حتى يتبوأوا في الحرب ولا يفروا ، فلما علم بذلك دريد قال له « وهل يرد المهزوم شيئاً؟ إنها إن كانت لك ، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحتَ في أهلك ومالك » .

(٢) من وجهة نظر المسلمين :

عند ما تجمع أهل هوازن وبني سعد لمحاربة الرسول ، بعث الرسول عيناً^(١) تقف على حقيقة الموقف ، فرجع يخبره بصحة ما باعه ، وأن القوم في عدد كثير .

بدأ الرسول يعد العدة لمحاجة هوازن بعد أن وصله خبر تجمعتها ووثق منه ، ونادى في قومه فاجتمع له اثنا عشر ألفاً من المسلمين ومن أهل مكة ، ومعهم أبو سفيان بن حرب .

واستعمل الرسول على المدينة عتاب بن أبي سعيد ، وترك معه معاذ بن جبل يعلم الناس الأحكام والشرائع ، وخرج مع الرسول من المشركين صفوان ابن أمية وسهيل بن عمرو .

خطة هوازن

وضع مالك الخيل صفوافاً ، وجعل المشاة من خلفها ، ثم جعل النساء فوق الإبل ، ثم جعل الإبل والبقر والغنم وراء ذلك كلها . ثم أمر الناس أن ينحازوا إلى قم حنين ، وعند مضيق الوادي ، وكانت خطته أنه إذا نزل المسلمون الوادي ، شدوا عليهم شدة رجل واحد ، تضعضع صفوافهم ، فيختلط الحابل بالنابل ، ويفقدون السيطرة على أنفسهم ، ثم تدور عليهم المزيمة .

(١) المقصود بالعين جماعة الكشف وهي التي تستطلع أخبار العدو ، وتعميرأ الكشف والاستطلاع تعميران حدثان وفي الأذمنة الماضية كانوا يستخدمون لفظي « العيون والعين »

خطة الرسول

عندما بلغ جيش المسلمين (حنيناً) نزلا على أبواب وادها ، وعقد
الرسول الألوية فجعل :

- ١ - لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب .
- ٢ - لواء الخزرج للعباس بن المنذر .
- ٣ - لواء الأوس لأنسيد بن حضير .
- ٤ - لواء كل قبيلة إلى زعيمها ..
- ٥ - كان الرسول على بغلته البيضاء في مؤخرة الجيش .
- ٦ - سار خالد بن الوليد على رأس بني سليم في المقدمة .

المجاسبية في المعركة

أرسل الرسول عبد الله بن أبي حدرة بن الأسلمي إلى هوازن ، وأمره أن يدخل فيهم ويسمع منهم ما أجمعوا عليه ، فدخل فيهم ومكث يوماً ، وسمع ما يقولون ، ثم عاد إلى الرسول يقول له إنه انتهى إلى خباء مالك وكان عنده مؤمن من رؤساء هوازن فسمعه يقول لهم ، إن محمدأ لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قوماً لا علم لهم بالحرب ، فيظهر عليهم ، فإذا كان السحر فضعوا مواثيكم ونسائمكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم تكون الحلة منكم واكسروا غمام سبوفكم فلتقوه بعشرين ألف سيف ، واحلوا حلة رجل واحد ، واعلموا أن الحلة لمن حل أولاً ..

وفي ذات الوقت ، كان مالك قد أرسل بعثة جواسيش من ثلاثة أفراد ينظرون إلى رسول الله ، ويعرفون خبر جيشه ، فعادوا إليه وقد تملكتهم الفزع ، وقالوا رأينا رجالاً يضاً على خيل بلق ، فهو أقه ما تمسكنا أن أصابنا هاترى ، وإن أطعتنا رجعت بقومك ، فقال لهم أفالكم بل أتم أجبن القوم ، وحسبهم عنده خوفاً من أن يشيع قولهم في الجيش .

المعركة

بينما كان المسلمون ينحدرون من مضيق حنين ، في واد من أودية تهامة شنت عليهم القبائل هجوماً عنيفاً فاختلط أمر المسلمين واضطرب ، وعملت المفاجأة عملها فاختلت صفوهم ، وعمت الفوضى ، وتراجع الناس لا يلرون على شيء وولت القبائل الأدبار .

وثبت محمد في مكانه وأحاط به بعض من المهاجرين ، والأنصار ، وأهل بيته ، وأخذ ينادي في الجموع الماربة ، أين أينها الناس ! أين ، .

وشاهد الرسول هوازن تطارد المسلمين الفارين فثارت حيته ، وحاوله أن يندفع ببغله البيضاء يوقف هذا السيل من الهجوم العنيف ، إلا أن عمه العباس اعترض طريقه وأخذ يصيح « يا عشر الأنصار الذين آتوا ونصروا .. يا عشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة .. إن محمدآ حى فهلموا » ..

واستجابت الجموع لدعوه ، ودوى في الميدان النداء الخالد « ليك .. ليك .. » ، وارتدى المسلمون إلى المعركة في الوقت الذي أصبح المسلمين وجهاً لوجه ، أمام هوازن في الميدان .

وببدأ القتال ، واستد القتال ، ورأى الرسول رجاله وميظيون بخصوصهم فنادي « الآن حمى الوطيس ، إن الله لا يخلف وعده » ، وناوله العباس حفنة من الحصى فألق بها في وجوه العدو قاتلاً ، شاهت الوجوه » . ثم قال « انهزوا ورب محمد » .

واستهان المسلمون بالموت ، وأندفعوا إلى المعركة فتحول زمامها إليهم وأنهزم الأعداء وبذمها في الانسحاب ، ثم استد ضغط المسلمين عليهم ولم يجد الأعداء مفرأً من الفرار ، ففروا تاركين نسائهم وأموالهم وأبنائهم ، وغنم المسلمون اثنين وعشرين ألفاً من الإبل ، وأربعين ألفاً من الشياه ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وبلغ عدد الأمرى ستة آلاف نقلوا تحت حراسة إلى وادى الجعرانة ..

واستمرات المطاردة .

وأعلن الرسول أن من قتل مشركاً فله سلبه ، وتبع المسلمين هوازن حتى أو طاساً حيث أزلوا بهم خسائر فادحة ، وتمكن مالك بن عوف من الفرار إلى الطائف واحتسم بها ... ونزل قوله تعالى :

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُفْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ عَارِجِينَ ثُمَّ وَلَيْلَمُ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الدِّينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » (١)

الدروس المستفادة

١ - وجود القائد في أرض المعركة له أهمية كبيرة في سير المعركة ، فالقائد يستطيع وهو بين جنده أن يلم بتفاصيل المعركة ويستطيع أن يعدله الخطة حسب سير المعركة .

والرسول بوجوده في أرض المعركة حول المزينة إلى انتصار ، وجعل من المسلمين الفارين جنوداً أقوىاء ، صدو أمام عدوهم حتى قهروه ، فقد ثبت هو في مكانه ونادي في قومه في أثناء انسحابهم ودعاه إلى الثبات والقتال ، وكان ل موقفه هذا أثر كبير ، فتجمع القوم حوله ، وكان لهذا التجمع نتيجة واضحة في تغيير دفة المعركة .

٢ - استخدام الجاسوسية استخداماً طيباً ، فقد حل الجواسيس إلى الرسول أخبار العدو ، إذ تمكن الجاسوس من أن يصل إلى داخل مبنى القيادة الخاصة بالعدو ، وأن يحضر مؤتمراً أعده الأعداء لرسم سياستهم ، واستمع فيه إلى حديث مالك مع رؤساء القبائل ، وعرف منه الخطة وتوزيع القوات وحل هذه المعلومات إلى الرسول .

(١) سورة التوبه ٢٦/٢٥

٣ - وضحت قيمة المفاجأة حينها استخدمها مالك ضد قوات المسلمين فقد كان لمفاجأته إياهم أثر كبير في اضطراب أحواطهم ، وتفكك وحدتهم وفرارهم منهزمين من المعركة .

كما أن عودة المسلمين ثانية إلى أرض المعركة كانت مفاجأة كبيرة لقوات مالك ، وهي متصررة ومسيطرة على الميدان ، فأدت المفاجأة إلى هزيمة مرة بعد انتصار كاديكون أكيداً .

٤ - تلاحظ قوة الروح المسيطرة على المسلمين خلال المعركة ، فالمسلمون كانوا يستهينون بالموت ، يرجبون به في سبيل نصرة الدين ، وهم مؤمنون بأن الله منجز وعده ، وأن من يستشهد منهم فإنه سيحظى بنصيبيه في الجنة . بهذه الروح حارب المسلمون ، وبهذه الروح انتصروا على هوازن في حنين انتصاراً رائعاً لا مثيل له .

غزوة الطائف

بعد هزيمة هوازن هرب قائدتها مالك بن عوف^(١) إلى الطائف^(٢) ، حيث احتمى بها ، فقرر الرسول إليها ، ولما كانت ذات أبواب تغلق على من فيها وكانت من أمنع الحصون ، فقد أمر الرسول بحصارها .

الحصار :

في أثناء تحرك المسلمين إلى الطائف هدموا حصنًا لماك بن عوف وحاصطاً لرجل من ثقيف ، فبعث إليه الرسول يطلب منه أن يخرج منه أو يحرق عليه ، فأبى الخروج وأمر الرسول بحرقه .

(١) ذكرنا ذلك في صفحة ٢٢٩ .

(٢) قبل هجرة الرسول ذهب إلى الطائف يدعو أهلها للإسلام فسخروا منه وأهانوا إليه ولذلك سميائهم بالحجارة ، والطائف مدينة مخصبة لها أبواب تغلق عليها ، وكان أهلها ذوي دراية بحرب الحصار وذوى ثروة طائلة .

كان على رأس المسلمين خالد بن الوليد ، فلما وصل إلى الطائف نزل بن معه قريباً من الحصن^(١) ، فلما شاهد أهل الحصن المسلمين ، نالوم بالنبال فأصيب عدد كبير وقتل اثنا عشر رجلاً .

أمر الرسول عندما تم الحصار ، أن يكون المسلمين بعيدين عن مرى النبال ... وأصبح أهل الطائف محاصرين حصاراً وصفه أحد الأعراب في حديثه عن ثقيف « إنما ثقيف في حصنها كالتعلب في جحده لا سيل إلى إخراجها منه بطول المكث فإن تركته لم يلحقك منه ضر .. »^(٢)

وأقبل خالد ينادي أهل الحصن « هل من مبارز؟ » ، فرد عليه أحد المحاصرين « لا ينزل إليك منا أحد ولكن نقيم في حصننا ، فإن به من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقت حتى يذهب ذلك الطعام ، خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نوت عن آخرنا .. »

ولما جاء الرسول إلى بيبي دوس إحدى القبائل المقية بأسفل مكة ، وكان لهم علم برماية المجنحين واستخدام الدبابات في مهاجمة الحصون ، فجاءت طائفة منهم ومعهم المجنحين والدبابات ، وأخذ المسلمون بتعاونهم يرمون الحصن بالمجنحين ، وبعثوا بالدبابات إلى الحصن ، وتحتها نفر من المسلمين يحاولون هدم الجدار .

وقاوم أهل الحصن الدبابات بأن أحروا قطعاً من الحديد بالنار حتى إذا انصرفت أقواماً على الدبابات فخرقتها ، واضطر المسلمون إلى الفرار من تحتها خوفاً من الحرق ، فأصابتهم ثقيف من داخل الحصن بالنبل .

أمر الرسول بقطع كروم الطائف وحرقها^(٣) ، وتمكن الرسول من

(١) في المكان الذي مسكت فيه جيوش المسلمين أقيمت مسجد الطائف ، إذ أن الرسول كان يؤودى الصلاة في هذا المكان .

(٢) في رواية أخرى روى أن الرسول استخار نوافل بن معاوية فقال « يا نوافل ، ما ترى في اللقام عليهم؟ » قال « يا رسول الله ، نعلب في جحده لن أقت عليه أحذته ، وإن تركته لم يضرك . »

(٣) جزءاً من الطائف جزعاً شديداً لقطع الكروم فبعثوا للرسول « دعها له ولرحمه » فقال الرسول « أدعها له ولرحمه . »

القبض على بعض أهل الحصن الذين حاولوا الفرار من الحصار ، وعلم منهم أن بالحصن ذخيرة وطعاماً يكفيان مدة طويلة . . . وعندما قدر الرسول موقفه وجد أن الحصار سيطول ، وأن الجيوش تود العودة لاقسام الفيء الذي كسبوا ، وأنه إذا أصر على البقاء فقد يؤدي ذلك إلى أن ينفد صبرهم ، وخاصة أن الأشهر الحرم قد آذنت وقربت وفيها لا يجوز القتال . . .

لهذا كله قرر الرسول رفع الحصار بعد شهر من وقوعه ، على أن يعود إلى الطائف بعد انتهاء الأشهر الحرم .

وأعلن الرسول أنه إذا جاءه مالك بن عوف مسلماً رد عليه ماله وأهله وأعطاه مائة من الإبل ، فلما علم بذلك مالك هرب من الحصن ولحق بالرسول وأعلن إسلامه .

غزوة تبوك

تبوك اسم لعين في مكان على مشارف الشام . . . سميت كذلك لأن الرسول كان قد نهى عن المساس بها بفاء أربعة من المنافقين وعيثوا بها ، فقال لهم الرسول : « ما زلتكم تكون بها ، والبوك معناه الحفر في الشيء » .

أسباب الغزوة

١ - اتجهت أنظار الرسول إلى الشام بعد أن اتصر الإسلام في الجزيرة العربية ..

٢ - لل المسلمين دماء على الروم بما أصابوه في غزوة مؤتة .

٣ - علم الرسول أن الروم تهيأ لغزوه .

التجهيز للحركة

كان من عادة الرسول أن يكتم وجهته عند الفزو ليفاجئ العدو ويأخذنه بفترة ، أما في غزوة تبوك ، فقد رأى الرسول بعد المسافة وكثرة العدد وشدة الحر ، ولهذا أعلن الرسول أنه سيعده جيشاً إلى بلاد الروم ، وبعث بالرسل

إلى مكة وإلى قبائل العرب يدعوهم إلى القتال معه ، ودعا موسى المسلمين للمساهمة في إعداد الحلة ، فاستجاب بعضهم ومنهم عثمان بن عفان الذي قدّم من ماله عشرة آلاف دينار ، وأمد الجيش بثلثمائة بعير وخمسين فرسا ، مما دفع بياض رسول إلى أن يقول : « اللهم ارض عن عثمان فإنه راض عنك ». وقدّم أبو بكر كل ما يملك وهو أربعة آلاف درهم فسأله الرسول : « هل أبقيت لأهلك شيئا ؟ » . قال : « لم الله ورسوله ». وتبرع عمر بن الخطاب ماله ، وتسابق المهاجرون والأنصار في التبرع ، حتى النساء تبرعن بخليطتين .

وانتحل بعض المسلمين الأسباب الواهية ليتخلّفوا عن الحلة وأنزل الله فيمن اعتذر لشدة الحر :

« وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرَّ قُلْ نَارٌ جَهَنَّمَ أَشَدُ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْهُونَ » ^(١).

وفيمن اعتذر لأنه رجل ^(٢) يخشى الفتنة إذا وقع نظره على نساء الروم لأنّه حب للنساء :

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئْذَنْ لِي وَلَا تَقْتُلْ أَلَا فِي الْفَتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَجِيَّةٌ بِالْكَافِرِينَ » ^(٣)

وعلم الرسول أن بعض المناقين يجتمعون في بيت أحد اليهود يحملون الناس على عدم الجهاد والاشتراك في الحرب ، فأمر الرسول طلحة بن عبيد الله وبعض الصحابة بأن يحرقوا البيت عليهم .

وبلغ عدد الجيش أكثر من ثلاثة ألفا . وكانت الخيل عشرة آلاف

(١) سورة التوبة . ٨١

(٢) هو رجل من بيته سلف جاء الرسول وقال له « يا رسول الله أو تأذن لي ولا تقتلي فوافه لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني وإن أخفيت نسائي الأشرف لا أسرى » . ويقصد بيته الأشرف الروم فأعرض عنه الرسول حتى نزلت الآية .

(٣) سورة التوبة . ٤٩

فرس ، واستعمل الرسول على المدينة محمد بن مسلمة . وترك علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم وقال : « خلفتك لما تركت ورائي ، فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلاترضي أن تكون مني بنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدك » .^(١)

وسلم الرسول لواء الجيش إلى أبي بكر وأعلى راية المهاجرين لزبير بن العوام ، وراية الأوس لأسيد بن حضير ، وراية الخزرج للحباب بن المنذر . وتختلف في أثناء سير الجيش بعض الأفراد ، فكان الرسول إذا قيل له إن فلاناً تخلف يقول : « دعوه فإن يك فيه خير فسيلحةه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » .

في تبوك

نزل الرسول في أرض لا عمارة بها ، في مكان هو أول مشارف الشام من الجنوب . أطلق عليه تبوك ، واستطاع الرسول المنطقة فلم يجد أثراً لجيش الروم^(٢) ، وطلب منه أهالي المنطقة^(٣) الصلح فأجابهم إلى طلبهم ، وكتب لهم بذلك ، وفرض عليهم فروضاً إما ثماراً وإما عيناً .

وبعث الرسول بخالد بن الوليد إلى ملك دومة^(٤) . وهو أكيدر بن عبد الملك ،

(١) هند ما خلف على الرسول على أهله أرجف النافقون فقالوا « ما خانه ، إلا استقلاله وتحفنا منه » . فلما سمع ذلك على أخذ سلاحه ولحق بالرسول على مسافة ثلاثة أميال من المدينة وقال للرسول « يابني الله زعم النافقون أنك لئما خلفتني استقلالاً وتحفنا » فأمره الرسول بالعودة وقال « كذبوا ... ولستني خلفتك ... » إلى آخر ما جاء بقول الرسول قبل إن الروم عندما عدوا بقوه جيش الرسول وعدده آثروا الانسحاب إلى داخل حدودهم ليعتموا في حصون الشام .

(٢) من هؤلاء يوحنا بن رؤبة صاحب تأييه .

وأهل الجرباء وهي قرية من أعمال عمان بالبلقاء في أرض الشام . وأهل أذرح وهي بلد قريب من الجرباء وفي أطراف الشام بجاورة لأرض الحجاز .

(٤) هي المعروفة باسم دومة الجندل .

وكان نصراً ، وقع أسيراً في أيدي المسلمين^(١) فقدموا به إلى الرسول فلن دمه وصالحه على الجزية ، ثم خلي سيله .

وبقى الرسول بتبوك بضع عشرة ليلة ، ثم استشار أصحابه ، هل يتقدم إلى الشام أو يرجع إلى المدينة ؟ فقال له عمر بن الخطاب : « إن كنت أمرت بالسير فسر » . فقال الرسول : « لو كنت أمرت بالسير لم أستشر » ، فقال عمر : « يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الإسلام وقد أفرغ الروم ذنوك منهم ، فلورجعنا في هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً ». فأخذ الرسول برأي عمر ، وأمر بالعودة إلى المدينة .

* * *

وكان هذه الغزوة هي خاتمة غزوات النبي . وبانتها تم كلمة الله في شبه الجزيرة ، وأمن محمد كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً ، يقدمون الطاعة ، ويعلنون الدخول في الإسلام .

وكان من أثر انتشار الدعوة الإسلامية بجزيرة العرب ، أن وجدت رابطة دينية قوية بين أقطارها التي دخلت في الإسلام ، وقد مهدت هذه الروابط الدينية إلى قيام وحدة سياسية تجمع شمل العرب .

وظهرت بوادر هذه الوحدة حينما أخذت القبائل العربية تندى إلى الرسول معلنة إسلامها ، وفي ذلك يقول ابن هشام : « لما افتح رسول الله مكة وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبإيت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه » . وعن ابن إسحاق أنه : « لما افتتح مكة ودانت للرسول قريش عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بمحرب رسول الله ولا عداوه ، فدخلوا في دين الله كما قال الله - عز وجل - أفواجاً يضربون إليه من كل وجه ، ويقول الله تعالى لنبيه :

(١) كان منه هقيقة حسان وقتل وساق خالد من دومة بد أن دخلها ألف بمير وعاصمة شاة وأربمائة وسبعين وأربعمائة درع .

« إِذَا جَاءَ نَصْرٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَامْسَأْقِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا »^(١).

وَعْرَفَتْ سَنَةً تَسْعَ هِجْرِيَّةً بِعَامِ الْوَفُودِ ، لَأَنَّ عَدْدًا كَبِيرًا مِّنَ الْقَاتِلِينَ الْعَرَبِيَّةِ وَأَهْلِ الْمَدِنِ ، أَخْذَنَتْ تَوْفِيدَ إِلَى الرَّسُولِ مِنْ قَبْلِهَا وَفُودًا تَعْلَمُ خَصْوَعَهَا وَحَرْصَهَا عَلَى دُخُولِ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ أَرْنُولْدُ فِي كِتَابِهِ : « الدُّعَوةُ إِلَى الْإِسْلَامِ »^(٢) .

(١) سورة النصر ٣/١

Arnold : *The preaching of Islam.* (٢)

الباب الخامس

()

بَادِي الْمُرْبُّ

- الاستكشاف
 - الحشد
 - المفاجأة
 - الم تعرض
 - المتصوّيق
 - المصادرة
 - المحافظة على الفرض
 - السرية وسلامة القوات
 - النظام والضبط والربط
 - المشتوري
 - الأستوري
 - التروّح السريّ في الحرب

الاستكشاف

إن الثقة في نجاح العمليات الحربية والاطمئنان إلى سير هذه العمليات سيراً سليماً طيباً ، يتوقف على الخطة التي وضعها القائد للعملية المتضرة ، والخطة تخضع دائماً لأمور في غاية الأهمية بالنسبة للقوتين المتقابلتين ، ويعتبر العسكريون الاستكشاف أو الاستطلاع أحد هذه الأمور بل أكثرها أهمية وأكبرها قيمة وأخطرها شأناً .

وبمراجعة جميع العمليات التي تمت في مختلف الحروب وفي مختلف العصور يتضح لنا أن النصر كان حليفاً للخطة التي وضعت على أساس سليم ، والتي كان الاستكشاف هو الخطوة الأولى والأساسية التي اتخذت عند وضعها .

وما من قائد يطبع في إحراز النصر إلا ويبدى غاية اهتمامه وبالغ عناته بالاستكشاف ، وبناء على ما يحصل عليه من المعلومات ، يضع الخطة ، وكلما كان الحصول من الاستكشاف طيباً ، كانت الخطة أقرب إلى الكمال ، وكان النصر مزكداً .

ولقد تقابلت وجهات القادة جيئاً في هذه الناحية ، ولقد جعل قادة الغرب لل الاستكشاف أهمية كبرى كما جعلها له قادة الشرق .

* * *

والمقصود بالاستكشاف الحصول على المعلومات التي تفيد القائد في أثناء العمليات ... المعلومات عن الأرض التي ستدور عليها المعركة ... وعن العدو ، وعدده وأسلحته وخططه (وتكتيكاته) وروحه المعنوية وأساليبه في الحرب ... المعلومات عن الجو الذي يصاحب العملية ... المعلومات عن القوى الشعبية الموجودة خلف القوات المقاتلة .

والمعروف أن العمليات تتأثر تأثيراً كبيراً بطبيعة الأرض التي تدور عليها .

المعركة . فالقتال في الأراضي الصحراوية مختلف عنه في الأراضي المبلطة بالملفوار ، وعنه في الأراضي المكسرة ، وعنه في الأراضي الجبلية .

كما أن العمليات تتأثر تأثيراً كبيراً بطبيعة الجيش الذي ستوجه إليه الضربة ، فقتال جيش منظم معد ذي روح معنوية عالية ، يحتاج إلى تجهيزات وترتيبات ، ويطلب تدريياً منظماً وتعلماً حديثاً ، كما يتطلب وضع خطة تتفق مع طبيعة الجيش المعادي .

وكذلك تتأثر العمليات بحالة الجو الذي يسود المعركة ، فالقتال في الجو الحار يتطلب إعداداً مختلفاً في جوهره عن الإعداد للقتال في الجو البارد .

وكذلك أيضاً تتأثر العمليات بطبيعة القوى الشعبية التي تسند الجيش المقاتل ، والقوى الشعبية تختلف في قواها المعنوية ، واستعدادها لمساعدة الجيش ، وتسلحها وإيمانها ، وهذه العوامل كلها تحتاج إلى مواجهتها .

وما لا شك فيه أن المعلومات التي يحصل عليها القائد من استكشافه هي أزيد الذي يجعله بعد خطة موفقة تقوده إلى نصر أكيد .

* * *

والرسول الكريم ظهر في عصر لا يعرف فيه عر الحرب سوى الكر والفر والإقدام والإحجام . . . لم تعرف الحرب فيه كفن ، ولهذا لم تخضع الحرب عند العرب لمبادئ أو أصول .

ولما جاء الرسول وبذلت غزواته لم تعد الحرب على تلك الصورة التي كانت عليها قبل بعثته ، فقد كان الرسول يفكّر بعقلية رجل الحرب ذي العقل المدبر والتفكير السليم والرأي الصائب والنظر البعيد .

وكان الحصول على معلومات عن العدو من أهم النواحي التي عنى بها الرسول ، فهو لم يلتقي مع جيش من جيوش أعدائه إلا بعد أن درس حالة الجيش وعدهه وتسلیمه ، وبعد أن وضع الخطة التي تناسب مع هذه الدراسة وتفقق مع ما لديه من معلومات عن جيش عدوه .

كان الرسول يبعث بعيونه للاستطلاع فكان يختار من رجاله من يكون
موقع ثقته ، حتى يطمئن إلى ما يأتون به من معلومات .

كما كان الرسول يقوم بنفسه في كثير من الأحيان بهذه العملية ليحصل
على المعلومات وذلك تقديرًا منه لعامل الاستكشاف وأهميته . . .

* * *

في غزوة بدر بعث الرسول طلحة بن عبد الله وسعيد بن زيد يتظاران
عوده العير ، فبقيا في منزل كشد الجهنمي بالمحوراء ، حتى وصلت العير فأسرعا
إلى الرسول يبلغانه الأمر .

* * *

وعندما نزلت قوات الرسول موقعاً قريباً من بدر ، أسرع الرسول ومعه
أبو بكر وقيل في رواية أخرى معاذ بن جبل ، يجتمعان بالمعلومات عن قريش
فوفقاً على شيخ يقال له سفيان ، وسأله الرسول عن قريش وعن محمد — منكراً
نفسه من الرجل — فقال له « بلغنى أن محمدًا وأصحابه خرجوا في يوم كذا فإن
صدق الذي أخبرني به ، فهم اليوم بمكان كذا ، وبلغنى أن قريشاً خرجوا
يوم كذا فإن الذي أخبر به صدقاً ، فهم اليوم بمكان كذا » . . . ولما كان
الموضع الذي قال عنه الشيخ إن محمدًا به صحيحًا ، فقد علم الرسول أين توجد
قريش من كلام الشيخ .

وبعث الرسول بعثة استطلاعية من علي والزبير وسعد إلى بدر يتلمسون
الخبر ، فأصابت البعثة غلامين لبني الحجاج وبني العاص ، فحملتها إلى الرسول
وسأل الرسول الغلامين « كم تتحرون كل يوم ؟ قالاً « يوماً تسعًا ويوماً
عشراً ». فعرف الرسول من ذلك أن عدد قريش يتردد بين التسعائة
والألف .

* * *

وفي غزوة أحد بعث الرسول جماعات استطلاع لتأقى له بأخبار قريش
خرج آنس ومؤنس إبنا فضالة فوجداها قد قاربت المدينة وأطلقت خيلها
وإبلها ترعي زروع يثرب .

* * *

وخرج الحباب بن المنذر بن الجحوج وعاد بعلمومات لا تختلف عما أرسله
العباس عم الرسول في كتابه الذي أبلغه فيه بما تحرك قريش إليه .

* * *

وكانتبعثة سلمة بن سلامة هي البعثة الثالثة الاستطلاع في هذه الغزوة
وأبلغت هذه البعثة الرسول أن طليعة قريش قد قاربت المدينة .

* * *

وعندما بلغ الرسول أن خالد بن نبيح المذلي يجمع الناس في موطنهم عرنة
ليغزو بهم ، بعث الرسول عبد الله بن أبيكيس ليستطلع الأمر ، فسار عبد الله
إلى هناك حيث التقى بخالد ودار بينهما حديث عرف منه عبد الله أن خالدا
ينوى مهاجمة الرسول فرأوه ثم فاجأه وقتلته .

ونهى إلى الرسول أن يهود بنى قريظة قد نقضوا ما تعااهدوا عليه مع المسلمين ،
فاستدعي سعد بن معاذ وسعد بن عبادة (سيدا الأوس والخزرج) وعبد الله
ابن رواحة ، وبعث بهم إلى بنى قريظة ليوافوهم بأخبارهم وقال لهم « انطلقوا
حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقاً فالحنوا إلى لحنا
أعرفه » . ولما رأوا غدر اليهود عادوا وأخبروا الرسول .

وفي خلال حصار خيبر ، عشر عمر في أثناء طوافه للحراسة حول الحصن ،
على أحد اليهود ، جاءه به إلى الرسول ، فطلب منه الرسول أن يقدم ما لديه
من المعلومات ، في مقابل ذلك أسره وإنقاذ رقبته من سيف عمر ، فوافق

الرجل وقال للرسول «إن القوم قد أجهدتهم الحصار ، وهم يرسلون الأطفال إلى حصن آخر إذ قرروا أن يناجزوكم غداً» . ثم وعد الرسول بأنه إذا فتح الحصن فسيدهله على بيت فيه منجنيق ودبابات وسيوف ودروع مخبأة في داخل الحصن .

وأرسل الرسول عبد الله بن حدرد بن الأسلمي إلى هوازن ، وأمره أن يدخل بينهم وأن يسمع منهم ما أجمعوا عليه ، فدخل ومكث معهم يوماً وسمع ما يقولونه ، وحضر مؤتمراً عقد في خباء مالك ، واستمع إليه يقول لرجاله «إذا كان السحر ، فضعوا ما شئتم وسامكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم تكون الحلة منكم ، واكسروا غمام سيفكم ، فلتلقونه بعشرين ألف سيف ، واحلوا حلة رجل واحد ، واعلموا أن الحلة لم حمل أولاً» .

وفي خلال حصار الطائف ، وفد على الرسول عشرون من أهل ثقيف ، وألهم الرسول عن الموقف داخل الحصن ، فقالوا له إن المهاجمين معهم طعام غزير وذخيرة كثيرة ، وأنهم قد أعدوا أنفسهم لحصار طويل ... ولما كان طول الحصار معناه أن الأشهر الحرم ستائى دون أن يكون الحصن قد تم الاستيلاء عليه ، فإن الرسول قرر رفع الحصار ، على أن يعود بعد أن تنتهي الأشهر الحرم .

الحشد

الحشد معناه جمع أكبر عدد من القوات المقاتلة وتوجيهها إلى الفرض الرئيسي للعملية . . . وبقراءة تاريخ الحروب نجد أن النصر كان دائماً حليفأً للجيش الذي تم حشده وحسن تنظيمه . . . فألمانيا في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) حشدت جيوشاً على حدود فرنسا وتمكنـت من دخول الأراضي الفرنسية والوصول إلى حدود باريس .

وأمثلة الحشد في التاريخ العربي كثيرة متعددة^(١) .

ولقد أدرك الرسول قيمة الحشد ، فبذل جهداً كبيراً في حشد قواته خلال العمليات المختلفة ، تقديراً منه لمبدأ الحشد ، واعترافاً بفضل هذا المبدأ في الحصول على النصر .

* * *

فبعد ما بدأت غزوة بدر ، كان عدد المسلمين قليلاً ، ومع هذا ، دعا الرسول قومه إلى الاستعداد لمواجهة قريش ، برغم جموعها الكثيرة وسلاحها العديد ، وخرج في هذه الغزوة من المسلمين ثلاثة وخمسة .

* * *

وفي غزوة أحد ، خرج الرسول في سبعة من المقاتلين الأشداء ، ومنع الرسول ، صغار السن ، من الاشتراك في الغزوة .

* * *

وفي غزوة بدر الآخرة ، خرج الرسول ومعه ألف وخمسين .

(١) من أمثلة الحشد في العصر الحديث ، الحشد المائلي الذي أعدده موتاجمرى في موقعه الطيني (٢٣ من أكتوبر ١٩٤٢) ضد قوات ألمانيا بقيادة روميل ، إذ بلغت قواته ١١٠٠ دبابة ، ٨٥٠ مدفعاً ، ٥٠٠ طيارة ، وكان الجيش الثامن يتكون من سبع فرق من المشاة وفرقة مدربتين

وعندما استقر الرأى على حفر الخندق حول المدينة ، دعا الرسول قومه إلى الحفر ، وحشد لذلك جميع قوى المسلمين ، وتم حفر الخندق في سبعة أيام ، وأتى الرسول بالنساء والأطفال إلى المنازل المحسنة ، وبلغت قوة المسلمين ثلاثة آلاف .

وفي غزوة ذى قرد ، سمع الرسول صيحة سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي « واصباحاه » ، فأغاثه بطليعة تحت قيادة المقداد بن عمرو ، ثم سار الرسول ، بعد المقداد ، لمعاونته سلمة ، رغبة منه في الوقوف أمام العدو في أكبر حشد ممكن .

وفي غزوة الفتح ، أراد الرسول أن يدخل مكة دون حرب ، وكانت وسيلة في ذلك ، حشد أكبر قوة ، ليفت بذلك في عضد قريش ، فتجنح إلى السلم ، وهذا أيضاً ، بعث الرسول إلى من حوله من العرب ، مثل أشجع ، وبعقار ، وسلمي ، وطلب انضمامهم إلى جيش المسلمين ، وقال « من كان يوم باته واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة . » ، واستجابت الجموع الغفيرة لدعوة الرسول ، وتدققت الجموع على المدينة ، وبلغ الجيش الإسلامي بقيادة الرسول عشرة آلاف ، وقيل في رواية أخرى ، اثنى عشر ألفاً ، حتى إن أبا سفيان حينما شاهد الجيش واستقرضه ، تولاه الخوف والفزع ، وقال للعباس عم الرسول « ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصح ملوك ابن أخيك عظيمها . » ، كما قال لقريش « يا مشر قريش هذا محمد قد جامكم بما لا قبل لكم به »

وعندما قرر الرسول السير إلى تبوك ، بعث بالرسل إلى مكة ، وإلى

قبائل العرب ، يدعونه إلى السير معه ، كادوا موسري المسلمين للسامحة في إعداد الملة ، فاستجاب له الكثيرون ، وأمدوا الجيش بالمال والخيل والبعير ، حتى إن عثمان بن عفان وحده ، أمد الجيش بثلاثة بعير وخمسين فرساً ، وبلغ عدد جيش المسلمين – برغم بعد المسافة وشدة الحر ، وما يتعرض له الجيش من متاعب في اجتيازه الصحراء إلى مشارف الشام – أكثر من ثلاثة ألفاً ، وكان عدد الخيل عشرة آلاف .

المفاجأة

نعتبر المفاجأة عنصراً قائماً بذاته ، لما لها من التأثير المعنوي الذي يودي إلى إحداث الارتباك والرعب في صفوف الأعداء ، ويرى القادة في المفاجأة خطرًا كبيراً على الجيش المهاجم ، إذ يجعله في ظروف لا تمكنه من أن يستخدم قواته وموارده حسب ما يتطلبه الموقف ، كما أنها تضطره إلى أن يتنازل عنها كان قد أعده من خطط لمواجهة المعركة .

ولو أن المفاجأة في الحروب الحديثة ، يبدو أثراها واضحاً بالنسبة للكثرة الأسلحة وموارد النيران ، إلا أنها في عهد الرسول : كان لها أثر كبير أيضاً على القوات التي يهاجمها ، برغم بساطة الأسلحة المستعملة في تلك الحروب .

ولقد كان الفرض الذي يرمي إليه الرسول من استخدام المفاجأة ، هو الفرض الذي تستخدم من أجله المفاجأة في حروب اليوم ... فقد كان الرسول يهدف إلى إضعاف قوة وعزيمة العدو وإرادته بإدخال الخوف في نفوس أفراده حتى يصبحوا غير قادرین على التحمل والمقاومة والقتال .

و واضح من دراساتنا لحروب الرسول ، أنه كان يحارب دائماً بجيش قليل العدد ، أى أن التفوق العددي ، والتفوق في التسليح ، كانوا دائماً في الجهة المعادية له ، ومع هذا فإن المعارك كلها انتهت في جانب الرسول ، حيث العدد البسيط والمعدة القليلة ، ومعنى هذا أن مفاجأة الرسول لاعدائه لم تكن مفاجأة عدديّة (أى توجيه الهجوم بقوة كبيرة) بل كانت مفاجأة لأغراض «استراتيجية وستكتيكية» .

ومن أمثلة المفاجأة في الحروب الحديثة ، مفاجأة الجنرال فون هوتر^(١) القوات الروسية خلال هجومه على ريجا (١٩١٧) . ومفاجأة ألمانيا فرنسا بالهجوم عليها عن طريق بلجيكا وشمال فرنسا (١٩١٤ - ١٩٣٩) .

Von Hutier (١)

بلغ الرسول أن بنى أسد تعد العدة لمواجهته ، فقرر أن يفاجئهم قبل أن تكتمل عدتهم ، وتفوي شوكتهم ، وأعد سرية قوامها مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار بقيادة أبي سلمة بن عبد الأسد ، وأمره أن ينزل أرض بنى أسد فيها جهم ...

ومن أهم الأوامر التي أصدرها الرسول إلى أبي سلمة أمره إيه بالسير ليلا ، والاستخفاف نهارا ، وسلوك طرق غير مطروقة حتى لا يعرف عدوهم بمسيرهم إليه ، ولا يطلع على تحركاته أى فرد من عدوه ...

وبهذه الأوامر نجح أبو سلمة في أن يفاجئ القوم عند قطن قبل أن يستعدوا ، وأحاط بهم ، فأذلتهم المفاجأة وتركوا منازلهم ، وهربوا نتيجة حالة الخوف والذعر التي اتت بهم نتيجة لمفاجأتهم بالهجوم .

ولعل عبد الله بن أنيس قد نجح في قتل خالد بن سفيان الذي كان يجمع الناس في موطنها « عرنة »، ليغزو بهم الرسول نتيجة مفاجأته خالد بعد أن أنه واستسلم له وجلس معه في خيانته ، وقد انصرف أصحابه وأعوازه ولو لا مفاجأته إيه لما نجح في تنفيذ أمر الرسول « إذا أتيته فاقتله » .

ولقد فوجئت قريش عندما وصلت إلى أطراف المدينة بالختنق كوسيلة حديثة ، استخدموها الرسول ضدّهم ، فإنه لم يكن لهم سابق معرفة بحرب الخناق ولهذا كانت المفاجأة سبباً في هدم خطّتهم ، وتشتيت قوتهم ، وضياع فرصة الانتصار من أيديهم ، فظلوا أمام الخناق حتى اضطروا إلى العودة من حيث أتوا .

ولما فكر الرسول في أن ينتقم لخبيب بن عدى وأصحابه من قتل بنو حيان عند ماء الرجيع ، لم يجهز الرسول بقصده ، خوفاً من أن يعرف

العدو ، فيتخذ الخليفة لنفسه ، ولهذا أظهر الرسول أنه يريد بلاد الشام ، وأخذ قواته ، وتحرك بها إلى الشمال ، ولما اطمأن إلى أن أحداً من عدوه لا يعرف مقصدته ، عاد إلى ناحية مكة وأسرع في السير . حتى وصل منازل بني حيّان بعمران^(١) .

* * *

وعلم الرسول أن بني المصطلق يحرضون عليه ويريدون قتله ، فقرر أن يأخذهم على غرة ويفاجئهم ، وجعل لواء المهاجرين لأبي بكر ، ولواء الاتنصار لسعد بن عبادة ، وتحرك اللواءان حتى ماه قريب من بني المصطلق ، يسى المريسيع ، وفوجيء القوم ، بقوات محمد تهاجمهم ، فسقط في أيديهم ، ولم يجدوا للخلاص طريقاً سوى الفرار .

* * *

وعندما قرر الرسول غزو خيبر ، خرج في ألف وستمائة مقاتل ، ومائة فارس ، وقطع المسافة بين المدينة وخيبر في ثلاثة أيام ، وكانت سرعة عجيبة حتى أن أهال خيبر فوجئوا بقوات محمد أمام المدينة ، فهربوا يتسبّعون ، هذا محمد والجيش معه . واستبشر الرسول من حالة الذعر التي وجدم عليها ، فقال « خربت خيبر إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

وكانت رغبة الرسول أن يدخل مكة دون قتال أو إراقة دماء ، ولهذا وضع خطة التقدم إلى مكة على أساس أن يتم تنفيذها بجأة ، حتى لا تتجدد قريش الفرصة للمقاومة فقسم دون قتال ، ولهذا أخفى الرسول تحركاته ، حتى إنه دعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى لا تعرف شيئاً عن تحركه .

(١) أشبه هذه الملحمة خطبة روميل عند احتلاله طبرق ، إذ أوصى الانجليز أنه سيطارد قواتهم للنجاة ثم عاد بعد مطاردة لصيرة فهاجم طبرق قبل استعدادها واستولى عليها .

وبلغ من حرص الرسول أنه أمر بحراسة الطرق إلى مكة ، والقبض على كل من يستراب فيه ، خوفاً من أن يعرف أى فرد من عدوه نيته ، فيبلغ أهل مكة ما اعزم ، فتضيق بذلك المفاجأة .

ولقد حاول حاطب بن أبي بلتعة أن يتصل بقريش ، فبعث بخطاب مع امرأة تدعى سارة ، فعلم الرسول بأمر الكتاب ، وأرسل ورماها عليا والزبير والمقداد ، فلحقوا بالمرأة عند روضة خاخ ، ورجعوا بها وبالكتاب ... وبذلك تحققت في هذه الغزوة مفاجأة الرسول لقريش وأهل مكة .

التعرض

التعرض معناه المهاجم أو المبادأة .

ومن المعترف به أن الحرب تكتسب بالعمل الإيجابي لا بالعمل السلبي .

ومن المعترف به أيضاً أن المهاجم القوى هو خير وسيلة للدفاع .

وما لا شك فيه أن القيام بالهجموم يعطي الثقة التامة للقوات المهاجمة ، كما أنه يفتح الفرص لإحراز النصر .

والحروب الكثيرة التي حدثت في التاريخ تنبئ بأن العمليات المهاجمية تنتهي غالباً بالنصر^(١)

وبدر استنا لحروب الرسول الكريم ، نجد أنه كان دائماً يتخذ خطة المبادأة والتعرض ، وأنه كان دائماً المفاجي في الحرب والبادي بالهجموم .

ففي بدر ، خرجت قريش لتهاجم قوات المسلمين ، فهاجها الرسول وأنزل بها خسائر فادحة ، دفعتها إلى أن تطلب الثأر من جديد ، فأعادت العدة لغزوته أحد .

وكان الرسول هو المهاجم أيضاً في هذه الغزوة – غزوة أحد – فقد انتصر الرأى القائل بالخروج إلى العدو وملاقاته حيث نزل مخافة أن يظن أنهم كرهوا الخروج (المهاجم) ، وأنهم تخصنوا بالمدينة (أى اتخذوا خطة الدفاع) . جيناً من لقاء العدو ، وقال في ذلك أحد المسلمين «إنما لا أحب

(١) من أمثلة ذلك (في مصر الحديث) :

(أ) هاجت روسيا تركيا عام ١٨٧٨ واضطربتها إلى توقيع معاهدة سان ستيفانو .

(ب) هاجت ألمانيا فرنسا في عامي ١٤ و ٣٩

(ج) انتصر مونتموري على روميل في صحراء مصر الغربية بعد قيامه بهجوم عام شامل بدء عدد وتجهيز .

أن ترجع قريش إلى قومها ، فيقولون حصرنا مهداً في صيادي يثرب وآطامها ،
فتكون هذه مجرة لقريش

وعندما وقع الشر بين المسلمين وبني القينقاع ، أمر الرسول بتجهيز جيش
لمهاجمة حصنهم ، فقبع بنو قينقاع خلفها حتى اتصرّ الرسول عليهم وأمر
بإجلاثهم عن المدينة .

وكان الرسول هو البادئ بالهجوم ضدّي نعلبة ومحارب عندما تجمعوا
يريدون إصابة أطراfe .

وعندما حاولت قريش أن تحول طريق تجارتها عن طريق العراق ، بعث
الرسول زيد بن حارثة في مائة راكب ، وقضى على تجارتهم عند القردة .

وبعث الرسول بسرية على رأسها أبو سلحة بن عبد الأسد ليهاجم بنى أسد
الذين تجمعوا المحاربه ولهاجمة المدينة .

وهاجم عبد الله بن أبي حمزة خالد بن سفيان ، وقضى عليه في موطن عرته .

وأمر الرسول أصحابه بالتهيء للحرب ودعا محمد بن سلحة وقال له ، اذهب
إلى يهود بنى النضير وقل لهم إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من
بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممت به من الغدر بي ، لقد
أجلشتكم عشر آفون رئي بعد ذلك ضربت عنقه . ، ورفض بنو النضير ما دعاهم
إليه الرسول فأمر بهاجتهم .

وعندما لوح أبو سفيان بأنه قادم إلى الرسول في العام الثاني لعام بدر ، دعا الرسول المسلمين إلى مواجهته حتى أنه قال «والذى نفسى بيده لو لم يخرج معى أحد خرجت وحدي» . وسار الرسول فعلا على رأس ألف وخمسينه (موقعة بدر الأخيرة) .

وفي غزوة ذات الرقاع وفي غزوة دومة الجندل وفي قتال بنى المصطلق كان هو البدى بالمجووم أيضاً وفي كل الغزوات انتصر الرسول .

* * *

وصيحة جلاء الأحزاب أوصى الله إلى الرسول أن يغزو بنى قريظة وأمر الرسول بلا لا أن ينادى «من كان ساماً مطيناً فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة» . وتم حصارهم حتى سلموا .

* * *

وهاجم محمد بن مسلمة بنى بكر بن كلاب وكانوا يصادرنون الله ورسوله والمسلمين .

وغزا الرسول بنى لحيان ففروا منه في الجبال .

وفي غزوة ذى قردا دعا الرسول «يا خيل الله اركبوا» .

وهاجم المسلمون بنى أسد وبنى سليم وبنى كلب .

وهاجم الرسول خيبر .

وقام الرسول بهجمات وحملات تأديبية إلى بعض من هوازن ، وبنى مرة ، وبنى الملوح .

وب الرغم انهزام المسلمين في معركة فإنهم كانوا البدائين بالمجووم .

وقام المسلمون بعمليات ضد قضاة وكانت العمليات هجومية ، الأولى : بقيادة أبي عبيدة ، والأخرى : بقيادة عمرو بن العاص .

وكان الرسول هو المهاجم في غزوة الفتح الكبرى ، برغم أنه لم تحدث اشتباكات كبيرة .

واتصر المسلمون في حنين ، وكانوا هم المهاجمين أيضاً ، حتى إذا اتھوا منها ، هاجموا الطائف ، وظلوا بها حتى اضطروا إلى ذلك المصارح حتى تنتهي الأشهر الحرم .

إذن ، فالملعون في حروبهم ، اخذوا مبدأ الدفاع أو التعرض أساساً لم يف عليهم ، وكان لهذا أكبر الأثر في تتابع المعارك ، فكانت كلها أو أغلبها في جانبهم .

التطويق

ويسمى أيضاً الحصار .

والانتصار الخامس يكتسب دون حاجة إلى المطاردة عندما تطوق القوات جيش العدو تطويقاً تماماً ، وتجبره على الخضوع والاستسلام .
والتطويق في فن الحرب ، هو أسهل وأسرع وسيلة للقضاء على العدو ، ولقد فهم ذلك القادة العسكريون في جميع العصور ، وأدركوا أنه وسيلة فعالة سريعة للوصول إلى النصر .

والتطويق له آثار كبيرة ، يسهل لها وعرفتها بالنسبة للقوات التي تقوم به ، كما أن له آثاراً كبيرة على الجيوش المعادية ، إذ تشعر هذه الجيوش أنها قد صارت في وضع ذليل ، لا تستطيع الخروج أو التخلص منه ، إلا بحالة واحدة ، هي التسلیم والخضوع لشیة المحاصر .

ومهما كانت المتابع التي يلاقيها الجيش الذي يتولى عملية التطويق ، إلا أن مزايا التطويق بالغة الخطورة ، حتى أنها تقلل من شأن هذه المتابع ^(١)

واحتلال نابليون أولم سنة ١٨٠٥ ، دليل كبير على نجاح التطويق .

واستخدم الألمان التطويق في سنة ١٩١٤ ، فعزلوا الجيوش الفرنسية عن القوات البريطانية التي كانت تنزل في ذلك الوقت في ميناء المافر .

وسمينا خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) عن حركات السباكة التي استخدماها الألمان استخداماً ناجحاً .

(١) هذه المتابع هي :

(أ) قد تضرر الجيش التي ترغب في القيام بعملية التطويق إلى الفتح على مساحات كبيرة
(ب) قد يستطيع العدو الاستفادة من الوقت الذي يقضيه الجيش المحاصر في تنظيم تحركات وحداته .

(ج) كثرة القوات المنفصلة لارسال خطوط المواصلات وتقصان تمدد القوة الازمة للقاومة بما لا ينفصل هذه القوات .

وبرغم تباعد العصور التي تمت فيها هذه العمليات ، والعصر الذي نشأ فيه الرسول ، فإن الرسول الكريم أدرك أهمية التطويق وخطورته ، وعرف أنه وسيلة سهلة سريعة للقضاء على جيش العدو ، ولهذا استخدم الرسول التطويق أو الحصار في غالب عملياته .

فمندما علم يهود بنى قينقاع بتحرك الرسول إليهم ، دخلوا حصنهم ، فلما دخل عليهم الرسول بمحاصرتهم ، وظل الحصار خمسة عشر يوماً لا يخرج منهم أحد ، ولا يدخل عليهم أحد ... وقل ما عندهم من زاد وشراب خلال هذه المدة ، فاضطروا إلى النزول على حكم الرسول وسلوا بقضائه .

وحاصر الرسول بنى النضير ، ولما طال الحصار ، سألا الرسول أن يخرجوا من بلادهم ، فقبل الرسول ذلك ، وخرجوا من المدينة ونزل قوله : « ولو لا أن كتبَ اللهُ عليهم الجلاء لعذبُهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذابُ النار ». .

وعندما اقترب الرسول من حصن بنى قريطة أمر بمحاصرها ، فقال لهم أسيد بن حضير ، بعد أن تمت عملية التطويق ، « يا أهداه الله لا تبرحو من حنكم حتى تموتوا جوعاً ، إنما أنتم بمثل ثعلب في جحر ». .

واشتد الحصار وطالت مدة ، فطلبوه من الرسول أن يبعث إليهم أمباية ابن عبد المنذر ليستشيروه في أمرهم ، وكان حلينا لهم ، فطلب منهم التسليم ، وأن ينزلوا على حكم الرسول ، وتم ذلك ، فألقى الرسول القبض عليهم ، ونفذ حكم سعد بن معاذ .

وفي عمليات الرسول ضد خير ، حاصر الرسول حصن ناعم سبعة أيام ، وكذلك باقي الحصون ، وكان المسلمون يرمونها بالمنجنيق ، وبهاجونها

بِالدَّبَابَاتِ ، وَيُنْعَوْنَ عَنْهَا الزَّادُ وَالْمَاءُ ، حَتَّىٰ سَلَتِ الْمَسْلُونُ عَلَىٰ مَا بَهَا
مِنْ سَلاَحٍ وَذِخِيرَةٍ وَزَادَ ، حَتَّىٰ قَبْلَ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَمْلَئُوا بَطْوَنَهُمْ مِنْ طَعَامٍ
إِلَّا بَعْدَ فَتْحِ خَيْرٍ .

وَحَاصَرَ الرَّسُولُ الطَّافِ ، وَهَاجَهَا بِالْمَنْجِنِقِ وَالدَّبَابَاتِ ، وَلَمَّا طَالتْ
مَدْةُ الْحَصَارِ ، وَقَرَبَتِ الْأَشْهُرُ الْحَرَمُ ، قَرَرَ الرَّسُولُ فَكَ الْحَصَارَ ، عَلَىٰ أَنْ يَعُودَ
إِلَى الطَّافِ بَعْدَ اِتْهَامِ هَذِهِ الْأَشْهُرِ .

المطاردة

قال نابليون، وهو صاحب مدرسة لها نظمها وآراؤها في الحرب، «الإتصار لا يعد شيئاً، إذ يجب إتمام وتعزيز هذا النصر، وإن سر الحرب هو أن تمشي إثنى عشر فرسخاً^(١)، وتتوارد غار المعركة، ثم تمشي إثنى عشر فرسخاً أخرى للمطاردة».

والمطاردة يقصد بها أن الجيش المتصر لا يترك الفرصة للجيش المهزوم، فيعيد من جديد تنظيم قواته واستعادة تنظيماته، ثم يعود إلى الميدان فيكون شوكة، في جانب الجيش المتصر يجب إزالتها ولو بمعركة أخرى.

وما لا شك فيه أن الجيش المهزوم، يفقد الكثير من روحه المعنوية، ومن قدرته على حمل السلاح، وتقتصر عنده الرغبة في الحرب، ولهذا فإن أية ضربة، حتى ولو كانت بسيطة وضئيلة، تقضى عليه قضاء مبرماً، لا يستطيع بعدها تجمعاً، ولا يمكن من إعادة تنظيم نفسه، أو استعادة الرغبة في الحرب من جديد.

لمس هذا كله القادة، وصوره نابليون تصويراً واضحاً في قوله الذي ذكرناه في أول حديثنا وطبقه تطبيقاً موفقاً في حروبه: «ويسجل التاريخ الحربي صوراً كثيرة من أعمال المطاردة»^(٢).

(١) الفرسخ = ٣ أميال

(٢) من أمثلة المطاردة: (أ) مطاردة الألماز لاحملا البريكانية المقهورة من مونز للتلارن (١٩١٤).

(ب) مطاردة ولنجتون لقوات صولت (١٨٠٩) وفولت مينا (١٨١١)

(ج) مطاردة اليابانيين لقوات روسيا بعد معركة لوبيانج (١٩٠٤)

(د) مطاردة مونتجمرى لقوات رومبل بعد المدين (١٩٤٢)

وغزوة السويف ، كانت الغزوة الأولى التي طارد فيها الرسول القوات المعادية ، واتخاذه صلى الله عليه وسلم المطاردة كوسيلة للقضاء على عدوه في هذه الغزوة ، يعطينا فكرة واضحة عن عقيرية الرسول كقائد عسكري عتاز ، قدر قيمة المطاردة ، وعرف أثرها ونتائجها .

بعد انهزام أبي سفيان في بدر ، رفض أن يعيش تحت ذل الانكسار ، ورغم في أن يعيد إلى الأذهان قوة قريش ، وأن يذكر الناس بأن قريشاً ما زالت لها قوتها وعصبيتها وقدرتها على الحرب والقتال ، جمع بعضاً من رجال مكة ، وخرج على رأسهم إلى مكان يسمى العريض ، حيث قتل رجلاً من الأنصار ، ثم حرق بعض النخيل ، فلما سمع بذلك الرسول ، سار إليه ، وعلم بالسير أبو سفيان ، فاكتفى بهذا النصر الرخيص ، وأسلم ساقيه للريح ، فقرر الرسول أن يتبعه ويطارده ، واستمرت المطاردة حتى قرفة القدر .

وفي غزوة أحد ، دعا الرسول المؤمنين إلى طلب العدو ومطاردته ، خرج المسلمون وراء جيش أبي سفيان ، ووقع في روعه أن الرسول يطارده بعدد جديد من المدينة ، خاف لقاءه ، وأسرع يعود إلى مكة ، واستمرت المطاردة حتى حراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة .

وفي حنين نادى الرسول في قومه «إن الله لا يخلف رسوله وعده» ، وتناول حفنة من الحصى ، وألقى بها في وجوه أعدائه قائلاً «شاهد الوجوه» ، واندفع المسلمون يقاتلون أعدائهم في شدة وباس ، حتى رأت هوازن وتفيف أن مقاومتهم لهذا السيل المجأر غير مجدية ، وأنهم مساقون إلى حتفهم ،

فروا من الميدان تاركين أموالهم ونسائم ، وهنا أصدر الرسول الامر
بالمطاردة وقال « من قتل مشركاً فله سلبه .. »^(١) .

وتابع المسلمين هوازن في تقهرها وفرارها حتى أوكاسوا قصوا عليهم ،
وسلبوا من احتملوا من النساء والأموال ، ولما علم الرسول أن مالك بن عوف
فر مع بعض القوم إلى الطائف أمر بطاردتهم وجهز لذلك جيشاً ظل بطارد
حتى وصل الطائف خاصرها ،

(١) يقال أن ابن الوغنة لدرك جلا عليه هودج ، ظن به المرأة ، طبع في سلبيها ، فأنما
البلل ووجد به شيخاً كبيراً قتله ، وكان هذا الشيخ هو هرید بن الصمة .

الحافظة على الغرض

قلنا إن الرسول ، كان يميل إلى السلم ، وإنه كان يعزف عن الحرب ، حتى أنه قضى الفترة الأولى من حياة دعوته وهو بمكة ، مختتما العذاب والقسوة والشدة التي تعرض لها هو وأصحابه .

حتى إذا ما أذن له بالقتال ، جعل للقتال أهدافاً معينة ، وأغراض خاصة وكانت هذه الأهداف وتلك الأغراض تدور حول معنى واحد ، هو صيانة الدعوة ، وإعطاء الفرصة للمسلمين ، ليعبدوا ربهم ، في جو من الطمأنينة ، وحمايتهم حتى لا يفتن أحد عن دينه ، ولا يظلم بسبب عقيدته ، ودخوله في الدين الجديد .

عندما أرسل الرسول عبد الله بن جحش إلى نخلة ، مرت به قافلة لقريش يقودها عمرو بن الحضرى ، وكان الوقت في رجب ، وتشاور عبد الله مع أصحابه ، هل يترك القافلة تمر ، لأن هذا الشهر حرم فيه القتال ، أو ينفذ ما أمر به ليقضى على قوافل قريش . . . ووافقت الغالبية على القتال حافظة منهم على الفرض الذى خرجوا من أجله ، وهو الوقوف في وجه تجارة قريش ، ونجحت السرية في أداء مهمتها ، ونزل قول الله تعالى يؤيد عبد الله .

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٌ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَّالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرْدُوْكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِّي أَسْتَطِعُوا»⁽¹⁾ .

(1) سورة البقرة . ٢١٢ .

وضابق يهود بنى قينقاع ازدياد قوة الرسول بالمدينة ، فأخذوا يتحرشون بال المسلمين حتى إنهم قالوا للرسول ، يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب وأصبت منهم ، إنا والله لو حاربناك لتعلمنا أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ..

وكان قول اليهود تهديداً وأخحاً للرسول .

وكان ازدياد قوة يهود بنى قينقاع بالمدينة خطراً على الدعوة الجديدة ، ولهذا قرر الرسول الخروج إليهم ومحاربتهم ، حتى يؤمن دعوته من هؤلاء الأشرار .

ولعل عدم مخالفة المسلمين على غرضهم في موقعة أحد من أسباب انهزامهم ، فإن الرماة الذين وضعهم الرسول على الجبل ، لم يحافظوا على الفرض من بقاءهم في مكانهم ، وتركوه تحت تأثير الرغبة في الحصول على نصيبهم من الغنيمة ؛ وأدى ذلك إلى لمع خالد خلام الجبل وقلة أهله ، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبي جهل ... ثم كانت كارثة أحد .

كان تأمين الدعوة من أهم أغراض الحروب التي خاضها الرسول ، ولهذا نجده عليه الصلاة والسلام بعد غزوة الخندق يوجه بعض السرايا والغزوات إلى بني قريطة وبني بكر وبني لعيان وبني أسد وذى قرد وبني سليم وبني كلب بقصد تأمين نفسه من شر اليهود والقبائل التي كانت ضمن الأحزاب ، ونجح في هذه العمليات ، وأخضع هؤلاء جميعاً ، وأصبح آمناً ، وبذلك حقق أهم الأغراض التي كان يسعى إليها ..

وفي خلال غزوة الفتح ، وضع الرسول أغراضًا معينة نصب عينيه ، ولم يتحول عنها ، فن ذلك مثلاً أنه قرر دخول مكة ، فلما جاءه أبو سفيان

يطالب منه مد أمد الصلح بينه وبين قريش رفض طلبه لأنه يتعارض مع غرضه .

وقرر الرسول أن يدخل مكة دون إراقة دماء ، وأصدر أوامره بذلك إلى قادة الفرق ، فلما علم أن سعد بن عبادة قال «اليوم يوم الملحمة» . عزله وعين مكانه ابنه قيس ، ولما علم أن خالداً قاتل في جيشه غصب ، ودعاه إلى إيقاف الحرب .

ولم ينس الرسول الفرض الذي دخل من أجله مكة ، ألا وهو القضاء على عبادة الأوثان والأصنام ، ونشر الإسلام .. فعندما تم له فتح مكة أمر بهدم جميع الأصنام الموجودة ، ودعا الناس «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك في داره صنباً إلا حطمه» .

ولم ينس الرسول أيضاً الأصنام التي كانت تعبد خارج مكة فبعث السرايا لهدئها .. سار خالد إلى نخلة هدم العزى ، وعمر هدم سواع ، وسعد بن زيد هدم مناة .

السرية وسلامة القوات

من أهم الواجبات الملقاة على عاتق القادة خلال العمليات الخفية مراعاة سلامه القوات والمحافظة عليها ووفايتها .. وهذا الواجب يحتل مكان الصدارة من تفكير القادة عند وضعهم الخطط .

ولضمان الحصول على هذه السلامه وتلك الوقاية يلزم أن تكون السرية هي الأساس الذي يقوم عليه عمل القائد .. والتاريخ مليء بما يؤكّد حرص القادة على سلامه قواتهم ، وحروب نابليون توّكّد لنا أنه كان يعني عنایة كبيرة بالمحافظة على سلامه قواته وحمايتها .

و جاء في المأثور عن رسول الإسلام « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتاب » ولقد حرص الرسول في غزوته على كتمان أمرها حتى لا تذاع أخبار تجمعاته وتحركاته وتكلّماته ، وحتى لا تتعرض قواته لما يهدّد سلامتها أو يكشف خططها .

في العام الثاني للهجرة بعث الرسول عبد الله بن جحش في سرية من المهاجرين ، ودفع إليه بكتاب أمره ألا يفضله إلا بعد مسيرة يومين ، وحين يطلع عليه يمضي بما أمره به وينفذ ما يجده في الكتاب من أوامر ، وفتح عبد الله الكتاب فإذا به « إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارها » .

إذن فسرية عبد الله خرجت دون أن تدرى شيئاً من مهمتها أو تعلم الدور الذي ستقوم به^(١) ، فكان الرسول أراد أن يخفى وجهة هذه السرية حتى

(١) تتفق هذه المحادثة مع حادثة أخرى في العصر الحديث .. فإن نابليون - نابغة المرب وصاحب المدرسة العسكرية الأمسية في فنون الحرب وتكلّماته - عندما خرج بجيشه من فرنسا فاقداً مصر ، أخذني نابغة اعزّمه غزو مصر عن الجميع ، ولم يعلم به أحد إلا بعد أن =

لا يعلم بها أحد فتعلم قريش بأمر تحركها وتتخذ ما من شأنه أن يعرض السرية للفشل في مهمتها .

وفي خلال عمليات بدر ، أمر الرسول جنده «إن دنا القوم منكم فانضجحهم بالنبيل واستبقوا نبلكم على بعد فإن الرمى مع البعير غالباً يخطئ» . والرسول يقصد بهذا أن تظل قواته في مواقعها لا يعلم بأمرها عدوها ، وأن تختفظ بهدوء أعصابها ، وأن تضبط نبلها ، حتى إذا أصبح العدو على مرى النبل ترميه بها فتصيبه .

ومن الطبيعي أن العدو في خلال تقدمه يستمر في هذا التقدم ، طالما أنه لم يسمع للعدو صوتاً ، ولم يعرف له مكاناً ، وظيفي أن يستمر هذا التقدم ، حتى إذا أصبح على مرمى النبل ، وألقيت عليه النبل أصابت منه مقتلاً ، وحققت القوات الخفية عن عيونه انتصاراً بجانب سلامتها من نيله .

三

عندما استعدت قريش للهجوم على الرسول . في غزوة أحد ، وبعث العباس عم النبي إلى الرسول بكتاب مع رجل غفارى ينتمى بـ تجمعات قريش ، وتحركها إليه ، فوصل الغفارى إلى المدينة ووجد الرسول بقباء فسلمه الكتاب ودفع به الرسول إلى أبي بن كعب فقرأه عليه ، واستكتمه الرسول ما فيه ثم أبلغ الرسول خبر الكتاب أيضاً إلى سعد بن الربيع واستكتمه إياه . . . ترى ما المدى الذى كان يرمى إليه الرسول من أن يستكمم الرجلين أمر الكتاب؟ .

— أصبحت قوانه في وسط البحر وعلى مسافة بسيطة من سواحل مصر ، وأمل تشكيله هذا التحرك ، راجع إلى خوفه من أن يتسرّب أمر الحلة إلى ناسن عدو اللدود الذي كان يجول في البحر بماً عنه ليقضى على قوانه . وعلى مشروعه في غزو مصر ، وإنشاء امبراطورية فرنسية في الشرق .

وحدث فعلاً أن عث ناسن على أسلوله في أول قبر فهاجره وقضى عليه ، ولكن بعد أن فادرته القوات الفرنسية ... ولو أنه عثر عليه في البحر الأبيض والقوات مازالت به لسكاتن كارنة فادحة استطاع ناسن بعقله الهبارة وتقى كبره العميق أن يتعجبها .

وببدأ الرسول بعد العدة للتحافظة على سلامة قواته فأمر بحراسة المدينة طول الليل خوفاً من أن تفاجئها قريش بالمجموع ، ثم أمر بإيقاف جماعة استطلاع لتقف على أمر قريش ، ولعله يارسال هذه الجماعة كان يريد أن يعرف مدى تحركات قريش ، حتى بعد العدة لمواجهتها ، محاافظة منه على قواته ، وحاولت كتيبة من اليهود بقيادة ابن أبي أن تشتراك مع الرسول في محاربة قريش ، إلا أن الرسول رفض ذلك قائلاً « لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك مالم يسلوا » . ولعل الرسول قد رأى هذا الرأي لعدم اطمئنانه إلى وقوف طائفة من أهل الشرك ، بجانب المسلمين ، ليحاربوا طائفة أخرى من أهل الشرك ، ولعل الرسول قد خاف أن ينقلب الأمر خلال العملية فتضمن هذه الكتيبة من أهل الشرك إلى العدو ، وهو أيضاً من أهل الشرك ، ويتفق الطرفان على القضاء على الدين الجديد .

إذن فهذا الرفض من جانب الرسول يتفق مع معايته على سلامة قواته .
ورغبته في حمايتها خلال العمليات .

ورد الرسول بعضاً من المسلمين الخارجين في معركة أحد لصغر سنهم وفي هذا الرد حكمة أرادها الرسول ... فإنه عليه الصلاة والسلام خاف أن تروع قلوب هؤلاء ، ويفقدوا أعصابهم خلال الحرب ، فيخافوا ويتولام الذعر وينقلبوا على أعقابهم ، ويؤدي هذا إلى أسوأ التداعيات بالنسبة للعملية كلها ، ولهذا شاء الرسول أن يحمي قواته من الآثار الذي قد يتزكي هؤلاء المحاربون الأصغر فردهم إلى دورهم .

وعندما بدأت غزوة أحد أقام الرسول حسين رجلاً من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير بن النعمان على جبل صغير مرتفع وقال لهم « احروا ظهورنا ثلاثة يأتونا من خلفنا وارشقونم بالنبال فإن الخيل لا تفلت على النبل ... إنا لازمال غالبين مائتهم في مكانكم ... » .

وللرسول حكمة بالغة في وضع هذه القوة لتحمي ظهر قواته خلال اشتباكاتها مع العدو ، فلا تستطيع بذلك قوة العدو أن تهجم من الخلف وتوجه طعنة إلى ظهر الجيش المقاتل ، فينهار .. وأمر الرسول هذه القوة ألا تترك مكانها مهما كانت الظروف ، ورسم لها خطوط عملها في حالة الاتصال وفي حالة الانهزام ...

والمتبع لسير هذه العمليات يرى أن هؤلاء عندما خالفوا أمر الرسول واقتدوا بهدف الآسى الذي وضعهم الرسول من أجله في مكانهم ، وتركوا مكانهم وأسرعوا بشركون فيأخذ العناصر مع الغائبين ، فأجاءهم خالد بن الوليد من الخلف ، ومن المكان الذي وضعهم فيه الرسول . وأنقلبت المعركة من جانب المسلمين إلى جانب قريش ، حتى أن النبي شج وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من المفترق الذي يستر به وجهه في وجنته .

إذن فالرسول أدرك قبل الموقعة ، عند تقديره للموقف ، قيمة المؤخرة في المحافظة على سلامة القوات وفي حمايتها ، ولكن لم تنفذ قوة الجبل أوامره ، فذاقوا ومعهم قومهم هوان الهزيمة وذل الانكسار .

وبعد أن انتهت موقعة أحد قام اثنان من بني أسد ، هما طلحة وسلمة ابنها خويلا ، بحرضان قومهما ، ومن أطاعهما لمهاجة الرسول فقد الرسول لواء سرية من مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار لأنى سلمة بن عبد الأسد وأمره بالإغارة على بني أسد ، وكانت تعليمات الرسول إلى أبي سلمة ، هي أن يسير بقواته ليلا ، ويختفي نهارا ، وأن يسلك في تحركاته طريقا غير مطروقة ... وهذه التعليمات نفسها هي التي اتبعها الرسول في غزوة دومة الجندل ..

وهذه التعليمات هي ذات التعليمات التي يصدرها قادة الحروب الحديثة ، وفكرة السير ليلا والاختفاء نهارا . وسلوك الطرق غير المطروقة هي ذات الفكرة السائدة العالمية في خطط اليوم وعمليات الحروب الحديثة .

وفي غزوة ذات الرقاع خاف الرسول أن يعود بنو عطفان فيها جروا المسلمين ، وهذا أمر بإعداد الحراسة ليلا وقاية لقواته ومنعا من مواجهة العدو لها .

فقد قال الرسول « من يكثُرنا ليتلتنا هذه » ؟ فقام من المهاجرين عمار بن ياسر ، ومن الأنصار عبادة بن بشر فقالا « نحن يا رسول الله ». ولما خرج الإننان إلى موضع الحراسة ، قال عبادة لعمار « أى الليل تحب أن أكيفك : أوله أو آخره » ؟ قال « بل أكتفي أوله » .

وعندما اتصر عمرو في عمليةه ضد قضاعة ، منع قواته من أن تطارد العدو المتقهقر ، وتنزل بهم خسائر فادحة ، قد تؤدي إلى تحول النصر إلى هزيمة شنيعة ، ومنع قواته من إيقاد النار ، وغضب لذلك جنوده وأسرعوا عند عودتهم يشكونه إلى النبي ، فسأله الرسول عن سبب عدم مطاردته العدو وعدم السباح بإيقاد النار ، فقال عمرو قوله لا يتفق تماماً مع مبدأ سلامة القوات والمحافظة عليها ، فقد قال « كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً ، فيرى عدوهم قتلاً ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد » .

وفي غزوة حنين استفاد الرسول من الخطأ الذي وقعت فيه قوات الجبل في أحد ، وهذا جعل عند توزيع قواته خالد بن الوليد على رأس بني سليم في المقدمة ، وتولى هو بنفسه قيادة المؤخرة ، وكان لوجوده على رأس هذه القوة أثر كبير في تحول هزيمة المسلمين إلى انتصار عظيم في هذه الغزوة ، إذ ثبت الرسول في مكانه وحوله رجاله حينها هاجمت قوات مالك بن عوف قوات المسلمين بقسوة وعنف خلال اجتيازهم وادياً من أودية نهامة ، وشاعت الفوضى ، وولى المسلمين الأدبار ... ووقف الرسول ومعه رجاله من قوة المؤخرة ، ينادي الجموع الهاربة : « أين أيها الناس ! أين ! » ، وتمجّعت قوات المسلمين من جديد حول الرسول ، وعاد القتال فاشتد ، وانتصر المسلمين ..

ونفسه وجود الرسول مع قوات المؤخرة بتقديره لأهمية واجب هذه القوة في حماية ظهر المقاتلين ، فلولا وجوده لكان هزيمة المسلمين في حنين هزيمة شنيعة قاسية .

ولا تقتصر السلامة على مجرد وقاية القوات المتحاربة ، وهذه تسمى السلامة الحربية ، بل تشمل أيضاً وقاية الدولة ، وهذه تسمى السلامة الأهلية . والسلامة الأهلية في حياة الرسول ، تتعلق بسلامة الدعوة ، ووقاية الدين الجديد الذي كان يدعو إليه . . .

ولعل حمافطة الرسول على دعوته الجديدة هي التي دفعت به إلى محاربة اقتصاديات قريش ، لأنها وجدت في تدهور اقتصادياتها بقضائه على تجاراتها ، تدهوراً لحالتها السياسية ، وتدهوراً لقوتها الحربية ، فتضعف ولا تستطيع محاربة قوانه أو الوقوف في وجه دعوته .

ولقد وقعت غزوة بدر نتيجة لذلك ، وكذا وقعت الغزوات التي ثلت بدرآ . .

وكان من تأثير انهزام الرسول في غزوة أحد ، أن أثار هذا الانكسار القبائل العربية ضده ، كما أثار اليهود أيضاً ، وفكرت كل القبائل في النيل من الرسول ، وأحس عليه الصلاة والسلام بهذا كله ، فقرر أن يعمل على سلامته ، ولهذا أعد العدة لغزوات كبيرة ، وأرسل السرايا لتقضى على القبائل المتمردة الراغبة في قتاله .

وانتصار الرسول على بني أسد ، وبني النضير ، وبني غطفان ، وبني قينقاع ، وانتصاره أيضاً في السوق ، وحنين ، والطائف ، وتبوك ، تأكيد لعمل الرسول على صيانة السلامة الأهلية لدعوته ولدينه الجديد ، فباتصاراته هذه أمن دعوته من غدر هؤلاء ، وأضعاع عليهم الفرصة ليقضوا على الدين الجديد ، الذي جاء وانتشر على أهياض أدياهم جميعاً .

النظام والضبط والربط

إن الضبط والربط لازمان للجنود لزوم الماء والغذاء .

وإن جيشاً لا يسوده النظام لا يقوى على مواجهة حدوه ولا يحقق
أى نصر ، ولا يسود في أية معركة .
ولقد عرف الرسول هذا كله .

عندما تقرر خروج المسلمين من يثرب لمواجهة العدو ، قال أسد
ابن حنبل لمنرأى الخروج إلى قريش دون التحصن بالمدينة ، كما كان يرى
الرسول « لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة ، فقلتم ما فلتم
واستكربتموه على الخروج وهو له كاره ، فردوا الأمر إليه ، فما أمركم
غافلواه ، وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطیعوه ... » وندم هؤلاء عندما
سمعوا قول أسد ، لأنهم أشاروا بغير ما أشار به الرسول ، فأسرعوا إلى
الرسول يقولون « ما كان لنا يأمر رسول الله أن خالفك فاصنع ما بدا لك ،
وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك » .

ترى ماذا كان موقف الرسول وهو يعلم أن التردد خصم عنيد للضبط
والربط ؟

لقد قال الرسول لقومه « أنظروا ما آمركم به فاتبعوه والنصر لكم
ما صبرتم » . وهكذا أفي الرسول أن يعدل عن رأيه الذي قرره بعد دراسة
وبحث وتحقيق ، يجعل النظام والضبط والربط أساس عمله كقائد .

وبلغ من شدة حرص الرسول على النظام ، أنه كان يشرف بنفسه على
ترتيب أوضاع نساء المسلمين اللائي اشتراكن في العمليات ، وكان يجعل علمنهن
قائماً على أساس طيب من النظام الدقيق ، حتى لا يجدن هرجاً ومرجاً في أثناء

العمليات ، فيضع بذلك الضبط والربط اللازمان لها ، والواجب توافرها
خلالها . . .

وقيل إن الرسول في غزوة أحد كان يعد مكان النساء بنفسه ، خوفاً
من الإخلال بالنظام .

قلنا إنه بعد أن فر بنو محارب وبنو ثعلبة في غزوة ذات الرقاع ، خشي
الرسول أن يعودوا ثانية إليها ، فأمر بعض رجاله بتناول الحراسة ، وكان
يشدد في ضرورة مراعاة النظام والضبط والربط في أثناء الحراسة ، خوفاً من
مفاجأة العدو لهم ، ولو أن العدو كان يعلم أن الرسول لن يتم بالحراسة ،
لعاد إليه ، ولحدث ما حدث في غزوة أحد حينما فقد الجنود الرماة الضبط
والربط والنظام ، فتركوا أماكنهم طمعاً في الغنيمة التي سال لعابهم لها على أثر
قول أحدهم « لم تقيمون هنا في غير شيء » ، وقد هزم الله عدوكم ، وهزلاه
إخوانكم ينتبهون عسكراً فادخلوا فاغنموا مع الغانمين » .
لقد فقدوا الضبط والربط ، وتجاهلو النظام العسكري وتركوا أماكنهم ،
فها جهنم خالد ، وتحول نصر المعركة إلى هزيمة مرة في جانب المسلمين .

وجعل لنا الرسول من فتح مكة صورة حية للضبط والربط والنظام ،
فقد أصدر أوامره بعدم القتال وإراقة الدماء ، وكان سعد بن عبادة على رأس
فرقة أهل المدينة ، وكان عليه أن يدخل مكة من الغرب ، فلما سمع الرسول
أنه قال « اليوم يوم الملحمة . . . اليوم تستحل الحرمـة » . أفاله وولى مكانه
ابنه قيس ، لأن في هذا القول إزالة للضبط والربط من مسرح العملية ، وفيه
خروج على النظام العسكري ، الذي يجب على المحارب أن يطيع أمر قائده ،
وأن ينفذه دون تغيير أو تبديل .

الشـورى

إن القائد الذى ينفرد برأيه قد لا يستطيع أن يدرك الموقف كله على حقيقته ، فيضع خطة ناقصة لا تصل به إلى النصر الذى يبغىه ، ولهذا أشتقت بقيادات الجيوش هيئات أركان الحرب ، فتجمع هذه الهيئات لبحث الموقف ودراسة العوامل ، وتقرير الخطة الالازمة التى يرى غالبية الأفراد أنها أصلح المخطط وأحسنها للتنفيذ .

وكان الرسول الكريم ب رغم تقدم العصر الذى عاش فيه ، لا يحب الانفراد
أبداً برأيه فى العمليات ، بل كان يحاول دائماً أن يستخلص الرأى من حوله من
 أصحاب الآراء الطيبة ، والأفكار الصحيحة ، والذئار البعيد ، والرأى الصائب
والخطة السليمة ، وال فكرة المفيدة

كان الرسول يعلم تماماً أن رأى الجماعة مهما كان ، فهو خير من رأى فرد واحد ، وهذا هو ما أشار إليه القرآن دستور محمد وأساسه في الحياة ، وهذا لا يعد عجباً أن يجمع النبي أصحابه ليتشارو معهم كلما كانوا على وشك الدخول في عملية حرية .

• 8 •

عندما خرج الرسول لمقابلة قافلة أبي سفيان القادمة من الشام ، علم أن القافلة قد أفلتت بعد أن غيرت طريقها ، وعلم أيضاً أن قريشاً قد خرجت جميعاً ، فجمع أصحابه وتشاور معهم في الأمر ، هل يعودون إلى المدينة ، وقد أفلتت منهم القافلة أو يواجهون جيش قريش ، وتحدثت من الموجودين أبو بكر وعمر . ثم تحدث بعدم المقداد بن عمرو فقال « يا رسول الله امض لما أمرك الله ، فنحن معك والله لا نقول لك كذا قال بني إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاتلون .. ولكن اذهب أنت وربك

فقاتلنا إنا معكًا مقاتلون . . . وواهه الذي بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا إلى
برك الغاد جالدنا .

ثم قال الرسول لاصحابه ، أشيروا على أيها الناس . . ، فوافقوه جميعاً
على الخروج .

ونزل المسلمين بأدنى ماه ، وكان بينهم الحباب بن المنذر وهو عليم
بالمكان ، فلما رأى حيث نزل الرسول قال « يا رسول الله أرأيت المنزل ؟
أمنزلاً أنزلتك الله فليس لنا أن تقدمه أو تتأخر عنه ؟ أم هو الرأى وال الحرب
والمكيدة ؟ » فقال الرسول « بل هو الرأى وال الحرب والمكيدة » ، فقال الحباب
« يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماه من
ال القوم ، فننزل ثم نعور ما وراءه من القلب ، ثم نبني حوضاً فتملاه ماه ، ثم
نقاتل القوم فتشرب ولا يشربوا » .

بعد أن نزل الرسول عن رأيه وافق على ما أشار به الحباب ، وأعلن أن
الشورى لازمة لهم ، وأنه بشر مثاهم ، وأنه لا يقر رأياً دونهم ، وأنه يقبل
المشورة الحسنة منهم .

ولما كانت طليعة خيل قريش تقترب من المدينة ، جمع الرسول قومه ،
وأخذوا يتشارون ماذا يفعلون وكيف يتذرون ؟

رأى الرسول أن يتحصن المسلمون داخل المدينة ، وأن يتركوا قريشاً
خارجها ، فإذا حاولت اقتحام المدينة ، كان المسلمون أقدر على دفعهم والتغلب
عليهم ، أى أن الرسول كان يرى اتخاذ خطة الدفاع ، وأيديه في ذلك عبد الله
بن أبي الذي قال « لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ، نجعل النساء والأطفال
في هذه الصيادي ، ونجعل معهم الحجارة ، ونشبك المدينة بالبنيان فتسكون
الملصون من كل ناحية ، فإذا أقبل العدو ، رمته النساء والأطفال بالحجارة
وقاتلناه بأسياقنا في السكك . . . إن مدینتنا يا رسول الله عذراء ، ما فضلك
 علينا قط ، ولا دخل علينا فيها عدو إلا أصبناه ،

وكان هناك رأى آخر يقول بالخروج والهجوم ، قد يعلل العدو الدفاع بالضعف ، وهم قوم ملا الإيمان فلو بهم ، وجعل منهم قوة لاقلب ، وقال أحدهم ، إني لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها ليقولوا حصرنا محمدًا في صياصي يثرب وآطامها ، فتكون هذه مجرته لقريش ، وهام أولاء قد وطروا سمعنا ، فإذا لم نذهب عن عرضنا لم يزرع ، وإن قريشاً قد مكثت حولاً تجتمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ، حتى نزلوا بساحتنا . . . أفيحسبونا في بيوتنا ، ثم يرجعون وافرين لم يكلموا ! لتن فعلنا لازدادوا ، ولشنوا الغارات وأصابوا من أطرافتنا ، ووضعوا العيون على مدینتنا ، ثم لقطعوا الطريق علينا .

وسادت الروح العسكرية الإسلامية هذا النقاش ، وكانت تدعى إلى الجهاد ، فإما نصر عزيز المسلمين وخذلان لاعدائهم ، وإما نصر لعدوهم ، واستشهاد كريم لهم ، ويقول في هذا خديمة أبو سعدة . . . عسى أن يظفرنا بهم ، أو تكون الأخرى فهي الشهادة ، ولما كانت أمنية المسلمين جميعاً الجنة .

«لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا الْفَوْا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلَّا سَلَامًا»^(١)

فقد انتهى الأمر بالخروج وبهاجمة العدو ، برغم أن هذا الرأى يخالف رأى الرسول . . . ولكن الشورى — وقد كانت الأساس في حياة الرسول العسكرية — هي التي أوجبت ذلك .

وسارت قريش في عشرة آلاف تحت قيادة أبي سفيان ، متوجهة إلى المدينة وكان عدد قواتها في هذه المرة كبيراً خطيراً . . . وأحسن الرسول خطورة الموقعة القادمة ، فجمع قومه وسألهم الرأى والمشورة ، وقام سليمان الفارسي مشورته إلى الرسول في صورة خندق يحفر حول المدينة ، ويتحصن المسلمون داخله «يا رسول الله كنا بفارس إذا حصرنا خندقنا علينا . . . وأخذ

(١) سورة الواقعة ٢٥

المسلمون برأى سليمان ، ونفذت فكرته ، وحفر الخندق واتهت غزوة الخندق
بهزيمة الأحزاب وعودتها إلى مكة دون أن تصيب محمداً ورجاله .

وعندما اشتد خوف المسلمين من انضمام بنى قريظة إلى قريش وحلفائهم
الذين حاصروا المدينة ، فأوْضَنَ الرسول قائد بنى غطفان في قبول ثلث غلة
المدينة على أن يكفوا عن الحصار ، فقبلًا .

ولما علم بأمر ذلك الاتفاق سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة
سيد الخزرج ، قالا « يا رسول الله إن كنت أمرت بشيء فافعله وإن كان غير
ذلك فو الله ما نعطيهم إلا السيف » ، فقال الرسول « لم أمر بشيء » ، وإنما هو
رأي أعرضه عليكما » ، فقالا « يا رسول الله ما طمعوا بذلك منا في الجاهلية ،
فكيف اليوم وقد هدانا الله بك » ، فقال الرسول « فأنتم وذاك » ، وتناول سعد
بن معاذ الصحيفة ومحما فيها من كتاب .

وهكذا كان الرسول دائمًا يتشارو مع رجاله ، ويتناقش معهم في أمورهم .

ومرة أخرى أمام حصون خيريت يشاور الرسول مع أصحابه ، فيقول له
الحباب ، وقد رأى الرسول يواجه حصن النطة : يا رسول الله إنك زلت
منزلتك هذا ، فإن كان عن أمر أمرت به فلا تتكلم ، وإن كان هو الرأي
تكلمنا ، فقال له الرسول « هو الرأي » ، فقال الحباب « يا رسول الله إن أهل
النطة لـ لهم معرفة ، ليس قوم أبعد مدى منهم ، ولا أعدل رمية منهم وهم
مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم .. تحول يا رسول الله » .

ونزل الرسول على رأى الحباب وتحول إلى حسن ناعم .

الأسرى

لم يكن هناك نظام ثابت لمعاملة الأسرى حتى بعد خروجة بدر، إلا أن الرسول شرع نظاماً معيناً للأسرى شخص في أمور ثلاثة : الاقتداء والاسترقاق والقتل .

ولم يلجم الرسول إلى القتل إلا إذا كان الأسير أحد هؤلاء الذين اشتدوا في إيداهه وإلياه أهله وأصحابه ، وكان خطراً على دعوه ، وعلى رسالته ، ومن أمثلة ذلك قصة الأسيرين النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مبيط ^(١) ، فقد وقعا معاً في الأسر بعد بدر . وكان الإننان شريراً مستطيراً على المسلمين في أثناء وجود رذيم في مكة ، وكانت يحيان في أغلظ وسائل التعذيب لمحمد ولقومه ، وظننا أو كنتم التضر عندما نظر إليه الرسول في أثناء استمراره للأسرى ، وصود ذلك في قوله لرجل إلى جانبه « محمد وأئته » قد نظر إلى بعينين فهما الموت ^(٢) . ودعا النضر مصعب بن عمير وقال له « قل لصاحبك أن يجعلني كرجل من رجال الله فهو والله قاتل إن لم تفعل » ، وكان رد مصعب « إنك كنت تقول في كتاب الله

(١) أشار الدكتور هيكل في كتاب حياة محمد إلى قتل الأسيرين وإثارة المسلمين حينها فقال « يقف غير واحد من المستشرقين ضد أسرى بعد هؤلاء وبعد مقتل النضر وعقبة وبشارة دونه أليس في ذلك ما يدل على ظلمًا هذا الدين الجديد الذي أدمى لولاه ما قيل الرجال ولكان أكرم للMuslimين بعد أن كسبوا الموت أن يردو الأسرى وأن يكتفوا بالذلة التي فسروا لها بأن هذا النساول ما يليق أن ينهار ويندأعى إذا نهنأ وازدأع بين متقل النضر وعقبة وطهيرى اليوم وما سيجري اليوم داعياً ما دامت الحصاررة الغربية التي تفتح بوهان المسجدة سخكة في الأرض ، فهل تراه يوازي شيئاً إلى جانب ما يتبين باسم قمع التورات في بلاد يمكنها الاستهلاك على كره من أهلها ؟ وهل تراه يوازي شيئاً إلى جانب ما وقع من مجازر المغرب الكبير ؟ »

وأضيف إلى إشارة الدكتور هيكل في هذا المجال « هل هنا يتوzi عيّناً ما حدث وما يزال يحدث في الجزائر ؟ وهل هنا يوازي شيئاً ما حدث في فلسطين العبرية ؟ »

(٢) قتل له الرجل الذي يحيانه « ما هذا وأئته منك لا ورمب »

كذا ، وفي نبأه كذا ، وكنت تعتذر أصحابه .^(١)

وحلول المقداد أن ينقد النصر فقال «النصر أسيري»، هردد النبي «أضرب عنقه»،^(٢).

وأما عقبة بن أبي معيط فقد صاح في النبي عندما أمر بقتله «فن للصبية يا محمد؟، فرد النبي «النار»،^(٣).

وكان موضوع الأسرى بعد غزوة بدر موضع نقاش راجعاً تشاره بين المسلمين ، ولم يشاً النبي كما هي عادته أن ينفرد برأي .

روى الطبرى أنه لما جيء بأسرى بدر كانوا أربعة وأربعين ، وقيل سبعين ، قال الرسول لصحابه «ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟»، فقال أبو بكر «يا رسول الله إقونك وأهلك استبقهم واستأنهم ، لعل الله أن يتوب عليهم»، فقال الرسول لعمر بن الخطاب «ما ترى يا بن الخطاب؟»، قال «لا والذى لا إله إلا هو ، ما أرى الذى رأى أبو بكر يا بني الله»، ولكن أرى أن تمكناً منهم ، فتمكناً عليناً من عقبيل فيضرب عنقه ، وتمكناً حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكناً من فلان فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناد يده .» وقال عبد الله بن رواحة «يا رسول الله انظر وادياً كثيراً الخطب ، فادخلهم فيه ثم أضرمه عليهم»، وسكت الرسول ولم يجدهم .. فقال ناس يؤخذن بقوله أبو بكر . وقال ناس يؤخذن بقول عبد الله بن رواحة ، ثم خرج عليهم الرسول وقال «إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبان ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبو بكر مثل إبراهيم قال :

(١) قال النضر لمصعب «لو أسرتك قريش ما قتلتك أبداً وأنا حى»، هردد «صعب» وافت «أنى لا أراك صادقاً».

(٢) قيل إن عيناً هو الذى قتله .

(٣) قيل إن قاتله هو علي وف رواية أخرى قبل الله عاصم بن ثابت

«فَإِنْ تَبْغِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»^(١).

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال :

«إِنْ تَعْذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَنْفِرْهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ»^(٢).

ومثلك يا عمر مثل نوح قال :

«رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا»^(٣).

ومثلك مثل موسى قال :

«رَبَّنَا أَطْسِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا

الْعِذَابَ الْأَلِيمَ»^(٤).

ثم قال رسول الله «أنتم اليوم عالة فلا يفلن منكم أحد إلا بفداء ثم ضرب عنق، فقال عبد الله بن مسعود «إلا سهيل بن يضاء فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ثم قال «إلا سهيل بن يضاء، وأنزل الله عز وجل هذه الآية

«مَا كَانَ لَنِبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرٌ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ
تُرِيدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»^(٥).

وروى الطبرى وابن هشام أن الرسول بعد أن فرق الأسرى على أصحابه
قال لهم «استوصوا بالأسرى خيراً».

(١) سورة إبراهيم ٣٦

(٢) سورة المائدة ١١٨

(٣) سورة نوح ٢٦

(٤) سورة يونس ٨٨

(٥) سورة الأنفال ٦٧

وهذا الذي انتهى إليه المسلمين في معاملة أسرىهم هو آية كبيرة تتجلّى فيها مظاهر الرحمة والرأفة والحسنى، ولا عجب في ذلك قصة الشاعر أبو عمارة ععرو بن عبد الله^(١) هي أوضح برهان على ما تعلّمك المسلمين من سبل فياض من الرحمة والرأفة، إذ تقدّم هذا الشاعر إلى النبي وصاحب «لى خس بنا» ليس لهن شئ، فتصدق بي عليهن يا محمد وإنى معطلك موتفقاً لا أقائلك ولا أكبّر عليك أبداً، فما كان من الرسول إلا أن أمنه على نفسه وفلك أسره دون فداء.. وكان الفداء عند المسلمين يتّردد بين أربعة آلاف درهم وألف درهم للرجل وكان النبي يمن بالحرية على من لا يملك شيئاً.. وهذا هو ثابتة الحكمة وبالغ الرحمة.

ولقد كسب المسلمون باتخاذهم الفداء وسيلة في معاملة الأسرى، إذ أن كثيراً من الأسرى كانوا يتعلّمون إسلامهم عن عقيدة وإيمان... وما هو ذا أبو العاص بنollarبيع زوج ابنة النبي، يقع في الأسر، وكان النبي قد فرق بينه وبينها، عندما رفض اعتناق الإسلام، وما أن علم بوجود زوجته السابقة حتى انحدر إليها ليلًا، ودخل عليها فاستجارها وأجارته، ورد إليه المسلمين ماله، وخرج إلى قريش وأعطى كل ذي حق عنده حقه^(٢)، ثم صاح فيهم «إن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله واقه ما منعني من الإسلام عنده إلا مخافة أن تظنوا أنني آكل أموالكم فلما أدارها الله إليكم وفرحت منها أسلت».. وعاد إلى المدينة ورددت إليه زينب وعاشر تحت ظلال الإسلام.

(١) يقال له أنه بدأ أن فك أسره في هذه المرة عاد غارباً من الرسول في غزوة أحد ظاهراً أمر النبي بقتله.

(٢) قيل له «كان في ثماره بعض رجال قريش فلما رأه المسلمون له ماله انطلق يصرع بهوره للرجلين ثم قال «هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذني؟» قالوا «لا جزاك الله خيراً فقد وجدناك وفيك كريراً»

كان الأسرى بعد فتح مكة خمسة عشر أسبوعاً . مما أتى عن أحد عشر منهم ، ولم ينظر إلى ما كان منهم في حال كفرهم ، لأنهم كانوا يعيشون قبل الإسلام في جهل وضلال ، متاثرين بأحوال بيتهم ، فلهم في ذلك شيء من العذر ، وأخذهم بالعفو أولى وأجدر ، والإسلام دين هداية ورحمة لا دين تشف وانتقام .

وما لا شك فيه أن الإسلام قد ضرب مثلاً صالحًا في معاملة الأسرى لعلم الناس أن الأولى أخذهم بالعفو بعد القدرة عليهم .

وفتح مكة يعطينا صورة واضحة عن معاملة النبي لأسراء ، فعندما دخل واجتمع بين يديه أهل قريش أسرى – وكان على رأسهم أبو سفيان – هؤلاء الذين اتسروا عليه ليقتلوه ، وعذبوه وأصحابه وقاتلوه في بدر وحاصروه في الخندق ، وأثاروا عليه العرب ، وحاولوا أن ينالوا منه مقتلًا .. هؤلاء جميعاً أسرى بين يديه يتطلعون في فلق إلى مصيرهم .. وتحركت شفنا الرسول .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُتُّبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِخَيْرِهِمْ »^(١)
ثم « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ، قلوا ، خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم » ، وتحركت الشفتان من جديد لتقرر مصير هؤلاء الأسرى « إذهبوا فأنتم الطلقاء » ، وصدر بذلك العفو الشامل السكامل عن قريش دون فداء ..

وكان ضمن الأسرى بعد فتح مكة عبد الله بن خطل ^(٢) ، وعندما شعر بأنه

(١) سورة الحجرات ١٣

(٢) قيل إنه ركب فرسه يوم فتح مكة وليس درجه وأخذ يده قتاه وصار يقسم « لا يدخلها محمد عنوة » فلما رأى خيل المسلمين أدرك المحوف فذهب إلى السكبة وتسلق بأستارها .

سبع في الأسر ، ذهب إلى الكعبة وتعلق بأسارها ، ظناً أن ذلك سينجيه من القتل الذي كان يتوقمه على يد الرسول ، وعندما رأه النبي وهو متعلق بأسار الكعبة قال ، اقتلوه .. فإن الكعبة لا تعيد عاصياً ، ولا تمنع من إقامة حد واجب ، رفيف إن قاتله كان أبو بربة الأسلبي .

وفي يوم حنين كان عدد الأسرى ضخماً إذ بلغ ما يناهز ستة آلاف أسير ومع هذا أطلق النبي صلى الله عليه وسلم سراحهم جميعاً منه وفضلاً .

ونحن في حديثنا عن الأسرى في حروب الرسول لا يفوتنا أن نتوه بما يناله الأسرى في الحروب الحديثة من معاملة سيئة فاسية عنيفة ، برغم وجود النظم الدولية الخاصة بالأسرى ، والتي تحدد كيفية معاملتهم ومعيشتهم داخل الأسر ، وما يقومون به من أعمال ، وكيفية إخراجهم من الأسر وإعادتهم إلى وطنهم .. إلا أن رسول في العصور الحديثة جعلت من هذه النظم حبراً على ورق ، ولم تتحترم عهداً من المعهود أو ميثاقاً من الموثيق ومن بينها موثيق معاملة الأسرى ، وما زالت السجون مليئة بأسرى الحرب العالمية الأخيرة ، برغم مرور إحدى عشرة سنة عليها ، وما يزال الأسرى يلاقون العذاب والمهانة والنذل ، ويعاملون معاملة سيئة لا تمت إلى الإنسانية بصلة .. معاملة فاسية عنيفة تعيد إلى الأذهان صور الرقيق ، وما كانوا يلاقونه من عذاب المؤون ، ويُعانونه من الضيم .

وكم تمنى ونحن ننشر هذه الصفحات الكريمة من حياة الرسول العسكرية أن يطلع المسؤولون في القوات المسلحة في جميع أنحاء العالم على المعاملة الطيبة التي كان يعامل بها الرسول الكريم أسراء ، وعلى مظاهر الإنسانية الرفيعة التي كانت تكون العلاقة بين القائد العسكري وبين أسرى الحرب .

الروح السمحنة في الحرب

إن مسرح الحرب لا يخلو برغم شدة الطلقان والانفجارات ، وهوى الرصاص والمدفع ، والقتل والطعن ، والضرب والنزال ، من بعض مظاهر الرحمة والعطف الإنسانية .

وهذه حالة وضحت تماماً ، وظهرت لكل قارئ أو لكل باحث في تاريخ الحروب الإسلامية .

فإذا إن الحرب كانت في الإسلام تهذياً لفكرة الحرب ، حتى أنه اختفت في حروب الرسول ، جميع مظاهر العنف والشدة والقسوة التي كانت تسود الحروب ، والتي صورها عمرو بن معد يكرب :

الحرب أول ما تكون فتية تسعي بزيتها لكل جهول
حتى إذا احبت وشب ضر اها عادت عجوزاً غير ذات خليل
شعلاء جزت رأسها وتنكرت مكرومة للشم والتقييل

ونحن قبل أن نعرض هذه الناحية الإنسانية النبلية في حروب الرسول الكريم ، فإننا لا ننسى أن نشير هنا إلى الفضيحة الكبرى المخزية التي أثارها المخلفاء على مسرح العالم بعد الحرب العالمية الثانية حينما اتقموا من أعدائهم ، وقصد بها حمايات مجرى الحرب التي أوضحت كيف عامل متصرفو القرن العشرين أعداءهم ، كيف قدمواهم إلى المحاكمات الصورية ، ثم كيف أدانوهم وأعدموهم ، وكانت هذه المحاكمات نقطة سوداء بل صفحة داكنة في جبين الإنسانية والحضارة ، وأيدت هذه المحاكمات القول القائل « الويل للمغلوب » ..

لم ينس الرسول الكريم خلال غزوته بدر الأعمال الطيبة التي قامت بها بعض القبائل نحوه وهو في مكة .

لم ينس لبني هاشم منهم إياه مدي ثلاثة عشر عاماً من يوم بعثته إلى يوم
يهرّته حتى أن عمه العباس كان معه ليلة المقبة ..

ولم ينس لغيرهم موقفهم النبيل ، يوم دعوا إلى نقض الصحيفة الفاضحة
بها فريش أن يلزم هو وأصحابه الشعب .

لم ينس الرسول هذا كله بل اعتبره معروفاً يجب أن يقابل بالمعروف ،
ولهذا أصدر أوامره في غزوة بدر إلى رجاله بعدم التعرض لبني هاشم ولغيرهم
من سادة قريش وهم أصحاب الفضل على دعوته ، برغم أن هؤلاء الذين وصى
عليهم ، ما كانوا ليتركوا مسلماً يقع في أيديهم حياً ، بل كانوا سيقتلون من
المسلمين من يستطيعون قتله .

وبلقت الروح السمححة أروع منازلها بعد غزوة بدر إذ اجتمع بين يدي
محمد عدد كبير من الأسرى ، فقرفهم الرسول على أصحابه ووصام بهم خيراً
إذ قال ، استوصوا بهم خيراً ..

وحدث أن عز على عمر بن الخطاب أن يفتدى سهيل بن عمرو ، وينجو
دون أن يصييه مكروه ، وكان مكرز بن حفص يبغى فداء فقال عمر للرسول
﴿ يارسول الله دعني أزع ثني سهيل ، فيدخلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً
فيبعطنه لمبدأ ، فنان جواب الرسول بالغاية السمو تظاهر من بين الفاظه
الرحمة والإنسانية ، لا أتأمل به فيمثل الثني وإن كنت نبياً ﴾

وتقديم الروح الإنسانية النبلية المسيطرة على الرسول وهو يحارب في
الميدان ، عند ما هدده دعثور رئيس غطفان بالقتل ، حتى إذا وقع دعور بين

يُدْعى الرسول ، منحه الصفح والحرمة وكان في استطاعته قتله ، ولكن لمنه
المعاملة الكريمة أثراها في نفس دعنور فأعلن إسلامه ودعا أمه إلى الدخول
في الإسلام .

ومن أهم مظاهر الروح السمحاء الكريمة في الإسلام تحرير القرآن قبل
المرضى والشيوخ والنساء ، وهذا التحرير تهذيب واضح وصرخة لفكرة
الحرب التي كانت وما زالت لا تفرق بين المحاربين في الميدان ، والقابين
في البيوت ، فها هو ذا أبو دجانة يلقي في الميدان هند بنت هتبة وهي تدور بين
الصفوف في غزوة أحد ، تشجع المحاربين وتثيرهم ضد جنود الإسلام ، ففكرا
في قتلها ، ثم أبعد الفكرة وهو يقول « كرهت أن أضرب بسيف رسول الله
امرأة لأناصر لها » .

وتبليغ الروح السمحاء لدى الرسول أسمى درجاتها في حادثة أبي سفيان قبل
غزوة الفتح الكبرى ، فقد دار بينه وبين النبي حديثاً (سبقت الإشارة إليه) ،
وتدخل العباس عم الرسول ودعا أبي سفيان إلى الدخول في الإسلام ، وقال
للرسول « يا رسول الله إن أبي سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً » ،
قال الرسول « نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ... » .

وهكذا أنهى الرسول بروحه السمحاء الكريمة موقفه مع أبي سفيان ، الذي
كان قد أثذر بعد بدر إلا يمس ما رأسه حتى يغزو محمدأ .

ومن المعروف أن للنصر في المعارك الفاصلة التي تنتهي بها الحروب العامة ،
نشوة تفرى بالطغيان في التشفي إذا كان المتضرر ظالماً ، وبالانتصاف والتآديب
إذا كان عادلاً ، ولا يتيسر الصفح الجما ، والعفو النبيل في مثل هذه المواقف
إلا لصقور الله من خلقه :

والقائد الحكيم هو الذي يحسم يوم نصره . حسابه ، وبعد لوعده ،

غبوط نفسي على كبح جاجها عند الفلة ، وصد الفتوة عن امتدادها كيلا تطفى ، وغاية السمو هنا أن تنديد المتصر بالإصلاح ومداواة الجراح عند أعداء الأمس .

بها الإصلاح يسترق هزلاء الأعداء ، فطالما استعبد الإنسان إحسانوها هو ذا موقف الرسول الكريم وهو في أرج انتصاره يوم الفتح الأعظم بالنسبة لقريش وأهل مكة الذين عارضوه وسفهوه وعذبوه وأخرجوه من داره بغير حق ، ولم يتركوا وسيلة من وسائل العداون الباغي ، والتشفق الرخيص ، والبغى اللثيم إلا فعلوها معه .

إن صيحة سعد بن عبدة يوم الفتح ، وإسراع عمر وعثمان وابن عوف إلى الرسول يقولون « إننا لا نأمن سعداً أن تكون منه في قريش صولة » . وإن شاد خرار بن الخطاب القرشي على مسمع من رسول الله شمراً يستعطفه به :
إن سعداً يريد قاصمة الظهر بأهل المحجون والبطحاء
إذ ينادي بذل حي قريش وابن حرب بما من الشهداء
ومناجاة أبي سفيان للرسول ، يارسول الله ألمت بقتل قومك فإنه زعم سعد ومن معه حين مرتانا أنه قاتلنا ، أشدك الله في قومك فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم » .

كل هذا دفع بالرسول إلى أن يعزل سعداً من قيادة الفرقة ، ويولى ابنه فبيساً مكانه ، ويقول « اليوم يوم المرحمة ... اليوم أعز الله فيه قريشاً » ..

وبعد انتهاء الفتح أعلن الرسول صفحه الجميل الكريم وهتف في قريش هتافه الحالد « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وكانت أبرز ظاهرة بعد إتمام الفتح أن قريشاً لمست فسحة صدر الرسول وغفوه ، فطماع أهلوها في الدخول في الإسلام ، وجاء الكثيرون يطلبون

(١) كانت صيحة سعد « اليوم يوم الملحمة ... اليوم أذل الله قريشاً » .

الصفح والمغفو ، وكان الرسول سمحاً كريماً معهم جميعاً ، قبل توبيهم وإسلامهم ومن هؤلاء ابن أبي السرح وعكرمة بن أبي جهل^(١) وزوجه أم حكيم وهند بنت هتبة زوج أبي سفيان .

وكان الرسول قد أمر بقتل عدد من المشركين ولكنه عاد فصفح لهم جميعاً ماعدا أربعة أمر بقتلهم حتى لو تعلقوا بأستار الكعبة^(٢) .

وعندما فتح الله مكة لنبيه ، جاءه هبار بن الأسود وقال له : يا رسول الله كنت حممت أن أفر إلى بلاد فارس ولكنني تذكرةت عفوك العام وصفحك الشامل بخيتك معترفاً بجميع ما بلغتك من ذنبي . فشله الرسول بعفوه وفتح له باب رحته .

خرج وحشى قاتل حزة من الطائف ، بعد فتحها ، هارباً يلتقط مكاناً آخر يختبئ به ، فلما أطل سلطان الإسلام هذا الخبا ، قال له قاتل : إنك لا تعلم ما نعلم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، إنك لن تجد لنفسك مأناً إلا عنده ، فحضره وحشى خائفاً ، فلما وقع عليه نظر النبي عليه السلام ، غض عنه بصره وتذكر عمه حزة فندرفت الدموع من عينيه الشريفتين

ما هو ذا القاتل أمامه ويستطيع الرسول بقوته وبنفوذه وبسلطانه أن يقتضي منه . . . ولو كان فعل لكان ذلك حقاً وعدلاً ، ولكنه عليه الصلاة والسلام عفا عنه ، واكتفى بأن صرفة قاتلاً : إلينك عنى ، فإن إذا رأيتك تذكرةت عمي حزة وشهادته . . .

(١) كان عكرمة أدار إلى المدين وكانت زوجته قد أسللت نذرت للنبي وعادت به للدّيّنة فلما بلغ الرسول قدومه سارع بربب به حتى سقط عنه وداهه ثم قال له « مرجاً بالراكب المهاجر . . . »

(٢) من الأربعة الحميريّة الذي أغري بزيف بنت النبي حين دجعوا لها إلى المدينة ، ودخلان إسلاماً ارتكبا جريمة قتل بالمدينة وفرا راجعين إلى مكة مرتدين إلى الفرك .

وَهَا هُوَ ذَا كَبْ بْنُ زَهِيرٍ تُضيقُ بِهِ الْأَرْضُ وَلَا يَجِدُ لَهُ بَحِيرًا فَيَأْتِي إِلَى
الْمَدِينَةِ بَعْدَ عُودَةِ الرَّسُولِ إِلَيْهَا مِنْ مَكَّةَ وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ فَيَعْلَمُ إِسْلَامَهُ وَيَشَدُّ
قَصْبِدَتِهِ فِي مَدْحِ الرَّسُولِ وَلَا يَنْسَى أَنْ يَذْكُرَ فِيهَا الرُّوحُ السَّمَحةُ الْكَرِيمَةُ الَّتِي
أَمْتَازَ بِهَا الرَّسُولُ وَالَّتِي عَوْمَلَ بِهَا أَعْدَاؤُهُ .

أَنْبَثَتْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ

وَمِنْ قَصْصِ الْعَفْوِ الَّتِي لَا مِثْلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، عَفْوُ رَسُولِ اللَّهِ عَنْ زَعِيمِ
الْمَنَافِقِينَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ، فَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ عَدُوًّا لِدُودًا لِلْمُسْلِمِينَ يَتَرَبَّصُ بِهِمْ
الْدَّوَائِرَ ، وَيَخَالِفُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ . وَيَعْلَمُ لَمْ الْمُؤْمَنَاتِ ، وَلَا يَمْهُدُ فَرْصَةً
لِلطَّعْنِ عَلَيْهِمْ وَالنَّيْلِ مِنْهُمْ إِلَّا اتَّهَزَهَا ، وَهُوَ الَّذِي أَشَاعَ قَالَةَ السَّوْمِ عَنْ
أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ ، وَجَعَلَ الْمَرْجَفِينَ يَتَهَامِسُونَ بِالْإِفْكِ حَوْلَهَا ، وَيَهْزُونَ أَرْكَانَ
الْجَمَعَةِ الْإِسْلَامِيِّ هَذَا بِهَذَا الْإِتَّهَامِ الدُّنْيَا .

وَعِنْدَمَا أَكْتَسَحَ الْإِسْلَامُ أَرْضَ الْجَزِيرَةِ اسْكَنَشَ أَعْدَاؤُهُ وَمِنْهُمْ أَبْنَى
الَّذِي سَرَّضَ وَمَاتَ .

وَجَاءَ وَلَدُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ يَطْلُبُ مِنْهُ الصَّفْحَ عَنْ أَيِّهِ صَفْحُ الرَّسُولِ ،
ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَكْفُنَ فِي قِبْصِهِ فَنَحَّهُ إِيَاهُ ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَصْلِي عَلَيْهِ
وَيَسْتَغْفِرَ لَهُ ، فَوَقَفَ الرَّسُولُ أَمَامَ جَهَنَّمَ الطَّاعُنَ فِي عَرْضِهِ يَسْتَدِرُ لِهِ الْمَغْرِفَةِ
وَيَعْفُوُ عَنْهُ .

هَذِهِ هِيَ الْوَسِيلَةُ الْمُهْذِبَةُ الْكَرِيمَةُ فِي مَعْالَمِ الْأَعْدَاءِ وَفِي الْعَفْوِ عَنْهُمْ .

وَهَذَا هُوَ مَا حَقَّقَهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَرَبَ بِهِ الْمَثَلُ فِي السَّيَاحَةِ
الَّتِي لَا عَهْدَ بِمُثْلِهَا لِلْعَالَمِ وَلِلْإِنْسَانِيَّةِ وَلِلْحَارِبِينَ . . . السَّيَاحَةُ الَّتِي تَعْنِي كَرَمَ
الْعَفْوَ ، وَجَلَالَ الصَّفْحِ ، وَدَمَائِنَةَ الْخَلْقِ ، وَسُعَةَ الْصَّدْرِ ، وَكَرَمَ الْمَعْدَنِ . . .

هَذِهِ هِيَ سَيَاحَةُ الرَّسُولِ يَتَقدِّمُ بِهَا إِلَى الإِنْسَانِيَّةِ عَامَةً لِيَكُونَ ذَلِكَ فِي خَيْرِ
أَسْوَةٍ وَأَعْظَمِ قُوَّةٍ . . .

جَمِيعَ الْأَطْرَابِ

1

الصَّوْتُ الْمَعْنَوِيُّ

العوامل التي تؤشر على المفرد منفردًا

العوامل التي تؤثر على الفرد مجموعاً

العوامل التي تؤثر على الأفراد منفردين ومجتمعين

من أهم العوامل التي تعمل على نجاح الحروب وتسبب الانتصار العوامل المعنوية ، وهذه تشمل صفات الجنود وأخلاقهم وحسن نظامهم وشجاعتهم وإخلاصهم وقوة احتمالهم وقدرة قادتهم وكفايتهم واعتقادهم بأحقية الفرض الذي يحاربون من أجله ثم إرادة الأمة المتحاربة وقوتها إيمانها ..

ويتوقف نجاح الحروب على الصفات المعنوية أكثر من توفره على الصفات المادية فلا العدد ولا التسلح ولا موارد الدولة ولا المهارة تقوم مقام الشجاعة والإقدام والرغبة في إحراز النصر . . . فنواتر الصفات المعنوية في نفس الجندي من أهم عوامل إقدامه على الحرب بروح قوية وعزماً أكبر وعقيدة راسخة .

ويقول كلاوزفيتز إن القوة المعنوية بناءة الروح التي تسيطر على مجموعة عمليات الحرب . . .

وفى **الكتاب** الكولونيل فلتر Fuller Col. العوامل المعنوية ثلاثة أقسام :

١ - العوامل التي تؤثر على المرء منفرداً كالقيادة والشجاعة والإيمان والمهارة .

٢ - العوامل التي تؤثر على الفرد بمحوعاً كحب الوطن والإخلاص والانتحار بالوحدة .

٣ - العوامل التي تؤثر على الأفراد منفردين وبمجتمعين كقدرة العقبة والثقة .

وفي ضوء هذه الأقسام الثلاثة للعوامل المعنوية سنتحدث عن القوى المعنوية في حروب الرسول .

العوامل التي تؤثر على الفرد منفرداً

١ - الإيمان

(١) ذهب وفد إلى أبي طالب عم الرسول يقول له ، يا أبو طالب إنك سناً وشرفاً ونذلة فينا وقد أستيناك من ابن أخيك فلم ته عن إنا وآله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسيه أحلامنا وعيوب آهتنا حتى تكتفه هنا أو ننذرله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين ، . وسار أبو طالب إلى ابن أخيه يقول له ، أبقي على نفسي ولا تحملني من الأمر مالاً أطيق ، .

واستمع الرسول إلى قول عمه ، ثم تطلع إلى رسالته فرأى أنها رسالة حتى واخبر مدح إيمانه بها فوجده إيماناً لا مثيل له ولم يجد بدأ من أن يواجهه عه ويقول له في صراحة وإيمان « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته ، . ولهم يملك أبو طالب إلا أن يقول ، اذهب يا بن أخي فوالله لا أسلفك لشيء أبداً ، .

(ب) وبعثت قريش عتبة بن ربيعة سفيراً لها إلى محمد يقول له ، « يابن أخي إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقتك به جماعتهم فاسمع ما أعرض عليك أموراً لعلك قبل بعضها .. إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً . وإن كنت تريد تshireينا سودناك علينا فلا تقطع أمراً دونك وإن كنت تزيد ملكاً ملكونا لك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك ربيباً^(١) تراه لا تستطيع ردك عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبراً ، .

(١) مس من الجن .

وبعد أن استمع الرسول إلى ما عرضه عليه سفير قريش ، فرأى عليه قول الله تعالى .

« ألم . تَنْهِيَلُ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَتُتَذَرَّ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »^(١)

واحدة هيبة بما سمع وأذهله هذا الإيمان العميق الذي لمسه من محمد وذهب أن تهار كل الإغراءات التي قدمها أمام صدق إيمانه بدجوهه وبنصر رببه .

(٢) ولم تقم دعوة الرسول على مجرد إيمانه التي انبع من الصفتين السابقتين وإنما قامت أيضاً على مدى إيمان رجاله بالدين الجديد ، فقد خلق هذا الدين في نفوس رجاله نوعاً راقياً من الإيمان جعلهم لا يترددون في تنفيذ أي أمر من أوامر الرسول . . . أمر بالهجرة إلى الحبشة وترك ديارهم وأوطانهم وقبائلهم ، فقبلوا عن طيب خاطر ، وكان لامنه عند النجاشي ولسكنتهم إلى دينهم بين قومه أثره في نفس قريش فأعجبوا بهذا الإيمان الذي سما بنفسهم فوق الأذى والظلم حتى أصبحوا يرون في الصبر على الآلام فربما .

ولقد دخل الإيمان قلب عمر وهو يهم بتعذيب أخيه وزوجها فلنا قرأ القرآن تظهرت روحه وتملكته المشاعر السامية والمبادئ العالية التي يدخلها إليها القرآن خرج من يديت أخيه يعلن إسلامه على الملا .

وتمكن الإيمان جنود محمد من الانتصار على أعدائهم انتصاراً ساحقاً حتى أنهم كانوا إذا أعدوا سرية أو تجهزوا لغزوة ، وسمع العدو بتحرككم إليه يترك بلدته وخيروه ويفر في الجبال خوفاً منهم . . . فعندما سار الرسول إلى غزوة دومة الجندل وعرفت القبائل سيره - وتصورت كف يجعل الإيمان

رجاله يستسلون برغم قتيلهم ويحذرون سرباً لامواهاد فيها ، وكل واحد منهم يأمل الاستشهاد ويود أن يسبق الآخرين إلى الجنة — فرت وترك خاتمة كثيرة .

وبماذا نصور إيمان أم حبيبة زوج الرسول وأبنته أبي سفيان ؟ لقد ذهب إليها أبوها قبل غزوة الفتح وأراد أن يجلس على فراش الرسول فطعنه أم حبيبة وقالت له « هو فراض رسول الله وأنت رجل مشرك نجس ولا أحب أن تجلس عليه لقد أهانت أم حبيبة أباها من أجل الدين الجديد الذي يدعوه إليه زوجها ، ووصفت أباها بأسوأ الصفات لأنه ما زال مشركاً لم يعرف رسالة زوجها ولم يشهد كما شهدت بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

القيادة الحكيمية

(أ) القيادة الحكيمية من العوامل التي تؤثر في الفرد منفرداً . . . والرسول الكريم كان خيراً مثل القائد الحكيم ، ووقفته في بدر الآخرة خير دليل على ما نذهب إليه ، إذ بلغه أن أبي سفيان قد أعد جيشاً لمقاطعة المسلمين ولاحظ الرسول أن المسلمين يريدون أن يتبعوا الخطر إذ أظهر كثيرون الرغبة عن التهوض والسير إلى بدر فقضى الرسول وأقسم أن يذهب وحده وقال « والذى نفسي بيده لو لم يخرج معى أحد لخرجت وحدي » .

(ب) وفي غزوة حنين هاجت قوة مالك المسلمين وهم يحتذرون وائياً من أودية تهامة ، فاختلط أمر المسلمين وكان للجاجة أذراً ما فاحت صفوهم وتراجعوا ولووا الأدبار . . . أما الرسول القائد فقد ثبت في مكانه وصه بعض أصحابه وأخذ ينادي في الجموع « أين أبها الناس ؟ أين ؟ ، واستغفح يعلمه العباس فأخذ ينادي في المسلمين ويدعوهم إلى الرسول ، واستعبات الجموع لبعورته ودوى في الميدان للنداء الحالـ « ليك ... ليك ... ، وانتصر المسلمين بفضل ثبات قائمـ ورسولـ .

ويقول علي بن أبي طالب « كنا إذا اشتد البأس أقينا برسول الله
صلى الله عليه وسلم » .

(ح) وفي غزوة الخندق اشتراك الرسول في الحفر . . . لم يشاً أن يترك ذلك لرجاله على أساس أنه قائد له أن يصدر الأمر ثم يراقب تنفيذه ، وإنما أراد أن يضرب بجنده المثل فشاركبم في الحفر وكان يحمل معهم التراب مما حفر جنده فأقبلوا على الحفر حتى تم كله في ستة أيام .

٣ — الشجاعة

(ا) وكانت شجاعة المسلمين وما زلت مثلاً للبحاريين ورانياً للعسكريين خلال قتالهم في غزوة أحد كان الرسول يمر بين الصفوف يثير الحاسة ويحسن على القتال ويعد جنوده بالنصر . . . وحدث أن مد الرسول يده بسيف وقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » ، فقام أبو بكر وعمر والزبير وعلى فامسهك الرسول عنهم ، ثم أعطاه لابي دجانة ، فقال أبو دجانة سائل الرسول « وما حقه يا رسول الله ؟ » ، قال « أن تضرب به في وجه العدو حتى ينتحن ، » ، وعصب أبو دجانة رأسه بعصابة حراء وحمل السيف وخرج يمشي مختالاً فقال الرسول « إنها مشية يغضها الله إلا في مثل هذا الوطن . . . »

(ب) وفي حصار خيبر خرج قائد يهود بنى خير يقول : « لقد علمت خير أنى مرحب . . . شاكى السلاح بطل مجرب . . . إذا المروب أقبلت تلہب » فبرز له على ، وعجم عليهم مرحب وضربه فطرح ترسه من يده ، فتناول على باباً وجده عند المحسن وترس به ، وظل يقاتل به حتى فتح عليه المحسن ثم ألقاه وراء ظهره ، وكان طول الباب ثمانين شبراً ولم يستطع سبعون رجلاً تحريكه من يده إلا بعد جهد .

(ح) ولقد سمعت القبائل بشجاعة المسلمين في قتالهم ، فلكلنوا يغرون من وجوههم ولا يلقوهم أبداً في قتال ، كما حدث عندما بعث الرسول برسایل

إلىبني سليم وبنى نعلبة ومحارب وبنى أسد ، وكاحدث في غزوة السوبق ، وغزوة بدر الآخرة ، وغزوة ذات الرقاع ، ودومة الجندل .

وتبدو شجاعة المسلمين في الاشتباك مع حاملي لواء مكة في أحد ، فقد برع طلحة بن أبي طلحة ليماز عليا ، فهاجمه على وضبه وقطع رجله فاشد طلحة عليا « يا بن عم أشدك الله والرحم » . فامتنع على عن قتله ، حتى أمره الرسول بقتله فامتل ، وحمل اللواء من بعده عثمان بن أبي طلحة ، فحمل عليه حزنة قتله ، ثم أخذ اللواء أخوه سعيد ، فقتله سعد بن أبي وقاص ، ولما حمل اللواء مسافع بن طلحة ، قتله عاصم بن ثابت ، فحمله أخوه الحزث وقتل عاصم أيضاً .

العوامل التي تؤثر على الفرد مجموعاً

أمر القرآن بالجهاد ، وطلب إلى الجميع التضحية في سبيل الله بكل عزيز ، وأوضح كذلك أجر المجاهدين المقاتلين في سبيل الله بالنفس والمال ، وذكر أن هذا الأجر لا يقف عند حد ولا يدركه إلا عالم الغيب والشهادة :

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِدَّا عَلَيْهِ حَقًا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعِهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَلَا تَبْتَشِرُوا بِيَمِّكُمُ الَّذِي بِالْيَمِّ مَبِيرٌ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

فهم المسلمون هذا وعرفوه وأدركوا أن وعد الله حق .. لهذا حاربوا بروح قوية وعزيمة لا نهاية لها ، وكان راندم في القتال إما الفوز وفي ذلك انتشار لدحوة الإسلام ، وإما الاستشهاد . وكما لو استهانوا بالموت ويتساقرون إليه طمعاً في الجنة .

بعد أن انتهت غزوة بدر ، استمع المسلمون في جوف الليل إلى صوت

الرسول يقول ، يا أهل القليب ! يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا أمية ابن خلف ، يا أبو جهل بن هشام (واستمر يذكر من في القليب) يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فإني وجدت ما وعدني ربى حقا .
واستشهاد أبطال الإسلام الثلاثة زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة في ميته ، من أعظم الأمثلة التي تذكر في باب الاستشهاد حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال ، لقد رفعوا إلى من في الجنة فيما يرى النائم على سرير من ذهب ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورأرا عن سرير صاحبه ، فلما سأله المسلمون عن السبب قال ، مضيا وتردد عبد الله ثم مضى ، وفهم المسلمون من ذلك أن المؤمن لا يجوز له أن يتعدد أو أن يخاف الموت في سبيل الله ، بل يجب أن يحمل حياته على كفه وأن يلقى بها في وجه من يقف في سبيله ما دام يجاهد من أجل الله .

وإخلاص المسلمين لدعوة نبيهم ولرسالته بلغ حدأ لا مزيد عليه ، فقد امتلأت جوانحهم وقلوبهم بحب الإسلام ، حتى أنهم كانوا لا يتددون في سبيل هذا الإخلاص في الإتيان بأعظم الأعمال ولو كفتهم حياتهم .

ولقد بلغ إخلاص سالم بن عمير حدأ جعله يغضب عندما سمع أبا عفك (١) يرسل الأشعار يطعن بها على الرسول ، وعندما سمع عصماء بنت مروان تعيب الإسلام وتخرض على النبي ، فقضى عليهم .

ولما أقبل بهض من أهل هذا وأهل هذه يسألونه ، يا عمير أنت قتلتما ؟ ، أجاب ، نعم فكيدوني جميعا ثم لا تنتظرون ، فوالذى نفسى بيده لو قلت بأجمعكم ما قال أو قالت لضررتكم بسيق حتى أموت أو أقتلكم .

ونسجل أيضاً موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي ، وكان من المسلمين . إذ علم أن الرسول قرر قتل أخيه ، فذهب إلى الرسول وقال له ، يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيها بلغتك عنه ، فإن كنت فاعلاً فرف بـه ،

(١) من بن عمرو بن موف .

فَانَا أَحْلٌ إِلَيْكَ رَأْسِهِ، وَإِنِّي أَخْشى أَنْ تَأْمِرَ بِهِ غَيْرِي فِي قَتْلِهِ، فَلَا تَدْعُنِي أَنْظَرْ
إِلَى قَاتِلِ أَبِي يَمِينِي فِي النَّاسِ فَاقْتَلْهُ، وَأَقْتَلْ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ فَادْخُلْ النَّارَ،
وَصُورَةٌ أُخْرَى مِنِ الْإِخْلَاصِ الْعَمِيقِ لِلْدُعُوَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَلِلَّدِينِ الْجَدِيدِ،
زِرَاهَا فِي حَدِيثٍ دَارَ بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ حَذِيفَةَ بْنَ عَبْتَةَ . قَدْ لَقَبَهُ الرَّسُولُ
كُثُنِيًّا قَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ قَالَ لَهُ :

— اعْلَمْ يَا أَبا حَذِيفَةَ قَدْ دَخَلْتَكَ مِنْ شَاءَ اللَّهُ أَيْلَكَ شَيْءٌ؟

قَالَ أَبُو حَذِيفَةَ :

— لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا شَكَكْتُ فِي أَبِي وَفِي مَصْرِعِهِ، وَلَكِنِي كُنْتُ
أَعْرَفُ فِي أَبِي رَأِيًّا وَحْلَمًا وَفَضْلًا ، فَكَسَنْتُ أَرْجُو أَنْ يَهْدِيهِ ذَلِكُ لِلْإِسْلَامِ،
فَلَا رَأَيْتُ مَا أَصَابَهُ وَذَكَرْتُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفَّرِ بَعْدَ الَّذِي كُنْتُ أَرْجُوهُ
لَهُ أَحْزَنِي أَمْرَهُ .

إِذْنَ فَهُذَا رَجُلٌ يَطْمُوعُ لِقَتْلِ أَبِيهِ لَأَنَّهُ لَمْ يَدْخُلِ الْإِسْلَامَ، وَلَأَنَّهُ أَسَاءَ
إِلَى نَبِيِّهِ إِسَامَاتِ بِالْفَلَةِ ، وَهُوَ يَخْشَى التَّفْرِقَةَ وَالْفَتْنَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا قُتِلَ
أَحْدَمُ أَبَاهُ، فَيُضَطَّرُ هُوَ إِلَى قَتْلِهِ، وَهُوَ لَا يَطْلُبُ مِنَ الرَّسُولِ الْغُفُوْنَعْنَ أَبِيهِ،
وَلَئِنْ كَانَ يَطْلُبُ السَّجَاحَ لِهِ فَيَقْتَلُهُ هُوَ . . .

وَذَلِكَ رَجُلٌ يَحْزُنُ حَتَّى يَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، لَا لَآنَ أَبَاهُ قُدْكُلُ ، وَلَكِنْ لَأَنَّهُ
قُتُلَ وَهُوَ كَافِرٌ، فَلِمَ يَؤْمِنُ بِرَسَالَةِ مُحَمَّدٍ بِرَغْمِ أَنَّهُ كَلَّذَا رَأَى وَفَطَنَهُ .

وَبِلْغُ مِنِ إِخْلَاصِ الْعَبَّاسِ عَمِ الرَّسُولِ ، أَنَّهُ كَلَّذَا قَدْ أَسْلَمَ قَبْلَ أَنْ يَتَأْمِبَ
الرَّسُولُ لِغَزْوَةِ مَكَّةَ ، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ يَكْتُمُ إِسْلَامَهُ ، وَظَلَّ يَعِيشُ فِي مَكَّةَ وَسَطِ
قَرِيشٍ ، حَتَّى يَعْثُثُ لِلرَّسُولِ بِأَخْبَارِ قَرِيشٍ وَأَمْرَهَا وَاسْتَعْدَادَهَا وَتَحْرِكَتِهَا
هَتَّى كَانَتْ مُوجَّهَةً ضَدَّهُ وَضَدَّ دُعَوَتِهِ .

العوامل التي تؤثر على الأفراد منفردين ومجتمعين

أهم هذه العوامل الثقة المتبادلة بين القائد وجنته . . .

١ — الثقة

توجه أبو الحيم بن اليمان إلى الرسول قبل اليمامة الكبرى وقال له : « يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود جبالاً نحن قاطعواها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا » فتبسم الرسول وقال « بل الدم الدم والمدم المدم أنت مني وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسلم من سالمت » .

والثقة المتبادلة بين الرسول وجنته هي التي جعلت الجندي يحيطون به، ويحتمون حوله وقت الشدة ، في أحد وفي حنين ، حتى حولوا المزيمة التي كان المسلمون معرضين لها إلى نصر ساحق .

ولقد كانت ثقة الرسول بربه كبيرة لا حد لها ، ولهذا كان الرسول في أوقات شدته ، يلتجأ إلى ربه ، يطلب المuron ، وكانت عناءة الله تتدخل في اللحظات الحاسمة لاتخلي الرسول وحده ، بل لتخلي الدعوة كلها ، فها هو ذا الرسول في غزوة بدر الكبرى يرى بعيني رأسه كثرة قريش وقلة رجاله ، وقوه عدتهم ، وضعف عدته ، فيستقبل القبلة ، ويتجه بنفس مطمئنة ، واثقة إلى ربه ، ويقول : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيانتها تحاول أن تكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني » ، وأخذ يردد هذا القول مراراً وتكراراً حتى أثار ذلك أبا بكر فصاح « يا نبي الله بعض مناشتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك » ، وبعد قليل خرج الرسول إلى قومه وقال « والذى نجز لك ما وعدك » ، وبعد قليل خرج الرسول إلى قومه وقال « والذى نجز لك ما وعدك » ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة ، وسرت هذه الموجة من النقاوة الفالية بين الله ورسوله إلى نفس الجنود فضاعت من ثقفهم وقوتهم من عزيتهم وسواترهم وجعلتهم

يقدمون على القتال بمحاسة واطمئنان وثقة من نصر الله ، حتى تالوه ، وهم موقنون
بـ الآية الكريمة « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » .

٢ - العقيدة

فالعقيدة من العوامل التي تؤثر في الأفراد ، منفردٍ ومجتمعٍ ، وإذا
توافرت العقيدة في نفوس أفراد الجيش من القادة ، والجنود ، فلا بد لهذا
الجيش من الفوز والنصر .

والقرآن أمر المسلمين بالجهاد في سبيل الله ، ولكن ثبت من سعادت
التاريخ أن الإنسان لا يسعى إلى جهاد إلا إذا كان يعتقد في حمة وسلامة
ما يجاهد من أجله وفي سيله ، وهذه العقيدة هي الرابطة الروحية التي تربط
المواطن بربه وهي أمن عنده الفرد من المال ، والجاه والسلطان ، والحياة كلها .

ولقد بلغت العقيدة في نفوس المسلمين منزلة تسمى على صلات الرحم ،
والقرابة ، فكان الرجل منهم — في سبيل الله وفي سيل الدين — لا يتردد
في قتل أخيه أو أخيه أو عمه أو قريبه من المشركين لا تأخذه شفقة لورحمة ..
وها هو ذا أبو بكر يقول لابنه عبد الرحمن ، وكان ضمن المشركين في
غزوة بدر « والله لو كنت أهدفت لي ما صدفت عنك » .

والعقيدة هي التي تملكت على بن أبي طالب ، فجعلته يتحدى قريشاً بأجمعها
يوم الصفا إذ نادى النبي في القوم « أيكم يتوارى على هذا الأمر؟ » ، فرددت
عليه قريش ساخرة ، وهي تتبعده عنه « لا أحد .. لا أحد .. » . ولكن علياً
خرج على أمرها ، وتحدى رجالها ، وبرز من بينهم يقول وسط هذه الجموع
« يا رسول الله أنا عونك ، أنا حرب على من حاربت » .

وعندما بعث الرسول برسالة عبد الله بن جحش قاتل عبد الله جنده بعد
أن قرأ كتاب الرسول « أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضى إلى
نخة أرسل بها قريشاً حتى آتني منهم بخبر ، وقد نهاني أن أستكريه منكم أحداً
فن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره فليرجع » .

وَدَفَعَتْ الْعِقِيدَةُ بِجُمِيعِ جَنُودِ سَرِيَّةِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَسَارُوا مَعَهُ ، وَمَضُوا إِلَى
تَنْفِيزِ أَمْرِ الرَّسُولِ لَمْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ أَحَدٌ .

وَالْعِقِيدَةُ هِيَ الَّتِي أَنْأَرَتِ الرَّاغِبِينَ فِي الْخُرُوجِ لِمَلَاقَةِ قَرِيشٍ فِي أَحَدٍ ، وَكَانُوا
وَهُمْ يَنَادُونَ بِالْخُرُوجِ يَطْمَئِنُونَ فِي أَحَدٍ أَمْرِيْنِ إِمَامَ النَّصْرِ ، وَهَذَا هُوَ وَعْدُ اللَّهِ
لَهُمْ ، وَإِمَامُ الْمُزِيَّةِ الَّتِي لَنْ تَأْتِ إِلَّا بِالْاسْتَشْهَادِ ، وَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ فَازُونَ
بِالْجَنَّةِ .

وَالْعِقِيدَةُ هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصَ يَقُولُ « مَا حَرَصْتُ عَلَى
قَتْلِ رَجُلٍ قَطْ ، حَرَصْتُ عَلَى قَتْلِ أَخِي عَتَبَةَ حِينَ صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَنَعَ » .
وَتَتَحَلُّ الْعِقِيدَةُ الرَّاسِخَةُ فِي صُورَةٍ مِنْ صُورِ مَوْقِعِ الْخَنْدَقِ فَقَدْ اسْتَطَاعَ
عُمَرُ بْنُ عَبْدِوْدٍ أَنْ يَجْتَازِ الْخَنْدَقَ فَوْقَ فَرْسِهِ ثُمَّ نَادَى « مَنْ يَأْرِزُ؟ » ، فَخَرَجَ لَهُ
عَلَى ، فَلَمَّا عَرَفَهُ عُمَرُ قَالَ لَهُ ، يَا بْنَ أَخِي مَنْ أَعْمَالْتَ مِنْ هُوَ أَشَدُ مِنْكَ ، فَإِنِّي
أَكْرَهُ أَنْ أُرْبِقَ دَمْكَ ، وَإِنْ أَبَاكَ كَانَ صَدِيقًا لِي وَوَالَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ أُقْتَلَكَ ،
وَهَاجَمَ عَلَى هِمَرًا وَتَمَكَّنَ مِنْهُ وَقْتَهُ ، وَقَالَ لِرَسُولِهِ وَقَدْ سَأَلَهُ كَيْفَ وَجَدْتَ
نَفْسَكَ مِنْهُ؟ ، وَوَجَّهَتْ أَنْ لَوْ كَانَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فِي جَانِبِ ، وَأَنَا فِي جَانِبِ
لَقْدَرْتُ عَلَيْهِمْ » .

الباب الرابع

الرسول الفائز

(١)

- الصفات الشخصية للرسول كفرد
- المظاهر العامل
 - الخلوة
 - الابيات
 - الثقة بالنفس

القيادة هي المقدرة على معرفة الرجال ، ولو أن الكثيرين يصفونها بأنها الفن في تملك زمام الغير وتوجيهه نحو هدف معين ، ومهما اختلفت الأقوال في وصفها ، فهي ولا شك فن يبحث في الطبيعة البشرية له مبادئ وأصول .

وما لا شك فيه أن القيادة ليست مقصورة على الناحية العسكرية ، بل تسعدها إلى الكثير من نواحي الحياة ، ولقد اختلف الناس في ملحة القيادة اختلافاً يتناقض ، فالبعض يقول إنها تولد مع الأشخاص وأنها لا تكتسب ، والبعض الآخر يقول إنها غريزة من الغرائز موجودة في سائر الناس على السواء وإن اختلف مقدارها ، ولو أن نابليون كان يرى أن المقدرة على القيادة تأتي بالدراسة والبحث ، وكان ينصح أتباعه دائمًا ، إذا أردتم أن تتعلموا القيادة فعليكم بدراسة تاريخ الحروب واستزيدوا من دراستها .

ولقد ثبت بالبرهان القاطع أن القوات تتأثر لدرجة كبيرة بسلوك قادتها وبالمثل التي يضر بها لها ، ولهذا يجب أن يكون القائد واسع الاطلاع قوي الإرادة ، شديد الثقة بالنفس ، سريع التصرف ، كما يجب أن يتحلى بصفة إنسكار الذات ، أي يجب أن توافر لديه الصفات البارزة ، والمواهب التي تساعده على إدراك ما يوده ويرى إليه ، وذكر السير هاملي هذه الصفات فقال إنها « الشجاعة والنشاط والحزم والثبات وقوة التحمل وإنكار الذات والنظام والطاعة » .

وبدر استنا لشخصية الرسول القائد ، يتضح لنا أنه كان يجمع بين هذه الصفات كلها ، ولا شك في أن الله قد اختاره ليؤدي أعظم وأجل وأخطر رسالة إلى العالم ، لأنها تعالى رأى فيه الرجل الوحيد الذي يصلح لغرض الرسالة وخطتها ، ووجد فيه من الصفات ما يجعله قائدًا كبيراً يحتل أعلى مكانة بين قادة العالم أجمعين .

وعلينا عند دراستنا لشخصية الرسول القائد أن نعرض لمجموعة الصفات التي امتاز بها والتي تكون منها شخصيته كفرد ثم كقائد .

الصفات الشخصية للرسول كفرد

١ - المظهر العام

كان الرسول وسيم الطامة ، ربعة في الرجال ، ليس بالطويل للبائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ذا شعر رَجْلٍ شديد سواده ، مبسوط الجبين فوق حاجبين سابعين من وزن متصلين ، واسع العينين أدعجهما تشوب ياضهما في الجوانب حمرة خفيفة ، تزيد في قوة جاذبيتها وذكاء نظرتها أهداب طوال حوالك ، مستوى الأنف دقيقة ، مفلج الأسنان ، كث اللحمة طويل العنق جليله ، عريض الصدر ، رحب الساحتين ، أزهر اللون ، غليظ الكفين والقدمين ، يسير ملقياً جسمه إلى الأمام ، مسرع الخطوة ثابته ، تبدو على ملامعه دلائل التفكير والتأمل ، ويبدو في نظره سلطان الأمر الذي ينضم الناس لأمره .

سأل الحسن بن علي هند بن أبي هالة عن أوصاف النبي . فوصف له بدنـه ، فكان ما قال «يمشى هوناً ، ذريع المشية»^(١) إذا مشى كأنما ينحط من صبـب^(٢) ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، يسوق أصحابه ويدأ من لقـيه بالسلام^(٣) ..

ووصف على رضي الله عنه الرسول فقال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضخم الرأس واللحمة ، شنـنـ الكفين والقدمين»^(٤) ضخم الـكـرـادـيس^(٥) ، مشرباً وجهـهـ حـمـرةـ ، طـوـيلـ المـسـرـبةـ»^(٦)

(١) واسع الخلو

(٢) بهبط بقوـةـ .

(٣) كتاب فقه المسيرة .

(٤) غليظ .

(٥) ألوح الأكـنـافـ .

(٦) الشعر ما بين السرة والبهـةـ .

إذا مشى تكفاً تكتفوًّا^(١) كأنما ينحط من صبب ، أدعج العينين^(٢) ، سبسط
الشعر^(٣) ، سهل المحندين^(٤) .

ويقول المرحوم الأستاذ هيكل ، إن هذه الصفات كلها جعلت السيدة خديجة تجمع بين حبه والإذعان له ب رغم أصالة نسبها وكثرة ما لها ، وارتفاع مكانتها بين قومها ..

كان الرسول متواضعًا جم التواضع عظيم الذكاء حسن الإصلاح لا يلوي عن أحد وجهه ولا يكتفي بالفداء السمع إلى من يحدنه بل يلتفت إليه بكل جسمه .

وكان الرسول قليل الكلام كثير الإنصات ميالاً للجد من القول وكان إذا تحدث يقارب يده اليمني من اليسرى ويضرب ياهماه اليمني راحة اليسرى ويفتح الكلام بأشداته ويختمه بأشداته ، وقيل إنه ربما حرك رأسه وغض شفتيه في أثناء كلامه ، وهو على هذه الحركة الحية جم الحياة أشد حياة من المدناء ، نضاح الحياة إذا كره شيئاً عرف ذلك من وجهه ، وإذا رضى تهلكت أساريره وتبين رضاه ..

وكان يضحك حتى تبدو نواجذه فإذا غضب لم يظهر عليه من أثر الغضب إلا نفرة هرق بين حاجبيه ، ذلك أنه كان يكظم غيظه ولا يظهر غضبه لما جبل عليه من سعة الصدر وصدق الهمة والوفاء للناس والبر والجود وكرم العشرة ، ولما كان عليه من ثبات العزيمة ، وقوة الإرادة ، وشدة الأساس ومضاء التصميم وعلم التردد ..

جاء في وصف هند بن أبي هالة لمنطق الرسول ، كان رسول الله متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طوبيله

(١) بعل إلى الإمام .

(٢) شدة السواد والبياض

(٣) غير ملبد .

(٤) غير مرتفع الوجنتين .

السکوت ، يفتح الكلام ويختنه بأشداته ، ويتحكم بمحاجة الكلم ، دعثاً ليس بالهادف ولا المهن ... لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . إذا أشار وأشار به نفسه كلها ، وإذا توجب قلها ، وإذا غضب أعراض وأشباح ، وإذا فرح غض طرفه ، كان يخزن لسانه إلا أعمما يعنيه ، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ويواليه عليهم ، ويحذن الناس ويخترس منهم من غير أن يطوى على أحد منهم بشره ..

كل هذه الصفات اجتمعت في شخصية الرسول الكريم ، فكانت لها آثار كبيرة عظيمة في علاقاته بالناس ، وفي ذلك يقول الأستاذ عباس العقاد ، إن النبي كلن مثلًا نادرًا بجمال الروحانية كلها كثانة في جميع شمائله مستوفياً الصفة من جميع نواحيها ، فرب رجل وسم غير محظوظ ، ورب رجل وسم غير محبب ، ورب رجل وسم يحب الناس ويهاونه وهو لا يحب الناس ولا يهظف عليهم ولا يعادهم الولاء والوفاء ... أما محمد عليه السلام فقد استوف شمائله الوسامية والمحبة والمهابة والعطاف على الناس ، فكان على ما يختاره واصفوه ومحبوبه وكان نعم المسمى بالختار .

وكان الرسول نشطاً قوياً يصرع الرجل القوى ، وكان يركب الفرس عارياً غير وضه على السير ، وكان يداعب من يحب بالمسابقة في العدو .. قالت عائشة « خرجت مع النبي في بعض أسفاره وأنالم أحمل اللحم فقال للناس « تقدموا » فتقدموا ثم قال « تعالى حتى أسبقك » فسابقته فسبقه فسكت حتى إذا حملت اللحم قال صلي الله عليه وسلم للناس « تقدموا » فتقدموا ثم قال « تعالى أسبقك » فسابقته فسبقني فعمل صلي الله عليه وسلم يضحك ويقول « هذه بتلك » .

* * *

٢ - الخلق

الخلق أول عناصر الشخصية ، فحسن الخلق عmad الشخصية ، وهو المقدرة على مواجهة المغارات ، والشخصية التي لا توسر على الخلق لن تؤود إلى نجاح والرجل الذي لا يستطيع أن يسوس نفسه لن يكون أكثر نجاحاً في ميادين غيره .

• والرسول كان على خلق عظيم ، أهله للتفوق على أقرانه وأنداده ، والقرآن
— أصدق سجل لحياة الرسول — عبر عن سجاياه في أفعى بيان إذ يقول :

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ »^(١)

ولما كان مسلك الرسول في حياته هو مسلك الحريص المتحفظ في حذر
ما حواليه ، فقد اصطفى خلانه من صفة رجال شهد لهم الجميع بالخلق العيد
والسجايا الطاهرة والطبع الرفيعة .

ولم يكن الرسول شغوفاً بأن يرى ما يفعله فساق قومه من فسق وغور
ولا أن يسمع ذلك ، وقيل إنه لم يحضر سهرم ولم يorum إلا مرتين ، ألقى الله
عليه النوم في كل منها ، حتى طلعت الشمس فلم ير ولم يسمع شيئاً .

كان الرسول أميناً ، حتى أنه كان في عنفوان شبابه ملقباً لدى معاصره
بالصادق الأمين ، لما كان عليه من سلوك سوى وخلق ظاهر نقى .

والتاريخ يذكر صدقه وأماتته ، عندما اختلفت قريش ، أى القبائل يكون
 لها فرض الحجر الأسود في مكانه بعد إعادة بناء الكعبة ... فقد استمر
 الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تتشبث بسيبه ، وتحالف بنو عبد الدار^(٢)
 وبنو عدي أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم ، فلما رأى أبو أمية
 ابن المفيرة المخزوعي ، ما صار إليه القوم ، وكان فيهم شريفاً مطاعاً ، قال لهم
 « اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا ، فلما رأوا محمدآ
 أول من دخل ، قالوا ، هذا الأمين ، رضينا حكمه ، وأقرت قريش^(٣) .

(١) سورة القلم ٤ .

(٢) جاء بنو عبد الدار بمفنة ملوحة دماً وأدخلوا أبيهم به توكيداً لخلفهم ولذاك سموا
 « لفقة الدم » .

(٣) كان حكم الرسول هو أن أني بثوب ونعره وأخذ الحجر ووضعه يده فيه ثم قال
 « ليأخذ كبيير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا التوب » ، حللوه جيماً للـ ما يحاذى موضع
 الحجر من البناء ثم تناوله الرسول من التوب ووضعه في موضعه .

حكمه ، ورضيت به ، وهذا دليل على مكانته السامية في نفوس أهل مكانة ، وقد يدرك لما عرف عنه من الصدق ، والأمانة ، والزاهدة .

ويصف وليم موير William Muir خلق الرسول « تجمع كل مراجعتنا وأسانيدنا ، فيما ينسب إلى محمد في شبابه ، من سيرة التواضع والاحتشام ، وطهارة الخلق ، على صورة نادرة الوجود بين المكين » . ثم يقول « وبما وهب له من عقل راجح ، وذوق رقيق ، وحرص دقيق ، وعشق في التأمل ، عاش منطويًا على نفسه طوبيلا ، متخذًا من تأملاته العقلية دون ريب شاغلا لوقت الفراغ الذي كان يقتله غيره من ذوى الطابع الحسيس باللهو السمج والفحور الماجن والسلوك الخلبيع ، وإن قد وقع خلق ذلك الشاب القويم ، وسلكه الورع العف ، موقع الحمد والثناء من قلوب قومه جميعا ، ويأجاعهم عن طيب خاطر نال لقب الصادق الأمين » .

قيل في وصف سيرة الرسول عليه صلوات الله وسلامه^(١) « كان دائمًا البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس ببغض ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا خاش ، ولا عتاب ، ولا مداح ، يتغافل عملا لا يشتهي ، فقد ترك نفسه من ثلاثة : الرياه ، والإكتمار ، وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاثة : لا يدمن أحدًا ولا يغيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه .. »

لما بلغ أبا بكر أن محمدًا صديقه يدعى نزول الوحي عليه من السماء أيد أنه لا بد صادق في دعواه ، فرجل لم يكن يكتب على الناس مطلقا ، لا يمكن أن يفتقر إلى الله الكتب ، وكان قد نادى في الأيام الأولى من الرسالة عندما جاءه الأمر - « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبَيْنَ^(٢) » - مختلف بطون قريش من فوق الصفا ، فلما تأمّل الجموع قال مخاطبا إياهم « أرأيتم كأنّكم أنتم خيلا

(١) كفاح نهـ السيدة .

(٢) سورة الشعراء ٢١٤

خرج من سفح هذا الجبل لتفاجئكم بهجوم عنيف ألما كنتم تصدقون؟ ، فقالوا
جميعاً في صيحة واحدة «يللي ما جربنا عليك كذباً قط»^(١) .

وبعد ذلك والقرشيون مهافتون على الحرب مع النبي ، والعداؤ على أشدّها
دعا هرقل^(٢) أبا سفيان زعيم المقاومة القرشية ، وكان في سوريا وقتها في تجارة
وسأله أسئلة كثيرة عن محمد ، وجاء ضمن هذه الأسئلة «أكنتم تأخذون عليه
قول الكذب قبل أن يقول إنه نبي؟ ، فكان جواب أبي سفيان صريحاً واضحاً ،
لا لبس فيه ولا غموض ، قال «للام» .

وكان الرسول لصدقه يصف الصدق ويقول فيه ، إن الصدق طريق الفضيلة
والفضيلة طريق الجنة ، ولا يزال الرجل ينطلي بالحق حتى يصبح صديقاً خالصاً ،
وإن الكذب طريق الفساد ، والفساد طريق النار ، ولا يزال الرجل يقول
الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً .

وقف جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي أميراًطور الحبشة يصف النبي
وطعانيه فقال «بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأماتته ،
وعفافه ، فدعانا إلى الله لتوحده ونبذه ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباءنا من
دونه من المجاهدة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة ، وصلة
الرحم وحسن الجوار» .

وعلى الرغم من أن الرسول عاش في مكة حيث اعتبر أهلها السكر العلنى
أمراً عادياً ، فإن شفتيه لم تبللهما قطرة من خمر ، وكان الميسر مبعث الفبطة
في أوساط مكة ، ومع ذلك لم يشارك الرسول قومه في هذا اللون من اللهو ،
وعاشر الرسول قوماً انفعموا في الحرب انغمساً في الخمر والميسر ، ولكنه
خل حياته فيهم نافراً من الحرب نفوره من الخمر والميسر ، ويقول موير «ومن
أنه قد بلغ سن العشرين ، لم ينطبع في قلبه أثر لحب السلاط ، وعلى الرغم من

(١) رواه البخاري .

(٢) مأهل الامبراطورية الرومانية العربية .

لشتراكة في حرب الفجار^(١) التي دامت بين هوازن وقريش أربع سنوات ، فإنه لم يعمل أكثر من جمع السهام وإلقائها إلى أعمامه ..

ومن مظاهر خلق الرسول أنه كان يكره الثراء ، ولم يلتجأ إلى التجارة سعياً وراء المال ، أو حباً في الثراء ، ولكن تقديرآ منه لعمه أبي طالب ، ويقول في ذلك موير لم يولع محمد بالثراء أبداً ، ولم تبد منه في أيام فترة من فحارات حياته عنانية بطلب المال حباً في المال ، ولو أنه خل بيته وبين نفسه لفضل على الأرجح حياته الرتيبة المادنة الوادعة ، على جلبة الرحلة وضوضاء التجارة وهموم السفر ، ولم يكن محمد يفكر من تلقاء نفسه في مثل هذه الرحلة ، ولكنه ما أن اقترح عليه ذلك ، حتى استشعرت نفسه الكريمة على الفور ضرورة البذل لما في وسعه من جهد مساعدة لعمه ..

وبرغم أن الرسول تزوج من خديجة ، وهي على جانب من الثراء ، إلا أنه كان يزهد في نعمة العيش وهي بين يديه ..

وقد ثبت أن الرسول لم يستمتع بدنياه . ولم يشبع ثلاثة أيام قباعاً ، حتى مرضى لسيمه ، وقالت عائشة « لقد كنت أبكي رحمة مما أرى به ، وأمسح يدي على بطنه مما أرى به من الجوع ، وأقول « نفسي لك الفداء ، لو تبلغني من الدنيا بقوتك » ، فيقول « يا عائشة ، مالى وللدنيا .. إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا » ..

وقالت زوجه أم سلمة تصف ما وجدته في بيتها ليلة عرسها « فإذا حجرة فيها شيء من شعير ، وإذا رحى وبرمة وقدر وكعب ، فأخذت ذلك الشعير خلطته ثم عصده في البرمة ، وأخذت الكعب فأولته ، فكان ذلك طلعاً رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه ..

ورآه عمر وقد أثر في جنبه حصير فقال « يا رسول الله ، قد أثر في جنبك هذا الحصير ، وفارس والروم قد وسع عليهم ، ومم لا يبعدون أهله .. فاستوى

(١) سبق الإشارة إلى هذه المعركة في الباب الأول .

الرسول جالساً و قال «أفي شاك أنت يا بن الخطاب؟ أو لتك قوم قد جملت
لهم طلباتهم في الحياة الدنيا» .

و تتميز حياة الرسول الخاصة في بفرها المبكر بخاصة نادرة الوجود
في ذلك الوقت ، وعلى الأخص في الجزيرة الغربية ، وهى الحنو والمطف
على اليتيم والفقير والأرامل والبائس والضعيف والرقيق ، فقد كان في أول
شبابه أحد المتقاسمين على نصرة المظلوم ، وأحد الأطراف في حلف نصرة^(١)
المكلومين .

ولما تزوج من خديجة وأصبح قادرًا على الإنفاق ساعد ذوى العسرة
وأهل الفنك والفاقة ، وما دخل عبد داره إلا أعتقه ، ويصفه عمه أبو طالب
بأنه «حاجي اليتامى والأرامل» ، وقالت له زوجه خديجة حينها جاءته الرسالة
«أبشر فلن يغريك الله أبداً إلك تصل الرحم وتصدق الحديث وتكتب
المحمد وتقرئ الصيف وتعين على ثواب الدهر» .

أعتق الرسول زيد بن حارثة ولم يعطه الحرية فقط ، ولم يعطه المساواة
في العيش فقط ، وإنما رفعه إلى المنزلة الاجتماعية للساسة ، فزوجه بسيدة من
خير السيدات ، وحفظ الرسول البر الأبوى لابنه أسامة ، فولاه جيش الشام
وهو دون العشرين ، وجعل تحت قيادته طائفة من أكبر الصحابة .

وكانت أخلاق الرسول تتميز بالبساطة والإخلاص ، وكان يصر على
أن يعمل كل شيء بيديه ، يحاب شأنه ، ويرفع ثوبه ، وينظف بيته ، ويتهد
ببيته بنفسه ، ولقد اتخذ الرسول من العمل قوة دافعة ، وخصص الكد
والكدح في العمل بالاحترام والتقدير ، ووضع أساس المبدأ القائل «ليس
لمن لا يعمل حق في أن يأمل جنى الثمار ، على حين أن الجزاء الأوفر لا يكون
إلا لمن هو عامل كادح» .

(١) حلف الفضول وسبق الإشارة إليه في الباب الأول .

« وَإِنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَإِنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى .
 هُمْ يُجْزَأُونَ الْجُزْءَ الْأَوَّلَ »^(١) . فَنَّ يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
 فَلَا كُفَّارَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ »^(٢) « إِنَّ سَعْيَكُمْ لِشَتِّي ، فَلَمَّا مَنَّ
 أَغْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى فَسَيُنْسِرُهُ لِلْيُسْرَى »^(٣) « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
 نَاعِمَةٌ ، لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ »^(٤) « وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبَّكَ بِنَعْفَلٍ
 عَمَّا يَعْمَلُونَ »^(٥)

وكان الرسول لا يترفع عن أى عمل لأنّه نبي ، فقد اشتغل عاملا في بناء المسجد ، واشتغل في حفر الخندق حول المدينة ، وكان يذهب إلى السوق ليشتري بنفسه حاجاته ، وكان يقضى أيضاً حاجات جيرانه وأصدقائه .

وكان الرسول يتمتّز بالبساطة والتواضع ، لم يرض أبداً أن يقوم أصحابه له وقوفاً إذا مرّ بهم ، ونهام عن ذلك في قوله « لا تَقْوُمُوا لى كَمَا قَوْمَ الْأَعْجَمِينَ » ، وشفع ذلك بأنّه عبد الله يأكل الطعام كغيره من الناس ، ويقدّم مقدّم الناس وكان يقول « إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ يَأْكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ » ، وأجلس كما يجلس العبد ، وفي ذات مرة كان مع أصحابه في الغابة وحل وقت تجهيز الطعام ، واختص كل واحد من الجماعة بطرف من العمل ، فكان نصيحة جمع الوقود .

وكان الرسول يكره أن تقبل يداه مخافة أن تجري العادة بهذا بين الناس فتحمل بينهم على محمل النلة والخضوع . . عن أبي هريرة قال « دخلت السوق مع النبي صلي الله عليه وسلم فاشترى سراويل وقال للوازن وزن وأرجحه »

(١) سورة النجم ٤١/٣٩

(٢) سورة الأيتاء ٩٤

(٣) سورة البليل ٧/٤

(٤) سورة الفاطحة ٩/٨

(٥) سورة الأنعام ١٣٢

فوئب الوازن إلى يد الرسول يقبلها بذنب يده وقال «هذا فعله الأعاجم
يملوكيها^(١) ولست بملك إنما أنا رجل منكم، ثم أخذ السراويل فذهبت لاحله
قتال» صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله».

وكان الرسول عليه السلام متواضعاً، يبعد بنفسه عن مظاهر السلطان،
ويأتي أن يعامل كما كان يعامل الحكام والملوك في عهده... حضر عدٍ
الطاقي - وكان سيد طيء - مجلس الرسول ذات يوم، وهو على المسيحية،
وشاهد إعظام الصحابة للرسول، فاشتبه عليه أمر النبوة بأمر السلطان،
وتسامل في نفسه «أهذا ملك من الملوك أم رسول من رسول الله؟، وفيها
هو كذلك جات إلى النبي صلى الله عليه وسلم، امرأة فقيرة وقالت له «أريد
يا رسول الله أن أسر إليك شيئاً». فقال لها انظر في أي سكك المدينة
شتت أخلك لك، ثم نهض عنها وقضى لها حاجاتها، فليارأى عدى هنا
التواضع العظيم، انجل عنده ظلام الباطل، وتبين له الحق، وأيقن أن هذا
الأمر من رسالات الله، فعمد إلى صليبه فزعه، ودخل مع أصحاب رسول
الله في نور الإسلام.

وليس للنبي مثل في ميدان البر والإحسان، فإنه لم يرد سائلاً خاتماً
ومازال يطعم الطعام على جبه، ولم يترك مالا يملكون في منزله إطلاقاً، وعندما
كان على فراش الموت طلب كل ما عاده أن يكون في بيته من مال، ثم فرقه
على الفقراء وقال «إذا كنت مدينا لأحد بشيء فليطالب به، وإذا كنت قد
أسأت إلى أحد فليستخلص حقه من».

وكان قلب الرسول يذوب رحمة وعطفاً ومودة، ولا عجب في ذلك فقد
قال تعالى «وما أرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً للْعَالَمِينَ»، وقال الرسول «لا تنزع
الرحمة إلا من شق...»، كان الرسول عبأً للناس ولهذا أحبه الناس، وكان
عطوفاً يرأم من حوله ويودهم ويدوم لهم على المودة طول حياته، وإن
تفارت ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام.

(١) وفرواية أخرى «ذلك فعل الأعاجم مع ملوكيهم»

حضرته في طفولته جارية عجماء ، فلم ينس لها مودتها بقية حياته ، حتى أنه قال لاصحابه « من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن » وبلغ من عطفه أن قال أنس « خدمت النبي صلى الله عليه وسلم حشر سنين فما قال لي أفر قط ولا قال لشيء صنعته لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته لم تركته ؟ .. » .

وحدث أن مر بلال بصفية وابنة عم لها ، على قتل قومها من اليهود بعد انتهاء غزوة خيبر ، فشككت ابنته عمها وجهها وخفت عليه التراب وهي تصيح وتبكي فقال لها الرسول « آذنت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قلامهما .. » .

وكان شديد العطف على الحيوان يقول لاصحابه « إذا ركبتم الدواب فأعطيوه حظها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين .. انقوا الله في البهائم المعجمة فاركبوا ما صالحة وكلوا ما صالحة .. » .

وقال ما معناه : إن الله غفر لامرأة مرت بكلب يلهث قد كاد يقتله العلاش ، فتنزعت خفها فأونقته بخمارها ففزع له من الماء فغفر لها بذلك .. وقال أيضاً « دخلت امرأة النار في هرة ربطةها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض .. » .

وسأله أصحابه « أيثاب على فعل الخير مع الحيوان ؟ » ، فقال « في كل حيوان له كبد جدير بحياة مشوبة ، وسئل الرسول « إن لنا في البهائم أجراً ؟ » ، قتل في كل كبد رطبة أجراً .. » .

وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم كان كثيراً ما يقوم بنفسه فيفتح بابه مطرة تلتسر عنده ملحاً ، ويقوم على تمريرض ديك مريض ، ويسع جلواده بمكفيصه ، وحدث أن ركب عائشة بغيراً فيه صعوبة فخلت تردد ، فقال لها « عليك بالرفق .. » .

والوفاء كان من أهم الصفات التي يمتاز بها الرسول ... كان وفياً لاصحابه

وفاء نادراً ، ومن أمثلة وفاته أن عائشة قالت له مرة ، هل كانت إلا بمحظة^(١) بذلك ألقه خيراً منها^(٢) ؟ ، فقال لها مفضلاً ، لا واقعه ما بدلني خيراً منها . . . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقني إذ كذبوا الناس ، وروشتني بما لها إذ حزني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء .

وأخيراً كان تقويم الخلق أحد الشواغل الأولى التي كرس لها النبي نفسه وجهوده ، وكان الرسول وهو يسعى إلى رفع المستوى الخلقي للإنسان يبدأ دائماً بنفسه ، جمجم من الصفات ما ذكرنا بعضها ، وأصبح هو مثلاً أعلى لأصحابه ولقومه وللعالم الذي جاء به يأخذون عنه هذه الصفات ويتمثلون به في سلوكه وينسجون على منواله في حياته العامة وحياته الخاصة فكان خير مثل لخير أمة أخرجت للناس .

* * *

٣ - الإيمان

ما سر النجاح الذي أحرزته شخصية الرسول في التاريخ ؟
وكيف تهيأت العقول لهذا التحول الكبير في حياة العرب ؟
وكيف أبعت حياة تشبيه جادة في نفوس قوم عاشوا في جو من
الخرافة والقسوة والرذيلة ؟

إن الإيجابة على هذه الأسئلة تنحصر في جواب واحد هو قوة الإيمان
باقته . . قوة إيمان الرسول بربه وبرسالته وبدعوته .

كان يؤمن إيماناً راسخاً بأن الله إرادته في أن يرفع العالم إلى الكمال ، وأن
تمتد الإنسانية الخطمة المتراءة ، وأن تسمو القيم الأخلاقية .

وكانت رسالة خطيرة من السماء ألقبت على عنق الرسول وكان لابد
عن الإيمان الكامل بعظمتها وبخоторتها وآمن محمد بها .

(١) تقصد خديجة .

(٢) تقصد قصها .

وببدأ هذا الإيمان يوم جامه الوحي بوسى الله .

« يَأَيُّهَا الْمُدْتَرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبَرْ ، وَيَا بَكَ فَطَهَرْ ، وَالْجَزْ فَاهْجَرْ ، وَلَا تَعْنُنْ نَسْتَكْثِرْ وَلِرَبَّكَ فَاصْبِرْ »^(١) .

وأحسن محمد بنخطورة الرسالة ، ولكن إيمانه كان عيقاً وقوياً وشيداً فذهب إلى زوجه خديجة وقال لها ، انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم إلى عبادة الله ..

وببدأ محمد يدعو إلى دينه الجديد وثارت قريش ، فهذا دين جديد يقوم على أنفاس دينها ودين آبائهم وهو أمر غير مرغوب لديهم ... ولهذا ثارت قريش وببدأت في معارضته وتسييده دعوه فلما لم يرجع نعمته بالجنون وهزروا به ولكنه ظل يدعو إلى دينه الجديد .

ولما استجاب له البعض ثارت قريش ، فعذبه وعذبت معه أصحابه ، ولكنه صمد وهم من ورائه صامدون .

وتطورت وسائل المعاشرة إلى هذا كله : تعذيب وإهانات وغضب ووحشية وقسوة . ولكن إيمان محمد خفف أثر ذلك عليه ، فظل يهان وأصحابه يغضبون قريش في صبر وجلد .

واضطر إلى الساح لاصحابه بال مجررة إلى الجنة فانلا طم^(٢) « لو يترجم إلى أرض الجنة فإن فيها ملكا لا يظم إلى جواره أحد حتى يجعل القمر حاما ما أنت فيه ..

كان إيمان الرسول عيقاً .. كان يؤمن بأن الشدائوف سوف تتفشى ، ولهذا صمد في وجه قريش يعذبوه فلا يترك دينه ولا يرجع عن الدعوة التي كلفها . توعدوه بالقتل واجتمعوا لتنفيذ ذلك وذهب وفد منهم إلى أبي طالب

(١) سورة المذار ١ - ٧ .

(٢) في رواية أخرى « هناك أرض لا يظلم فيها أحد وهي أرض صدق فلمكنا فيها حتى يهم ، أفة أسلكم مخرجًا من كركم » .

يهدده ويتوعده إن لم يرجع ابن أخيه عما يدھو إليه ، واعترف له أبو طالب بأن لا طاقة له بمقاومة قريش مجتمعة «أبق على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مala أطيق» ، وكان رد الرسول فيه إيمان ثابت ززع تهديد قريش وأصاغ آثاره في نفس أبي طالب ، وله ياعنى لو وضعوا الشمس في يبني والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ، . ولم يجد أبو طالب إزاء هذا الإيمان الفريد إلا أن يقول لابن أخيه «إذهب يا بن أخي فقل ما أحبت فواهه ما أسلك لشيء تكرهه أبداً».

ولما خاب أهل قريش في أبي طالب أن يخل بينهم وبين الرسول ، جئنوا إلى الإغراء عليه ينفع حيث فشل التهديد ، فاتصلوا بالرسول وعرضوا عليه عروضاً مغربية .. عرضوا عليه المال والملك وهو رجل فقير ، ولكنهم فوجئوا به يرفض المال ويأبى الملك ويقول لهم «ما جستكم بما جستكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ، فبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم».

وازدادت المقاومة عنفاً.

ولجأ الرسول إلى القرآن يستمد منه القوة الدافعة والإيمان الراسخ :

«لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتُهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»^(١).

وكان القرآن أم باعث الإيمان عند الرسول ، ونزلت آياته تخفف عنه ما يلاقيه وأصحابه من قريش وحلفائهم ووعده الله في كتابه بالنصر والفوز :

«وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ . وَاهْجُرْهُمْ هَجْرَةً جَيْلَةً ، وَذَرْنِي

(١) سورة الحشر ٢١

وَالْمَكَذِّبِينَ أُولَى النُّعْصَةِ وَهُنَّ لَهُمْ فَلِيلًا »^(١) . « وَلَرَبَّكَ فَاصْبِرْ ، إِذَا مُتَرَّ في النَّاقُورِ ، فَذَلِكَ يَوْمٌ مُتَنَزِّهٌ يَوْمٌ عَسِيرٌ ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يُسِيرٌ »^(٢) .

وكان إيمان الرسول قوياً في انتصاره وانهزام أعدائه، وفي انهيار المقلومة لرسالته، وفي فشل المحاولات لتقويض الدين الذي يدعو إليه:

« كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلُّهَا فَأَخْذَنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقتَدِرٍ ، أَكُفَّارٌ كُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بِرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ، أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جُمِيعُ الْمُنْتَصِرِينَ ، سَيْمَرُونَ الْجَمْعَ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ »^(٣) .

وفى بدر التقى الرسول على رأس ثلاثة من رجاله بجيش كبير العدد كثيرة العدة قوامه ألف مدججون بالسلاح فقصد وقاتل ونازل بدافع من إيمانه الصميم الذى وضح فى مناجاته ربها: « اللهم أسألك كما وعدتني... اللهم إن تهلك هذه الفتنة فإنك لن تعبد بعدها... يا حى يا قيوم نداركنا برحمتك...» ثم خرج إلى المعركة متليه النفس بالإيمان بأن الله منجز له وعده.

و يوم زحفت جموع قريش إلى المدينة تبغى التأثير من بدر كان إيمان الرسول مطلقاً من كل قيد... كان مؤمناً بأنه مبعوث للإنسانية جماء، وأن نجاح رسالته لصلحة الإنسانية أمر مفروغ منه، وكان مؤمناً بأن دينه الجديد الذى يدعو إليه سيرفع لواوه في بلاد العرب بل وفي أبعد من بلاد العرب وبهذا الإيمان وحده انتصر في أحد.

(١) سورة المزمل ١١/١٠

(٢) سورة المدثر ١٠

(٣) سورة الفرقان ٤٦/١٢

لقد وقف الرسول في أحد ، ومن خلفه أصحابه في صفوف ، وقال مناشداً
ربه : « اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ،
ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لمن منعت ، ولا
مانع لمن اعطيت ، ولا مقرب لما أبعدت ، ولا بعد لما قربت ... اللهم
ابسط علينا من بر كاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ... اللهم إني أأسألك العين
المقيم الذي لا يحول ولا يزول ... اللهم إني أأسألك العون يوم العلة ،
والآمن يوم الخوف ، اللهم إني عاذ بك من شر ما أعلنتنا ، وشر ما منتنا ،
اللهم حب إلينا الإيمان ، وزينه في قلوبنا ، وكراهتنا الكفر ، والفسق ،
والعصيان ، وأجعلنا من الراشدين ... »

وإذا كان الإيمان العيق هو السبب في نجاح الرسول في غزوی بدر
وأحد ، فهو أيضاً مرجع النصر في غزوة الخندق ، وهو بعث القوة في يوم
الفتح ، وهو سهل العزة أيام المشركين أجمعين .

وبذل الرسول الجهد في سبيل غرس الإيمان باقه في أغوار قلوب الناس
من حوله ، ولهذا أحد يعلمهم أن الله هو خالق كل شيء ، وأنه رب كل شيء ،
هو الظاهر ، هو الواحد القدس ، هو أقرب إلى الإنسان من جبل الوريد ،
هو الرحمن الرحيم ، الودود الشفيف ، الغفور العاطي ، المنان المنعم ، الوهاب
سبيع الدعاء ، الحب للخيربغض الشر .

وعن طريق هذا كله سار الإيمان إلى قلوب رجاله ، وتغلغل في أعماق
قلوبهم ، وأمتلأت أنفسهم بهذا الإيمان الواضح ، وأصبح الله للمسلم لب
الحقيقة في حياة البشر ، ومن ثم يكون اتجاه الإنسان إلى الله يتلمس منه
العرونة والهدایة .

وبلغ من إيمانه وأصحابه باقه انهم كانوا يلجنون إليه وقت الشدة
ويضرعون إليه ويرجون منه الهدایة والعون : « اللهم هذه قريش قد أتت
بخيلاً منها تحاول أن تكذب رسولك ... اللهم فنصرك الذي وعدتني ... »

ولقن الإيمان الرسول وصحابه أن يتوكلوا على الله في كل الظروف
والأحوال حتى لا يتطرق إلى أنفسهم اليأس عند الشدة أو الفشل :

«وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَعُوْتُ وَسَبَعْ بِمَحْمِدٍ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِ خَيْرًا»^(١) «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بِالغُصْنِ أَمْرٌ
قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَئْ قَدْرًا»^(٢).

وأدرك الرسول وصحابه أن الله ناصرهم على أعدائهم :

«اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»^(٣) .
«وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا»^(٤) .

وطبع الرسول على قلوب أصحابه الإيمان به . فهام المسلمين الأوائل
يفضلون نهارهم في أعمالهم ، ثم ينطلق الدعاء للصلوة ، فيتركون أعمالهم ويسرون
إلى المسجد ، يحنون الرؤوس بين يدي الله وقوفاً جنباً إلى جنب ، لا فرق بين
سيد وخدم ، أو أمير وصغير ، أو غنى وفقير ، وأصبح الحسنه قمة نتيجة
الإيمان العميق هو الأساس للحياة في الإسلام .

ومن صور الإيمان العميق هذا القول الذي توجه به خ testim أبو سعد إلى
رسول الله «لقد أخطأتني وقعة بدر» ، وكنت حريصاً عليها ، حتى بلغ من حرسي
عليها أن ساهمت ابنى في المفروج ، نخرج سمه فرزق الشهادة ، وقد رأيت ابنى
البارحة في النوم وهو يقول «الحق بنا تراقنا في الجنة» ، فقد وجدت ما وعدنى
ربى حقاً . وقد واثله يا رسول الله أسبحت مشتاقاً إلى مراقبته في الجنة ،
وقد كبرت سنى ، ورقت عظمى ، وأحببت لقاء ربى .

(١) سورة الفرقان ٥٨

(٢) سورة الطلاق ٣

(٣) سورة البقرة ٢٥٧

(٤) سورة النساء ٤٥

وتحصل بلال العذاب الشديد الذى أوقعه به أمية بن خلف وكان مبعثه لإيمان
لال العميق باقه وبمحمد وبرسالته وبالدين الجديد .

وهذه صورة للإيمان العميق الذى ملأ قلب أبي بكر الصديق ، فإنه رضى
الله عنه كان قد اتخذ له مسجداً بفناء داره ، وأخذ القوم ينسرون إلى بيته لسماع
القرآن ، فنها المشركون عن ذلك واضطروه إلى أن يهاجر ، فهاجر ولقي في
طريقه ابن الدغنة - سيد قومه - فسألها عن سبب هجرته ، فأخبره بالأمر
فأجاره وأعاده إلى مكة في حمايته ، وطلبت قريش منه أن يأمر أبو بكر فيبعد ربه
في داره ، وحدث أن ابنتي أبو بكر مسجداً بفناء داره ، وكان يصلى فيه ويقرأ
القرآن ، فكان يأتيه القوم ، وأفزع ذلك المشركون فأرسلوا إلى ابن الدغنة
وقالوا ، إننا كنا أجرنا أبو بكر بحوارك ، على أن يعبد ربه في داره ، وتفقد
جاوز ذلك فابتني مسجداً في فناء داره وأعلن الصلاة والقراءة فيه . وإننا قد
خشينا أن يفتن نسامنا وأبناءنا فاذهب ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه
في داره فعل ، وإن أبي إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإذا قدم
كرهنا أن نخفرك^(١) ، ولستنا مقرين لأبي بكر الاستعلان ، وذهب ابن
الدغنة إلى أبي بكر وقال ، قد علمت الذى عقدت لك عليه ، فاما أن تقصر على
ذلك وإما أن ترجع إلى ذمي ، فإني لا أحب أن تسمع العرب أنى أخترت
في رجل عقدت له ، فقال له أبو بكر « فإني أرد إليك جوارك ، وأرضي
بحوار الله عز وجل ،

والإيمان هو الذى دفع بعمر إلى أن يدخل في الإسلام ، ولم يشا أن يكون
إسلامه خافياً عن الناس ، بل أعلن إسلامه على الجميع دون خوف أو تردد
وأنى له الخوف والتrepid وقد أسلم عن إيمان عميق .

وفي إسلام خالد صورة حية للإيمان الذى دخل قلبه وملأ قواه ، فقد
وقف وسط جموع من قريش وأعلن بينها ، لقد استبان لكل ذى عقل أن

(١) آخره أى تقض عهده وأبطله

محمدأً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، خلق على كل ذي لب أن يتبعه ، وجاء حكمة بن أبي جهل فزعا :

حكمة - هل صبات يا خالد ؟

خالد - لم أصباً ولكن أسلت .

حكمة - والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنـت .

خالد - ولم ؟

حكمة - لأنـ محمدأً وضع شرف أبيك حين جرح وقتل عـنكـ وـانـ عـنكـ يـيدـ ، فـوـاقـهـ لاـ أـسـلـ وـلاـ أـنـكـلـ بـكـلـامـكـ ياـ خـالـدـ ..
أـمـارـأـيـتـ قـرـيـشـاـ يـرـيـدونـ قـتـلهـ ؟

خالد - هذا أمرـ الجـاهـلـيةـ وـحـيـتهاـ ، وـاقـهـ أـسـلـتـ حينـ تـبـينـ لـيـ الـحـقـ .

لـقـدـ كـانـ لـيـعـانـ الرـسـولـ بـرـبـهـ وـبـرـسـالـتـهـ ، مـنـ أـمـ مـظـاـهـرـ الشـخـصـيـةـ هـنـ الرـسـولـ ، وـأـنـتـقـلـ هـنـاـ الإـيمـانـ مـنـ الرـسـولـ إـلـىـ رـجـالـهـ وـأـعـاصـابـهـ .
وـبـهـذـاـ الإـيمـانـ وـحـدـهـ قـضـىـ عـلـىـ الـبـاطـلـ فـيـ كـلـ بـلـادـ الـأـرـبـ الـمـزـاـيـةـ الـأـطـرـافـ .

* * *

٤ - الثقة بالنفس

من أـمـ عـنـاـصـرـ تـكـوـنـ الشـخـصـيـةـ القـوـيـةـ الـقـوـيـةـ بـالـفـنـسـ ، وـالـاعـتـهـادـ عـلـيـهاـ وـمـقـوـيـةـ وـجـدـتـ الثـقـةـ بـالـفـنـسـ ، فـنـ السـهـلـ الـاعـتـهـادـ عـلـيـهاـ فـيـ كـلـ عـلـمـ عـكـنـ ، وـفـيـ التـغلـبـ عـلـىـ مـصـاعـبـ الـحـيـاةـ .

وـتـوـلـدـ الثـقـةـ نـتـيـجـةـ لـعـلـمـ الـفـرـدـ وـمـعـرـفـتـهـ وـمـقـدـرـتـهـ ، وـالـشـخـصـ الـوـاثـقـ بـنـفـسـهـ ثـقـةـ بـعـيـدةـ عـنـ الغـرـورـ ، الـوـاثـقـ بـقـوـلـهـ وـفـعـلـهـ ، يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـقـفـ وـحـدـهـ يـقـيـدـ رـأـيـهـ وـيـدـافـعـ عـنـهـ ، وـيـرـهـنـ عـلـىـ سـدـادـهـ وـصـوابـهـ .

وثـقـةـ الرـسـولـ بـنـفـسـهـ كـانـتـ عـلـىـ دـرـجـةـ كـبـيرـةـ .. فـالـرـسـولـ هـذـهـ لـفـةـ ظـاحـيـةـ تـهـذـيـهـ وـتـأـديـهـ ، وـعـلـيـهـ الـحـكـمـةـ وـالـقـوـلـ السـدـيدـ ، وـآـتـاهـ مـنـ الـعـلـمـ الـكـثـيـرـ .

ولفته بنفسه بعيدة كل البعد عن الغرور . فهو برغم كونه نبياً مرسلًا إلا أنّه كان يردد دائمًا ، إنما أنا بشر ، ، لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ، ، أنا عبد الله ، وهذه التردیدات التي كان يسمعها المسلمين الأوائل من الرسول الكريم ، تبّت بل وتوّكّد أن ثقته بنفسه كانت لا تحتمل الغرور .

ولا يختلف اثنان في أنّ الرسول كان يثق في قوله وفمه ، ولهذا صدّ في دعوته برغم ما لاقاه من صعاب ومتاعب وأذى .. صدّ لأنّه كان يثق في أنّ ما يقوله حق ، وأنّ ما يدعو إليه يتحقق بسلامة الإنسانية ورقّها والارتفاع بعستوى البشر .

وما يؤكد هذه الثقة أنّه صلى الله عليه وسلم عندما تم له الفتح وأقبل عليه الناس بروح وشغف ورغبة ، حتى أنّ المشركين الذين كانوا حتى اللحظات الأخيرة باقين على دينهم ، دخلوا في الإسلام ، وطلقا عبادة الأوثان ، وألقوا وزاء ظهورهم بعاداتهم وتقاليدهم التي كانوا عليها في الجاهلية ، وظهر في الجزيرة العربية وهي جديدة نظيف ، قام على احترام رغبات الناس وحرياتهم ، وكان أساس هذا الوهي الحرية والإيمان والمساواة والعدل ، وعبادة الله من دون الأصنام ، وتهذيب النفوس والسعى وراء الرزق الحلال ، وتحريم الخنجر والميسر والأنصاف والازلام ، والاعتراف بأن الدين هو الإسلام ، وأن العبادة مقصورة على الله ، وأنه لا إله إلا هو وأن محمداً رسوله ونبيه .

ترى لو أنّ النبي لم يكن يثق في نفسه .. هل كان في استطاعته أن يواجه هذه الحالات العنيفة التي أثارتها قريش ضده ؟ وهل كان يستطيع وهو فرد أعزل أن ينادي بدين جديد ، يسفه به دين آبائه وأجداده ، وأن يستمر في دعوته فيجمع حوله الناس فرداً وراء آخر ، وهو صابر على دعوته ، مجد في سبيل تنفيدها وتحقيقها ؟

إن ثقـة الرسـول بـنفسـه هي التي دفـعتـه إلى أن يـحتـسـي وـأهـلـه وـأصـحـابـه في شـعـبـ من شـعـابـ الجـبـلـ بـظـاهـرـ مـكـةـ ، يـعـانـونـ الـحرـمـانـ أـلـوـانـاـ ولا يـجـدـونـ في بـعـضـ

**الأحياء وسيلة إلى الطعام يدفعون به جوعهم حينما تعلقت قريش في المسجنة
على مقاطعتهم .**

ولم يكن يتاح للرسول أن يخاطر بالناس إلا في الأشهر الحرم حين يند
العرب إلى مكة حاجين ، وحين تضع الخصومات أو زارها ، فلا قتل ولا
تمذيب ولا اعتداء ولا انتقام .. في هذه الأشهر كانت ثقة محمد بنفسه تدفعه
إلى أن ينزل إلى العرب يدعوم إلى دين الله وبشرهم بثوابه ويندرم بمذابه ..
وكان ما أصابه شفيعه عند كثيرين فاقبلوا على دعوه مؤيدين .

وخرج محمد بدافع من ثقته بنفسه إلى الطائف وحيداً لا يعلم بأمره أحد
يطلب من قياف النصر والمنعة بهم ويدعوهم إلى الإسلام ولكن رجع من
عندم بشر جواب إذ أغروا سفهاءهم أن يسبوه ، ومخاطب الرسول ربها
قالا ، اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس .
يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلني .. إلى
بعيد يتوجهنى أو إلى عدو ملكته أمرى .. إن لم يكن بك على غضب فلا
أبالى ولكن عاينتك أوسع ، أعود بنور وجهك الذى أشرفت له الظلال
وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي أو تحمل على سلطتك ، لك
التعبي حق ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ..

إن هجرة الرسول من مكة إلى المدينة خير دليل على ثقته بنفسه ، فلو أنه
كان ضعيف الثقة في نفسه لآوقفه عذاب قريش عند حد قبول إغراماتهم
ولكنه ضرب بهذه الإغرامات عرض الحائط واندفع ينفذ رسالة ربها ، حتى
إذا ما عجز عن البقاء في مكة في بيته ووسط أهلها ترك مكة بأجمعها للشركين
وغادرها ليلاً اتّسروا على قتلها ورحل إلى المدينة وبقي هناك ينادي قريشاً
ويدعو إلى دينه الجديد فدخلت القبائل العربية في دينه واعترفت بالإسلام
فزاد قوته على قوته وارتفع رصيده رجاله من المؤمنين الأشداء وكفى له
جهولات وغزوات ونجح في أن يعود إلى مكة معززاً مكرماً .

ولولا ثقة الرسول بنفسه ما خرج على رأس جيشه يعزز دين الله في أرض العروبة ويحارب المشركين في كل مكان ليهدم دينهم وليقوض دعاؤم ديانتهم وليرجم على أنفاسها دينه الجديد ورسالته الكريمة ودعواه بأنه لا إله إلا الله وأنه هو رسول الله .

حارب المشركين من أهل مكة تحت تأثير ثقته بنفسه ، وكذلك حارب اليهود من أهل المدينة وحنين والطائف وكان له بن فعل هذه الثقة النصر المبين على أعداء الدين وتحقق له النصر الكريم الذي وعده به ربها وانشر الإسلام في ربوع الجزيرة يوم صدر الأمر الكريم

«**اِلَيْوَمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعَمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنًا**» .

وكانت ثقته بنفسه هي الدافع لقبوله صلح الحديبية . حينما خرج مع رجاله قاصداً مكة للزيارة ، فقد كان المسلمين المهاجرون يتفرقون شوغاً إلى زيارة المسجد الحرام ، وأبناءهم الرسول يوماً آنهم سيدخلون المسجد آمنين محلين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون ، وأذن الرسول في الناس بالحج وخرج ومعه المسلمون من المهاجرين والأنصار ومعه أيضاً بعض العرب وأحرم بالعمره ليعلم الناس أنه لا يريد قتالاً . . . ولما علمت قريش امتلاكت نفسها أخوفاً وظنوا أنه يختال بفكرة زيارة المسجد على دخول مكة فقررت أن تقابله بالقوة . . . ودارت بين الفريقين مباحثات . . . فهذا مبعوث قريش الحليس سيد الأحابيش وهذا عروة بن مسعود كلامها يبنيه قريشاً بأنَّ مُحَمَّداً جاء زائراً وليس بمحارب وهذه بعثة محمد إلى قريش بمثابة في عثمان بن عفان تنقل إليهم رغبة المسلمين في الزيارة ثم العودة إلى المدينة .

وانتهت المباحثات بمباحثات سهيل بن عمرو مبعوث قريش إلى محمد فقد اتفق معه على أن يعود عامة هذا على أن يأتى في العام القادم ، وتم بين الجانبين صلح الحديبية الذي تهدن فيه الطرفان عشر سنين ، والذى اتفقا فيه على أن

من يأتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه عليه ، وأنه من أحب من العرب أن يخالف محمدًا فلا جناح عليه ومن أحب مخالفته قريش فلا جناح عليه .

ولولا ثقة الرسول بنفسه ما نال هذا النصر الكبير والفتح المبين بصلح الحديبية ، فقد أثبتت الأيام أن هذا الصلح كان حكمة سياسية وبعد نظر لها أثر كبير في مستقبل الإسلام بل وفي مستقبل العرب جميعاً ، لأن قريشاً بهذا الصلح قد اعترف :

- أولاً — بقيام الدولة الإسلامية .
- ثانياً — بحق المسلمين في زيارة البيت .
- ثالثاً — بحق المسلمين في إقامة شعائر الحج .

كأنها جعلت المسلمين يطمئنون من ناحية مكة ولا يخشون غارة قريش كما أنها أعطتهم الفرصة لمعالجة الأمر مع القبائل العربية الأخرى فبعث الرسول بالرسل إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الدين الجديد . هذا فوق معالجة شتون اليهود وكسر شوكتهم .

وتبليغ ثقة محمد بنفسه متتهاها عند ما دعا المسلمين جميعاً إلى الاستعداد لغزو مكة : ولقد بلغت ثقته بنفسه حداً كبيراً حتى أنه قرر عند ما تم استعداده لغزو مكة أن يكون الغزو سليماً دون إراقة دماء ودون أي اشتباكات ، وكانت أوامره صريحة إلى قادته وإلى جنده فقد نصت على عدم الاشتباك إلا إذا أضطروا إلى ذلك اضطراراً لا مفر معه من استخدام القوة .

ولاشك في أن الرسول عند تحركه مع قواته من المدينة إلى مكة كان يثق بهذه الخطوة ثقة كاملة ، وكان يعترف بيته وبين نفسه أنه متوجه إلى أعظم الخطوات في تاريخ دعوته ، وأنه إذا تم له فتح مكة فقد تم له أداء رسالته وتحقيق دعوته . . . وتجمعت قوات محمد أمام مكة وتمكن من دخولها كما حدثته نفسه تماماً دون قتال إلا في جبهة خالد ، ودون سفك الدماء إلا ما سفك في جبهة خالد .

وانتقلت هذه الثقة بالنفس من الرسول إلى رجاله فأصبحوا جميعاً
لا يقلون ثقة بأنفسهم عن نبيهم وقائد़هم محمد بن عبد الله . . .
ومواقف أبطال الإسلام وجنوده مليئة بظاهر البطولة والفداء ، هذه
المظاهر التي ظهرت ووضحت نتيجة لثقة هؤلاء الأبطال والجنود بأنفسهم ثقة
دفعتهم إلى مكان الصدارة في مجال الحرب والنزال ، وجعلتهم يأخذنون
مكانتهم في التاريخ العسكري بين القادة والجنود ، مكاناً يليق بما أدوه في تاريخ
البشرية من دور هام كبير وخطير .

الرِّسُولُ الْفَاتِحُ

(٢١)

- الصفات الشخصية للرسول كقائد
- سعة الاطلاع
- قتوة الارادة
- المتدين
- سانجح
- الشجاعة والمثابرة
- الاهتمام بالجند
- مواجهة الحقائق
- القدرة البلاغية
- السياسة
- صفات أخرى

ذكر السير هاملي الصفات الشخصية الازمة للقائد فقال إنها «الشجاعة والنشاط والحزم والمثابرة وقوة التحمل وإنكار الذات والنظام والطاعة»، وذكر مؤرخ عسكري آخر هذه الصفات فقال عن القائد إنه يجب أن يكون من يعتمد عليه كل الاعتماد، وأن يكون ذا كفاية، وعلى استقامة لا تشبهها شائبة، منصفاً كل الإنصاف، واسع الصدر، كريماً قادرًا على أن يقدر كل شيء.

هذه الصفات وبجانبها صفات أخرى قليلة لو تواترت في فرد واحد، خلقت منه قائداً يحتل مكاناً عظيماً بين جميع القادة باختلاف عصورهم وأزمانهم.

ولن أكون مجازياً الواقع إذا قلت إن الرسول الكريم جمع هذه الصفات كلها، ولهذا فلا عجب إذا قلنا إن الرسول هو أعظم قائد عسكري ظهر إلى اليوم.

١ - سعة الاطلاع

سعة الاطلاع تأتي من السفر والارتحال.. والتاريخ يحدها أن الرسول الكريم اشتغل بالتجارة في أول حياته، لقد أراد أبو طالب أن يخرج للتجارة إلى الشام حين كان محمد في الثانية عشرة من عمره، ولم يفكر أبو طالب في استصحابه خوفاً عليه من وعنه السفر واجتياز الصحراء، ولكن محمد أبدى رغبة صادقة في مصاحبة عمه، ووافق أبو طالب وصحبه معه، وفي هذه الرحلة وقعت علينا محمد على فسحة الصحراء وتعلقتا بالنجوم، وجعل يمر بمدين ووادي القرى وديار ثود، واستمعت أذناه إلى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المناطق وأخبارها وماضيهما.. وعرف أيضاً في الشام أخبار الروم ونصرانيتهم، وسمع عن كتابهم وعن مناؤة الفرس من عباد النار لهم وانتظار الواقعة بينهم.

وكان الرسول يخرج مع أهله إلى الأسواق المجاورة بعكاظ وبجنة وذى المجاز يستمع لإنشاد أصحاب المذهبات والمعتقدات وتلتهم أذناته بلاغتهم في الفرز والدح والفخر والوصف ، ويستمع إلى الخطباء ومن بينهم اليهود والنصارى الذين كانوا يتحدثون عن كتب عيسى وموسى يدعون العرب إلى دينهم .

وعند ما خرج الرسول بتجارة خديجة إلى الشام اتصل بنصرانية الشام وتحدث إلى رهابها وأخبارها وتحدث إلى راهب نسطوري وسمع منه ، كاحدثت بجادلات كثيرة بينه صلى الله عليه وسلم وبين الراهب في دين عيسى . بدأ الرسول أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن الله اصطفاه من بين الخلق جميعاً ليكل إليه مهمة من أخطر المهام ، ورسالة من أعظم الرسالات ، ودعوة غيرت من تاريخ البشرية وقلبت نظم الحياة .

ونخطا الرسول أول خطواته في ميدان العلم حين بدأ يفكر فيما غرق الناس فيه إلى الأذقان من ضلال وشرك . . .

فقد رأى قومه يعبدون الأصنام ، ويقدمون لها القرابين والمدايم ويستاذنونها في رحلاتهم وأعمالهم

وهاله أن يتسابق الناس، إلى الأصنام يطلبون الرحمة ويلتمسون العون ، فبدأ يفكر ، وكان كثير التفكير ، طويل التأمل ، قبل التحدث إلى غيره بما يعيش بنفسه من آثار تفكيره وتأمله . . .

ونخطا الرسول أول خطواته نحو معرفة أسرار الكون ونحو البحث عن خالق الكون ومبتدعه ومنظمه ، فلجماً إلى غار حراء يقيم به مكتفيًا بالقليل من الزاد ، وكان يشتغل به التأمل ابتعاده الحقيقة حتى كان يذى نفسه وينسى كل ما في الحياة . . .

كان يبحث عن الحقيقة الكبرى للكون ، وكان ابتعاده إدراكها يسمى بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق الحاجب إلى مكونه سره . . .

كان لا يؤمن بالأصنام التي يعبدوها أهلها وقومه فهو يراها أصناماً لا تنفع ولا تضر ولا تخليق ولا ترزق ولا تدفع عن أحد غالاته شر يصيبه .

أدب الله رسوله فأحسن تأدبيه ، واتجاه الرسول بقلبه إلى الصراط المستقيم وإلى الحقيقة الخالدة .. اتجاهه إلى الله بكل قلبه أن يهدى قومه بعد أن ضربوا في تيه الضلال .

وينبئنا الرسول يوماً نائماً في الغار جاءه ملك وفي يده صحفة فقال له «اقرأ» فأجابه مأخوذاً «ما أقرأ» ، فأحس كأن الملك يختنه ثم يرسله ويقول له «اقرأ» وبعد مرات يقول له الملك :

«اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم»^(١)

٢ - قوة الإرادة

كان الرسول قوى الإرادة ..

وحياة الرسول كلها أدلة واضحة لقوة إرادته .

وقصة النبوة تحمل بين سطورها الكثير من آيات الإرادة القوية والعزيمة الأكيدة .

ولا تعد هذه المدة التي كان الرسول يقضيها في حراء كل عام ومداومته على قضاء هذه المدة في الغار من باب قوة الإرادة . . . يذهب إلى الغار يفكر ويتأمل حتى ينسى في غمرة تفكيره وتأمله نفسه والحياة من حوله .

وتحمسه بدعوته عندما ثارت عليه قريش وحاربه رجالها وسادتها إلا يعد دليلاً على قوة الإرادة ؟ . كم آذته قريش وعذبتهم وحاربته وقاومت

(١) سورة العلق ١/٥

دعوته ، واشتدت في تعذيبها لرجاله واضطهدت في عنت أصحابه ، ثم عقدت الصحيفة لتفصي بها عليه وعلى المؤمنين بدعوته حتى اضطرته إلى أن يأمر رجاله بالهجرة تاركين أوطنهم وأولادهم وقبائلهم ، ألم تبذل جهوداً ضخمة جباره لمحاربته وللقضاء عليه لخروجه – من وجهة نظرها – عليها وعلى دينها ودين آباءها ؟ ألم تهدده وتهدد أهله وأعماقه ؟ ألم تهكم به وبدعوته وتسرّه ومن اتبّعه ؟ ألم ترك شعراً لها يهجونه ويهاجمونه ويسفهون آراءه ؟ ألم تنه بالاذى والسوء والعذاب ؟ ألم تشرده وأصحابه بعيداً عن أوطنهم وأنذرتهم بالشر والويل يوم اتجهت إلى الحرب كوسيلة للقضاء عليه ؟ ألم تصبه في تجارتة وتجارة أصحابه وأرزاقهم ؟ ألم تحاول أكثر من مرة أن تقتله ؟^(١) .

ترى ماذا كان موقف محمد إزاء هذا كله ؟ .

هل ضعف نمسك بدعوته ؟

هل خاف على نفسه فوهنت إرادته وضعف عنده الرغبة في الدعوة ؟ لا شك في أن صموده أمام هذه التيارات أكبر دليل على قوة إراداته وتصميمه على أن يحقق رسالته ، ولنذهب كل ما يتعرض له أدراج الرياح . وعندما نذكر موقف قريش من دعوته نذكر أيضاً موقف اليهود منه .

ألم يفكّر اليهود مرات في الانقضاض عليه بقصد تعطيل دعوته وإزالته من الوجود ؟ ألم يسعوا للحقيقة بين المسلمين يوم أرسل شاس بن قيس قى من اليهود وأمره أن يجلس بين الأوس والخزرج ، ثم يذكر يوم مبعث وما كان من انتصار الأوس فيه على الخزرج وذهب الغلام وتكلم ، فذكر القوم هذا اليوم وتنازعوا وتفاخروا واحتضموا وقال بعضهم لبعض « إن شئتم عدنا إلى مثلها » . وبلغ الأمر الرسول نخرج إليهم وذكرهم بما ألف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم

(١) كان الرسول يصلى مرة في حجر السكمة فأقبل عقبة بن أبي مبيط ووضع ثوبه في عنق الرسول شفقة خلقاً شديداً وأسرع أبو بكر فدفعه بعيداً عنه وهو يقول « أقتلون رجالاً يقول ربى آفة وقد جاءكم بالبيانات من ربكم » .

إخواناً متحابين ، وما زال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضاً واستغفروا الله جمعياً .

ألم يحاول اليهود التفرقة بين المهاجرين والأنصار ؟ .

ألم يحاولوا فتنة الرسول يوم ذهب أحبارهم وأشرافهم إلى الرسول وقالوا له « إِلَكَ قد عرفت أُمّرْنَا وَمَنْزَلَتْنَا ، وَإِنَّا إِنْ اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعْنَا الْيَهُودَ وَلَمْ يَخْلُفُونَا ، وَإِنْ أَبَيْنَا وَبَيْنَ بَعْضِ قَوْمٍ مَا خَصْوَمَةٌ ، فَنَحْتَمُ إِلَيْكَ فَقْضِي لَنَا فَنَتَّبَعُكَ وَنَرْمَنْ بَكَ » ، ونزل يومها قوله تعالى :

« وَأَنْ أَخْرُكُمْ يَنْهَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبَعُ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرُوهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكُمْ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ » ^(١) .

ألم يسعوا لجلام الرسول عن المدينة كما أجلته قريش عن مكة ، فذكروا الله أن من سبقه من الأنبياء ذهبوا جميعاً إلى بيت المقدس ، وكان به مقامهم وأنه إن كان حفراً رسولاً ، بغير أن يصنع صنيعهم وأن يذهب إلى هناك ، وفي ذلك قال تعالى :

« قَدْ نَرَى تَقْلُبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُولَّنِيكَ قِبْلَةَ تَرْضَاهَا فَوَلَّ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُوا وَجْهَكُمْ شَطْرَهُ » ^(٢) .

ألم يعملا على تغيير قبلته ليترك المسجد الحرام وليرجع إلى قبلته الأولى فنزل قوله تعالى :

« سَيَقُولُ الْسُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ إِلَّا شَرِيقٌ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَكَذَلِكَ

(١) سورة المائدة ٤٩

(٢) سورة البقرة ١٤٤

جَعَلْنَاكُمْ أَمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شَهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ
عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ
الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقُلِبُ عَلَى عَقِيقِهِ وَإِنْ كَانَتْ لِكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ رَءُوفٌ
رَحِيمٌ »^(١).

لم يفكر اليهود في قتل محمد يوم أرعدوا من يلقى فوقه حبراً، فلو سعى
إليه أن يترك مكانه، وأن يتبعه عن موطن الخطر؟.

هذه كلها محاولات اليهود ..

وبسبتها محاولات قريش .

والرسول صامد لهنـه ولذلك .

وكان صموده مثلاً أعلى لقوة الإرادة التي لمسها فيه جنوده فأخذوها عنه
وأتصفوا بها .. فقد صمدوا أيضاً كما صمد نبيهم أمام قريش وتحملوا العذاب
والقصوة .. وكيف ننسى ما قاساه آل ياسر الذين سقطت منهم أول شهيدة في
الإسلام؟ . وكيف ننسى ما صنعه أمية بن خلف مع عبده بلال إذ ألقاه على
الرمل تحت الشمس المحرقة ووضع حبراً على صدره وتركه ليموت لأنـه رفض
أن يرجع عن الإسلام؟

لقد ساعدت قوة الإرادة آل ياسر وبلا لا على تحملهم في صبر وجدة هذا
العذاب الشديد القاسي وكانوا يرددون في قوة وإيمان وعزـم وتصميم « أحد ..

أحد ..»

ما لا شك فيه أن الدين يقوم بدور كبير في تكوين القائد ، وهذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان .

ويقول باسليك - وهو ضابط محارب - في كتابه «أحاديث القيادة» : « الواقع أن تاريخنا العسكري يقول إن كل قوادنا العظام في الميدان كانوا أتقى الرجال وأسمام تدينا ..»

والمحارب المطبع على الدين الذي يتقى الله ، يجعل إلى عمله شيئاً لا يملأه الآخرون .. إنه يجعل الإيمان ، وهذه الصفة بمفردها لا حد لتأثيرها وقيمتها ، لأن الإيمان وحده ينجز المستحيل ، والإيمان يقول دائمًا إنه يستطيع وكان الإيمان صادقاً فقد تسلقت القوة العسكرية صخرة مهلكة في صمت تام في حلقة الظلام فأزال الإيمان جيلاً آخر ،

وماذا عسانا نقول عن الرسول والدين ، وهو صاحب رسالة دينية ، بل هو صاحب دعوة هي أعظم الدعوات في تاريخ البشرية ، وصاحب ثورة دينية ظهرت في جزيرة العرب حيث عبد الناس الأصنام ، وعاشوا في الظلام فقلب أوضاعهم ، وهدم أصنامهم ، وقادهم إلى النور ، ونبههم إلى ما هم فيه من ضلاله وغنى ، وحارب فيهم الوثنية والشرك والضلال والفساد والأهواء الضالة والأوهام الضارة والشهوات الجائحة والمخرافات الكاذبة والتقاليد البالية ، ودعا إلى التوحيد المطلق ، وقرر مبادئ العدالة والحرية والمساواة والاتحاد ، وأنار في قومه يقظة الضمير ، والشعور بالمسؤولية ، والتقدير للمهود والحرمات ، وارتفع بهم إلى عبادة الله الواحد القهار ، وحارب العصبيات والتقاليد الفاسدة ، ودعا إلى الأخوة الإنسانية والرملة البشرية ، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله ، وفي ظل رسالة كاملة هي شريعة الله .

وماذا عسانا نقول عن الرسول والدين ، وقد خرج وهو في الأربعين إلى غار حراء يتحنث ويتبعد ويفكر في الكون وأسراره ، ولا يقبل حديث

فوفمه عن الأصنام وينفر من عبادتهم لها ، ولا يميل إلى أحاديث اليهود ، بل كان يتوجه إلى الله وكان في توجيهه هذا يقوم الليل ويرهف ذهنه وقلبه ويطيل الصوم .. لقد كان أقه يحيى - في فترة العبادة هذه - الرسول لليوم العظيم يوم نزول الوحي ، ويعده للبعث وللرسالة .

وماذا عسانا نقول عن الرسول والتدبر ، وقد ذهبت زوجه خديجه إلى ورقة بن نوفل تحدثه عن محمد ، وتقص عليه ما حديث له وهو في تعبيه ، فقال لها « قدوس قدوس ، والذي نفس بيده لئن كنت صدقتي يا خديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه النبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت » .

والتحق ورقة يوماً بالرسول في أثناء طوافه بالكعبة فقال له « والذي نفس بيده إنك النبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الاكبر الذي جاء موسى ولشكتين ولتؤذين ولتخرجن ولتفانلن ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً آعلمك » .

ومعه لا شك فيه أن الجنود يثقوون في القائد المتدبر ، ويأخذون عنه تمسكه بالدين ، ويتمسكون به بدورهم بالناحية الدينية ويكون لهم منها نصيب كبير .
وجنود الرسول بدموا قلة تعد على الأصابع ، هم على وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص والزبير ابن العوام وأبو عبيدة بن الجراح .

هؤلاء هم جنود محمد الأول ، آمنوا به وبالرسالة التي جاء بها فأعلنوا إسلامهم وأصبحوا أول جنوده .

هؤلاء دخلوا الإسلام عن فهم وإدراك وإيمان ، وتمكن الدين الجديد منهم فجعل منهم نواة طيبة لجيش العروبة الذي غزا بلاد العرب ، ثم امتدت غزوته من بعد إلى بلاد الفرس وبلاد الروم .

ما كان هؤلاء لينجحوا لو لا تدينهم العقىق وإدراكهم الكامل لأصول دينهم ومعرفتهم الواقفة بكل وقائعه وأسراره ، وإنماهم الأكيد بالله الواحد القهار وبرسوله وبكتابه . إن هذا الدين غذاؤهم الروحي في حياتهم وفي جهادهم وفي حروبهم ، فكانوا خير جند يعملون تحت إمرة خير قائد .

ولقد كان تدين هؤلاء القوم هو سيلهم لتحمل العذاب الذي تعرضوا له ، وللصمد أمام سب قريش لهم وانتهارها بهم ، وبقبولهم المجرة من مكة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، تاركين مصالحهم وأموالهم في سبيل ما يعتقدونه ويؤمنون به .

ولقد كان تدين هؤلاء القوم هو الدافع لهم ليقفوا في وجه قريش للدفاع عن دينهم الذي آمنوا به فيصدوها ويقهروها ، ثم يهزموها ويجعلوها تسعى بنفسها إلى الإسلام تدخل فيه عن اقتناع وإيمان ، وبذلك تصبح الجزيرة العربية كلها مقرأً للدين الجديد .

ولقد سعى هؤلاء بفضل تدينهم إلى مشارف الشام ، ثم تخطوا الحدود إلى بلاد الروم فasad فيها الإسلام ، ثم إلى بلاد فارس فدخل أهلها في الدين الجديد ، ثم إلى مصر وشمال أفريقيا وعبروا البحر الأبيض إلى بلاد الأندلس حيث رفعوا في كل هذه البقاع علم الإسلام .

بفضل تدينهم هذا وسعت رقعة الدولة الإسلامية .

وإن أية قوة ما كانت تستطيع أن تتحقق هدا كله لو لا أنها مدعمة بعامل الدين العقىق .

ولقد كان الرسول يغرس في نفوس جنوده حب الدين والرغبة في التقرب إلى الله بتنفيذ تعاليم الدين والتسلك بأهدابه والاعتراف بفضله وكان يدعوم إلى أن يكرنوها جميعاً قوة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه ببعض .

* * *

٤ - سأنجح

سأنجح ، مبدأ هام يضعه دائماً أمامه كل رجل ناجح .

والقائد الذى لا يستسلم للهزيمة ويقول سأنجح ، هو القائد العظيم الناجح .
والقائد الممتاز هو الذى يكابد المشقة ويلقى الصعوبات وتصدمه العقبات
غلا تضعف قوته ولا يضيع عزمه ولا ينحرف عن طريقه المرسوم ، بل يهزا
بهذا كله ، ويتعلّم إلى الأمام يداعبه أمل واحد ، هو أنه سينجح ، ويختلط
نفسه في ثقة وأطمئنان وأمل ويقول في عزم وإصرار ، سأنجح .

والرسول الكريم عند ما تلقى الأمر الساوى :

« يَا أَيُّهَا الْمُدْرِرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ » ^(١) ، « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ
وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ قُلْ إِنَّمَا بِرِّي
إِنَّمَا تَعْمَلُونَ » ^(٢)

شعر بالعبء الملقى على عاتقه ، وصرح لخدية بعظم المهمة وخطورتها وإدراكه
لهذه الخطورة ، انقضى ياخذية عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبريل أن
أنذر الناس وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته ، فمن ذا أدعوه ؟ ومن ذا
يستجيب إلى ؟

وأصطدم محمد في أول الدعوة بغضب قريش ، وعلى رأسها عمه أبو طلب
وزوجه أم جيل فإذا فعل ؟

لقد تحمل كل ما أقدمت عليه قريش في سيل رده عن دعوته ، ولسان في
سبيل إعادة ما أقدمت عليه قريش ، وما قامت به ضنه ، ولكننا يهمنا أن نعيد
وقف محمد من هذا السيل الجارف من المعاملة الشاذة والتهديد المستمر والسب
الواضح ...

(١) سورة المدثر ١/٢

(٢) سورة الشعراء ٢١٤/٢١٦

لقد صبر الرسول ودعا أصحابه إلى الصبر ، وكان يردد عليهم أنهم فائزون وأنهم ناجحون ، وكان يعدم بالفوز والنصر ، كلما اشتد بهم الكرب ، أو زاد العذاب ، أو بلغت المعاملة القرشية مبلغاً كبيراً من الشدة والعنف ..

قال الرسول لصحابه إنه سينجح في دعوته ، وأيد قوله بالقرآن ، وكان يقول لهم :

« وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَخْزُنُوا وَأَتْمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »^(١) ،
« أَذْنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِ لَقَدِيرٌ »^(٢) ،
« وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ، يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ
لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مَقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ »^(٣) ،
« فَاسْتَبِشُوا يَبِعَكُمُ الدَّى بِإِيمَنِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »^(٤) ،
« إِنْ يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يُخْذِلَكُمْ فَنَّ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ
مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ »^(٥).

في يوم بدر قال الرسول لصحابه إنه سينجح ... وأخذ بيده حفنة من الحصايا واستقبل بها قريشاً وقال لها شاهت الوجه ، ثم أمر أصحابه قاتلاً شدوا ، وشد المسلمين وكانوا قلة ونفذوا أمر النبي فنجحوا وهزمت قريش بكثرتها وعدها وعدتها .

وعندما دارت الدائرة على المسلمين في أحد كان النبي يثق من النجاح ووقف

(١) سورة آل عمران ١٣٩

(٢) سورة الحج ٣٩

(٣) سورة التوبة ٢٠/٢٢

(٤) سورة التوبة ١١١

(٥) سورة آل عمران ١٦٠

الرسول يصد هجوم قريش وبجانبه سعد بن أبي وقاص وكان الرسول يمده بالليل ويحثه على الرجى ويقول له ، ارم فداك أبي وأمى . ، وذلك بعد أن رمى بنفسه عن قوسه حتى اندرت سيّتها ، في حين كان عمر بن الخطاب يواجه جيش خالد حتى رده .

وعندما هاجم مالك بن عوف قوة المسلمين في واد من أودية تهامة كان الرسول واثقاً من النجاح ولذا استطاع بمهارته وبما أبداه من ضروب الشجاعة أن يجمع الناس حوله وهو يناديهم « أين إليها الناس ؟ أين ؟ ، وأن يعودهم إلى نصر عزيز فر على أثره جيش عدوه من أمامه ، وجلأ إلى حصن الطائف .

قال الرسول لصحابه يوم أن كانوا قلة إنهم سينجحون وسيتصرون وتمر الأيام ويخرج الرسول وأصحابه فارين من قريش إلى الحبشة وإلى المدينة . . ثم تمر السنون ويعود الرسول مع أصحابه المهاجرين إلى مكة فيدخلونها أعزّة متصررين ، ويأتى سادة قريش وأشرافها يطلبون منه الصفح والعفو ويدخلون في دين الله الذي حاربوه وقاوموه وصدواه .

وهكذا أثبتت الأيام بل أكدت أن الرسول كان صادقاً عندما وعد رجاله بالنصر والنجاح ، وأنه كان على حق حينما آمن بالمبدا الكبير « سانجح » .

٥ - الشجاعة والثبات

إن من واجب كل قائد أن يغرس في أذهان مرؤوسيه روح الشجاعة التي لا تقهر والتي هي من صفات الطبيعة البشرية المعجزة .

ولأن القيادة الرديئة تقضي بما لا يدع مجالاً للشك على الشجاعة الفطرية .
والجندى في الميدان يعرض نفسه للموت ، وهو أمر غير مرغوب فيه .
ولكنه يستعين به ولا يخشاه إذا كان مسلحاً بالشجاعة ورباطة الجأش .

والإنسان لا يقهر أبداً إلا إذا سيطر عليه شعور بالهزيمة ، وكم من هزيمة تحولت بفضل الشجاعة والثبات إلى يديها القائد وأخذها عنه الجنود إلى فصر حاسم كريم .

ولقد ضرب الأبطال والشهداء ، للناس أمثلة في الشجاعة ، هي النور في تاريخ الحياة ، يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

وقد امتحنت شجاعة معلم الأبطال صلى الله عليه وسلم ورباطة جأشه طول حياته فما تطرق إليها وهن ، وإن صور الثبات التي يسجلها التاريخ لتصغر أمام تلك الصورة الكريمة لزيارة الرسول عليه السلام .

وهاتان الصفتان واحتياطان في حياة الرسول وفي حروبه ، فما من موقعة اشترك فيها إلا وأبدى من ضروب الشجاعة والثبات ما دفع به إلى النصر .

استحلف الرسول مرة وهو صبي باللات والعزى ، فقال « لا تسألني بما شيئاً ، فوالله ما بغضت شيئاً بغضي لها ... هذا الصبي إذن يتحدث بهذه الجرأة عن آلة القوم ، لا يخشى بطشاً ... »

وخرج مرة إلى اليمن في قافلة مع عميه ، وكان في السابعة عشرة من عمره ، فرأوا خلاماً من الإبل ، قد توش وجمح ، فتعرض له وحده وكبح جاحمه ...

واعتراض القافلة وادمله ماء ، فهابته الجماعة ، فتقدّم وقال « اتبعوني ، اتبعوني » .

هذه أمثلة الشجاعة في فترة الصبا ، ولكن الأمثلة التي نزيد بها ، والتي ينبع منها العالم أكيراً وأجلالاً ، هي تلك التي ضربها بعد الرسالة ، وبعد أن جهر بالدعوة .

وشعاعته تبدو حين خرج على قومه مفاجئاً بالدعوة التي كرهوها ، وشجاعته تبدو وهو يصابر ويثابر على الأذى والسخرية .

وشياعته تبدو وقد تعاهدت قريش في صحيفة علقت بالكعبة على مقاطعة
عمه ومن تبعه من بيت هاشم والمطلب ، تبدو والحاديات تم عليه كأنها
الأعاصير تعصف وهو ثابت عابر مثابر كالطود الشانع .

وشياعته تبدو وهو يترك بيته وولده ويهاجر إلى يثرب ليبدأ منها جهاده .
وشياعته تبدو يوم واجه قريشاً في بدر بعد قليل وعدة قليلة فانتصر
عليها .

وشياعته تبدو في جهاده الطويل لقريش واليهود وأعداء دعوته حتى تم
له الانتصار الأخير وعم الإسلام الجزيرة كلها .

ولا بد لنا أن نشير إلى تلك الشياعنة النفسية والأدبية التي لا نظير لها
في تاريخ البشر والتي لا تهن للسخرية ، ولا تذل للوعيد ، ولا تطيش للوعد
والتي تميز بها الخلق الحمدي فكانت سنته الذي لا يتزحل .

وأمثلة الشياعنة أوردننا منها الكثير خلال الحديث عن موقعة بدر وأحد
وبدر الآخرة وحنين .

وروى عن علي بن أبي طالب أنه قال « كنا إذا اشتد البأس وأحررت
الحق أتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى
ال العدو منه » .

ويقال : إن أهل المدينة سمعوا مرة جلبة فركب الرسول فرساً غير مسرج
وسبق الناس إلى مصدر الصوت وبينها هو عائد لقبه الناس فزعين ومهم
في طريقهم إلى مكان الصوت فقال لهم « لن تراعوا ، فعجبوا من سبقة
وشياعته .

ويوم حنين وقف الرسول على بغلته البيضاء ، والناس بفرون عنه ،
وهو يصيح :

أنا النبي لا كنْب أنا ابن عبد المطلب
فارئي أحد يوم ذكرى أثبت منه ولا أقرب للعدو .

ولقد أشتهر من جنود محمد بالشجاعة والثابرة كثيرون ، مثل علي وعرو و خالد وأبو عبيدة ، وأمثلة شجاعة هؤلاء كثيرة ملأت كتب التاريخ التي بحث حيائهم وحروبهم وأرخت جهودهم وفناهم .

٦ - الاهتمام بالجندي

يقول الدكتور نبات في حديث له عن الشخصية « هي المدى الذي يذهب إليه الفرد في تحويل كفایاته وضرورب نشاطه إلى عادات وأعمال من شأنها التأثير بنجاح في الغير » .

ويقولون في وصف القائد الناجح إنه القائد الذي يفكر في جنده ويهمهم .

ومن الصفات الشخصية للقائد أن يفكر في غيره ، وأن يهم بجنده وأن يحل نكaran الذات مكان بعها .

والقائد الذي لا يهم بجنده هو الذي يصادف أكبر العقبات في حياته ، ثم هو الذي يسبب للأخرين أكبر المضار .

إذن فذو الشخصية هو الذي يهم برفاقه .

فكلا اهتم القائد بجنده زاد نجاحه كقائد .

ونعرض فيما يلي بعضًا من صور اهتمام الرسول بجنده كقائد :

(١) في سرية عبد الله بن جحش خرج سعد بن أبي وقاص ومعه عتبة ابن غزوان يبحثان عن بعير لها ضل فأسرت هما قريش ، وكان عبد الله قد أسر اثنين من قريش أحدهما الحكم بن كيسان ، ورغبت قريش في افداههما ، وبعثت بذلك إلى الرسول ، فتذكر سعداً وعتبة وهما جنديان من جنوده ، فأبى عرض قريش وقال لها « لا نفرديكما حتى يقدم صاحبنا فإننا نخشىكم عليهم فإإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم » .

ولم يفرج عن الأسرى حتى عاد صاحباه .

(ب) عندما أصيب سعد بن معاذ ، أمر الرسول أن يضرب له فساطط في المسجد ليكون قريباً منه ، وكان يعوده كل يوم مع أبي بكر وعمر وسائر المسلمين ، ولما حكم في بني قريظة انفجر جرحه وسائل دمه على الرسول وما تسمع الرسول أمه تندبه فقال « كل نادبة كاذبة إلا نادبة سعد » .

(ج) في غزوة أحد ، خرج الرسول بعد انتهاء المعركة ، يتمنى عمه حمزة ، فلما رأه ، وقد يقرب بطنه ومثيل به ، حزن من أجله حزناً شديداً وقال « لن أصاب بذلك أبداً ، وما وقفت قط موقفاً أغrieve إلى من هذا .. » ولم ينصرف الرسول من أرض المعركة إلا بعد أن وارى جميع « القتلى المسلمين » التراب بعد أن صلى عليهم بنفسه .

(د) أغارت عينية بن حصن على أطراف المدينة ، قتل رجال وأسر الإبل التي كان يرعاها واحتل امرأة الرجل المقتول ، وصاح سلطة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي يطلب نجدة محمد بقوله « واصبحوا ، واهتم الرسول بهذا الطلب ، فصاح في قومه صيحة الفزع ، واجتمع حوله القوم وانطلقوا معه حتى بلغ الجبل من ذي قرد ، واستخلص الإبل وأعاد المرأة المؤمنة .

(هـ) عندما جهز الرسول جيش المسلمين إلى غزوة مؤتة ، سار مع الجيش حتى ظهر المدينة يخوضون على القتال ، ثم دعا للجيش قائلاً « صحبكم الله ودفع عنكم وردمكم إلينا سالمين » .

وعندما علم الرسول بقتل زيد وجعفر وابن رواحة حز الأسى في نفسه وفيل ذرفت عيناه بالدموع ، وخرج إلى أصحابه يقول لهم « لا تغلووا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر أصحابهم » .

وبكي الرسول زيداً عندما التقى بابنته . ودهش الناس لبكائه ، فقال لهم « إنما هي عبرات الصديق يفقد صديقه » .

(و) عندما بعث الرسول بمدد إلى عمرو في غزوة ذات السلاسل خاف

أن يختلف عمرو وأبو عبيدة قائد المدد ، فأوصى الرسول أبا عبيدة وقال له
«لا تختلفا» .

وحلت هذه الكلمة التي قالها الرسول أزمة عنيفة هددت قوة المسلمين
عندما اختلف عمرو وأبو عبيدة على تولي القيادة إذ تذكر أبو عبيدة قول
الرسول ونفذه وتولى عمرو القيادة وعمل أبو عبيدة كجندي تحت إمرته .

(ز) يلغى من اهتمام الرسول بأحد جنده وهو زيد بن حارثة الذي استشهد
في ممؤته . أن عين ابنه أسامة وهو في العشرين من عمره قائد جيش المسلمين
لغزو الروم ، وجعل ضمن الجيش آبا بكر وعمر .

وأثار هذا التعيين دهشة الكثيرين لو لا أنهم أدركوا المغزى الكبير الذي
يهدف إليه الرسول من وراء ذلك ، فقد عرروا أن الرسول إنما أراد بذلك
أن يقيم أساساً مقاماً أبيه الذي استشهد في ممؤته ، وأن يجعل له من نثار النصر
ما يجزى به ذلك الاستشهاد ، وما يبعث في نفس الشاب الحمّة والحيّة ويعود
شباب المسلمين لاضطلاع بأعباء أجسم التبعات .

(ح) ولقد عمد الرسول — اهتماماً منه بجنده في أثناء غزواته — إلى
تعيين بعضهم قادة ، وإلى أن يسلم الآخرين الألوية ، وأن يولى البعض إمارة
الجيوش والفرق ، ومنح هؤلاء جميعاً حظاً وافراً من المسئولة ، فبذل كل منهم
جهده وكل ما في وسعه .

وبعث الرسول بسرایاه ، وعين على كل سرية أحد رجاله ، فهذه سرية
محزنة بن عبد المطلب ، وهذه سرية عبيدة بن الحارث ، وهذه سرية عبد الله
بن جحش ، وهذه سرية أبي سلمة بن عبد الأسد ، وهذه سرية عبد الله
بن أبي نمير .

وفي غزوة أحد ، عين الرسول خمسين من الرماة ، وجعلهم فوق الجبل
بمحمن ظهره ، وعين عليهم عبد الله بن جبير أميراً .

وفي غزوة الفتح قسم النبي جيشه أربع فرق ، وعين على كل فرقة أحد

رجاله ، فعن على إحداها خالد ، وعلى الأخرى الزيير ، وعلى الثالثة سعد ابن عبادة ، وعلى الرابعة أبو عبد الله بن الجراح .

وإن القائد الناجح هو الذي يصل ما بينه وبين جنده برباط التعاطف والانسجام ، ولكن يكون على صلة تعاطف مع جنده ينبغي أن يكون قوي الشخصية وعلى خلق عظيم ... ويقال إن العطف والكرم وحفظ الحقوق ورعااة الشعور تملأ قلوب الجندي محبة في قاتلهم ، وتدفع بهم إلى التفاني في أداء الواجب .

وكانت هذه كلاماً رائداً محمد وكانت أساس علاقته بجنده ، وهو ما دعا به الله ابن عبد الله بن أبي يحيى الرسول ويطلب الإذن ليقتل بنفسه أباً به حتى لا تحدث فتنة بين المسلمين إذا أضطر إلى القتل لأبيه من قاتله فقال له الرسول « إنما لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبه ما بقي فينا » ،

ونسوق حادثة أخرى تبين عطف الرسول على أحد رجاله وهو صديقه أبو بكر ، فقد جاء أبو بكر بأبيه فلما رأاه الرسول قال « هلا تركت الشيخ مكانه حتى أكون أنا آتيه فيه؟ » ، فقال أبو بكر « يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت؟ » فأجلس النبي الشيخ بين يديه ومسح صدره ثم قال له « أسلم ، فأسلم وحسن إسلامه » .

ويحسن هنا أن نذكر حين نذكر معاملة الأفراد والاهتمام بالجندي أن هناك طريقة واحدة لتنمية الفضائل في الجنود ، وهذه الطريقة هي التشجيع . ولم يوجد فقط قائد من القادة البارزين إلا وكانت هذه الحقيقة نصب عينيه ، وقال في ذلك أحد مشاهير علم النفس « إن حب الثناء والتعلم إلى سماع الاستحسان من أعمق المبادئ المتصلة في نفوس البشر .. إن التقدير يدفع الإنسان إلى أن يبذل جهده ويبدى خير ما عنده » .

وي ينبغي للقائد ألا يدع فرصة تمر دون أن يعبر عن تقديره لذاته عمل بارز يقوم به جنده ... ونسوق فيما يلي أمثلة على مدى ما كان يلقاه جند

الرسول وأصحابه من تشجيعه الذي لم ينقطع لحظة واحدة منذ بدأ في الدعوة إلى دينه الجديد :

(ا) كان الرسول يمر على آل ياسر وهم صابرون على تعذيب قريش لهم وكان يقول موسياً لهم «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»، وكان هذا القول كالبلسم الشاف لآل ياسر فينسون عند ساعه آلامهم ومتاعبهم ويصدون ويتحملون ما يلاقونه من التعذيب الشديد والمعاملة السيئة.

(ب) في غزوة أحد أراد الرسول أن يثير أصحابه ويحضهم على القتال ويشجعهم وهو على وشك الاشتباك مع العدو فدیده بسيف وقال «من يأخذ هذا السيف بحقه؟»، فقام إليه رجال فامسكه عنهم وكان منهم أبو بكر وعمر وعلى والزبير، ثم سأله أبو دجانة بن خرشة الرسول «وما حقه يا رسول الله؟»، فقال «أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني»، فقال أبو دجانة «أنا آخذنه يا رسول الله»، فقال له الرسول «لعلك إن أعطيته تقاتل في الكبول»، فقال «لا يا رسول الله»، واعتسب أبو دجانة بعصابة حرام وحمل السيف وسار مختالاً، فقال الرسول «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

(ج) في غزوة خير بات الجيش الإسلامي معداً للمعركة فقال الرسول لأصحابه « ساعطوا الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبانه»، فراح كل يمني نفسه بأن يكون هذا الرجل، وفي الصباح التفت أصحاب الرسول حوله فسأل عن علي بن أبي طالب فقيل إنه يشكو وجعاً في عينيه، فدعاه به خادم وأضعاً على عينيه عصابة فدعاه له الرسول بالشفاء من وجعه ثم أعطاها - بعد أن رفع العصابة عن عينيه فإذا به معاف وسلام - الراية فسار على رأس الجيش.

وكان لتشجيع الرسول لعل وهو مريض أثر كبير في نفسه فسجل صفحة رائعة من صفحات البطولة الخالدة خلال مبارزته فارس اليهود الأول وقائد ها مرحاً.

وقول الرسول خالد بن الوليد إن سيف من سيف الله سله أمه على المشركين قول فيه تشجيع لخالد وكان له أثره حتى أن خالداً أحرز للإسلام في عهد الرسول وبعد عهده انتصارات جعلها له التاريخ بالمجده والفاخر .

٧ - مواجهة المخاوف

من أهم الصفات الواجب توافرها لدى القائد صفة القدرة على مواجهة المخاوف وعدم التهرب منها . . .

(أ) في غزوة بدر واجه الرسول الموقف على حقيقته ، لم يحاول أن يتجاهل هذه الحقيقة التي ترامت له ، بل أقبل عليها وجعلها أساس خطته . . . نزل الرسول بأدنى ماء ، وكان الحباب بن المنذر على بالمكان فقام إلى الرسول وقال له يا رسول الله ، أرأيت المنزل أميلاً أنزلك الله فليس لنا أن نتقدمه ولا تتأخر عنه أم هو الرأي وال الحرب والمكيدة ؟ ، ولما علم من الرسول الرأي وال الحرب والمكيدة قال للرسول إن هذا ليس بمنزل فلتهمض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزل ثم نعور ما وراءه من القلوب ثم نتني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فتشرب ولا يشربوا . . .

وواجه الرسول هذه الحقيقة البارزة في حديث الحباب ورأى صواب ما يدعوه إليه فقام ومن معه واتبع رأي صاحبه .

(ب) وفي أحد كان من رأى الرسول اختيار خطبة الدفاع ، ولكنه ووجه بدعاية الخروج ، وليسحقيقة واقعة وهي أن أصحابه يريدون مقابلة قريش ومقاتلتها وجهاً لوجه ، فإذا انتصروا عليها وإنما استشهدوا وكانت لهم الجنة ، وهزت هذه الحقيقة التي تبدو فيها الصراحة والشجاعة وحديث الاستشهاد نفس الرسول فوافق على الخروج برغم أنه يتعارض ورأيه . . .

ولما حاول القائلون بالخروج العدول عن رأيهم خوفاً من أن يكونوا بذلك قد خالفوا رغبة الرسول قال لهم «ما ينفع النبي إذا ليس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . . انظروا ما آمركم به فاتبعوه . . .

(ج) وعندما تحركت قريش تبني مرة أخرى الوقف في وجه محمد أخذ الرسول يقدر موقفه ، وواجهته حقيقة مرة .. إن قريشاً أكثر منه عدداً وعدة .

وعندما عرض عليه سليمان الفارسي حفر الخندق حول المدينة ، ولبس الرسول في هذا العرض وجاهة الرأى ، ووجد أنه خطة سليمة تناسب الموقف ويجب أن تنفذ ، أمر عليه الصلاة والسلام بحفر الخندق واشترك بنفسه في حفره .

(د) واستفاد الرسول مرة أخرى من سليمان الفارسي حينها نقل إليه أنه لا سيل إلى فتح حصن حنين إلا باستخدام المجنحين والدبابات ، ووافقه الرسول على استخدامها حينها وضحت له هذه الحقيقة .

(هـ) وعندما خرج الرسول مع أصحابه قاصدين مكة للزيارة ، وفدت قريش أمام رغبتهم وعارضت دخوله مكة في عامه هذا ، وأدرك الرسول حقيقة هامة وهي أن دخوله مكة برغم إرادة قريش - في هذا الوقت الذي لم يكن فيه قد استكمل عدته لمواجهتها في داخل مكة - سيكون صعباً وسيكلفه الكثير . ولم يشاً الرسول أن يتتجاهل هذه الحقيقة الواضحة فبعث الرسل إلى مكة ، وبعثت إليه مكة بالرسائل ، واتفقوا على أن يعود إلى المدينة في عامه هذا على أن يأتي للزيارة في العام المقبل ، وكان هذا هو النص الأول في صلح الحديبية .

٨ - القدرة البلاغية

ليس في مقدور الإنسان أن يصبح قائداً ممتازاً إلا إذا كانت لديه القدرة البلاغية ، لأن الرجل لا يعرب عن شخصيته إلا بالحديث ، والحديث البلاغي يستطيع به القائد أن يوضح ما يريد أن يقوله وبه يمكنه أن ينقل حماسته وحياته إلى سامعيه .

والقيادة هي فن التأثير في جماعة من الناس بالحدث أو بالقدرة ، لاتهاب سيل معين .

والجند تشعلهم وتنور فهم ككل الناس الخطابة والبلاغة ، وإذا كانت الخطابة لازمة للرجل السياسي لاكتساب مجموع من الأصوات يحرز بها نصراً سياسياً ، فإن الخطابة لازمة للرجل العسكري لاكتساب نصر حرب يفوق في غالبية الأحيان النصر السياسي .

كان الرسول بشرأً يوحى إليه ، وما أتى عن طريق الوحي قد فصلت آياته في الكتاب ، أما ما عدا ذلك من الأقوال فهي ثمرة رأي راجح ، ولسان فصيح ، وعقل مدبر .

قال له أصحابه يوماً « ما رأينا الذي هو أفصح منك ! » فقال : « وما يمنعني ، وإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين » .

وقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم فصاحتة بنشأته في بنى سعد ، وموالده في قريش ، ويريد أنه جمع قوة عارضة البدية وجزالتها ، ورونق الحضارة وزخرف صناعتها وروعتها .

سأل أبو بكر يوماً الرسول : « لقد طفت في العرب ، وسمعت فصحاهم ، فما سمعت أفصح منك ؟ فمن أدبك ؟ » فأجاب : « أدبني رب فاحسن تأدبي » .

قال الماجست يصف كلام الرسول : « ألق الله على كلامه المحبة وغضبه بالقول ، وجمع له بين المهابة والحلابة ، وهو مع استغاثاته عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أخفمه خطيب ، ولم يسمع الناس بكلام قط أعمّ نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً من كلامه صلى الله عليه وسلم » .
والرسول الكريم صاحب أسلوب بلاغي حكيم له تأثيره على قارئيه أو سامعيه .

ولننظر مثلاً إلى أسلوبه في توجيه الأمراء والولاة ، فقد جاء في مختار

مسلم : « كان رسول الله إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أو صاه بتقوى الله يوم من معه من المسلمين خيراً ثم قال : « اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدوا ولا تمتلوا ولا تقتلوا ولليدا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلات خصال فإنهم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ولا يكون لهم في الغيبة والقُمْشة . إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فسلم الخزية ، فإنهم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم »

و « إذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن يجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخلفوا ذمكم وذم أصحابكم أهون من أن تخلفوا ذمة الله وذمة رسوله »

و « إذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن انزلهم على حكمك فأنت لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا »

وكان للرسول أسلوب خاص في توجيه الدعوة للإسلام إلى الملوك والأمراء ففي رسالته إلى النجاشي : « إنّ أحد إلينك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمه ألقاهما إلى مريم البشارة الطيبة الحصينة خملت عيسى تخلفه الله من روحه ونفعه كخلق آدم بيده ونفعه ، وإنّ أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جامني فإني رسول الله »

وكان للرسول في المعاهدات والمواثيق أسلوب خاص نوره مثله ما جاء في كتابه بين المهاجرين والأنصار واليهود : « المهاجرؤن من قريش على وبعهم يتعاقلون بينهم وهي يهدون عانيهم بالمعروف والقبط بين المؤمنين »

وبنوا عوف على ربعتهم يتعاقلون معافلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانياها
بالقسط بين المؤمنين ..

هذه الأمثلة من كلام الرسول توضح أن كلامه صلى الله عليه وسلم يتصف ببلاغة لا كافية فيه ولا غموض ولا إغراب ، بل كلام واضح سهل صريح ، ولا عجب في ذلك فالرسول عربي قرشي النشأة كان يهدف عندما يتحدث أو يكتب إلى الوصول إلى سامعه أو قارئه كتبه فلا يقيم بينه وبينهما حاجزاً من اللفظ الغريب أو المعنى البعيد .

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يعيد الكلمة ثلاثة لتعقل عنه . وأنه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال « إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذي يتحلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها » ،

وكان كلام الرسول لا فضول فيه ، ولا تقصير ، يحفظه من مجلس إليه ، يقول عائشة رضي الله عنها ، ما كان رسول الله يسرد كسركم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من مجلس إليه ..

وروى أنه كان يحدث حديثاً لو عده العاد لاحصاه .

وما عرف عن النبي واشتهر به أنه كان قليل الكلام ، معرضأً عن اللغو ، لا يقول إلا الحق ، ولهذا يخلو حديثه وكلامه من الحشو والتكرار والزيادة والزخرف والخيال ابتغاء التأثير .

وكان الرسول يكره سجع الكهان ، ولو أنه لم يكن يخلو كلامه من سجع يأتى على السجية مثل « ما بال أقوام يشترون شروطاً ليست في كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط . فناء الله أحق وشرط الله أونق ، وإنما الولام من أعتقد

ومثل « إن الله حرم عليكم حقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات ، وكهـ لكم قيل وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ..

كان أبو سفيان قد كتب إلى الرسول يقول له « نريد منك نصف نخل

المدينة فإن أجبتنا إلى ذلك وإنما باشر بخراب الديار وقلع الآثار ، فرد عليه الرسول في كتاب يقول «وصل كتاب أهل الشرك والنفاق والشقاق وفهمت مقالتكم . فواهه مالكم عندي جواب إلا أطراف الرماح وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام وأبشروا بضرب الحسام ، وبغلق الهاام ، وخراب الديار ، وخلع الآثار ..»

ومن المعروف أن الرسول لم يقل الشعر ، ولو أنه كان له رأى في الشعر الذي كان يقال في عصره ، والذى قيل قبل عصره ، وكان عليه السلام يعدل فيه بما يتفق مع مبادئه ورسالته ، ومن ذلك أنه سمع قول سليم عبد بن الحساس «كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً» ، فقال الرسول «كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً ، مقدماً الإسلام .»

واستحسن الرسول الشعر الذي قيل في تأييد دعوته والندوة عنها ، وكان الرسول يقيس كلام الشعراء بمقاييس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة ، ومن ذلك قوله عليه السلام «أسعد كلمة قالها الشاعر كلبة ليدي ، ألا كل شيء ما خلا الله باطل .»

وأهم نواحي البلاغة في حياة الرسول اجتماع المعاني الكبار في كلمات قصار ، وشمول الكلمات القليلة علوم وافية قد يبسطها الشارحون في مجلدات ، فقد جمع علم السلوك في الدين والدنيا في سطرين في قوله «احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واحرث لآخرتك كأنك تموت غداً .»

وجمع الرسول علم السياسة في قوله «كما تكونوا يول عليكم .» وفي هذا التعبير القصير أكثر من معنى ، ففيه أن الأمم مسؤولة عن حكوماتها ، وأن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التي تعلنها الحكومة فلا سيل إلى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقييد فيها الحكم بقيود القوانين ولا سيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقييد فيها الحكم بألف قيد من النظم والأشكال .

واشتهر الرسول بأنه كان فصيح اللغة ، فصيح اللسان ، فصيح الأداء بلغًا وله أحاديث كثيرة^(١) في السياسة والأخلاق والاجتماع .

* * *

٩ - السياسة

يقال إنه إذا فقدت السياسة في المعاملات الشخصية في الخبط العسكري فإن محور الحركة لابد أن يعتريه الخلل وأن دولاب العمل لابد أن يقف .

والسياسة صفة من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم ، هي مثل لرجال السياسة والدولة والقادة ، في جميع ميادين الإصلاح ، وفي هذه الناحية يجد الرسول مثلاً عالياً لرجل الدولة .

والرسول الكريم كان يلتجأ إلى السياسة كوسيلة يضمن بها استقرار حياة دعوته .

اتخذ الرسول السياسة وسيلة في حياته الخاصة وفي حياته العامة ، فهو في حياته الخاصة قد ربط بينه وبين سيدات من المسلمات برباط الزواج لفرض عميق ، وسبب بعيد ، ودافع لا يحتمل شيئاً سوى الخير والصلاح .

فالرسول بعد وفاة خديجة تزوج سودة بنت زمعة أرملة السكران بن عمرو ابن عبد شمس ، ولم تكن سودة على جانب من الجمال أو من الثروة أو من المكانة بما يجعل لمطعم من مطاعم الدنيا أثراً في زواجه بها ، إنما كانت زوجاً لرجل من السابقين إلى الإسلام الذين احتلوا في سيله الأذى والذين هاجروا إلى الحبشة ، وقد أسللت سودة وهاجرت مع زوجها وعانت من المشاق ما عانى ، ولقيت من الأذى ما لقى ، فلما مات زوجها تزوجها الرسول ليعرفها وليرفع بعكتها إلى أمومة المؤمنين .

ورأى الرسول من حسن السياسة أن يرتبط بوزيريه أبي بكر وعمر^(٢) فقرر

(١) جمع الأستاذ محمد فراعنة أحاديث الرسول في كتاب بهذا الاسم من أربعة أجزاء

(٢) علم عمر أن ابنته حفصة ترد اليه حتى يظل يومه غضبان ، فذهب إليها وأسلمها فأجابته بالإعجاب ، فثار عليها وغضض وقال لها « والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا لطفاتك »

أن يتزوج عائشة ابنة أبي بكر ، وحفصة ابنة عمر ، ليرتبط وإياهما برباط المعاشرة وكذلك كان الحال حينما قرر أن يرتبط برباط المعاشرة أيضاً مع على وعثمان فزوجهما من ابنته .

لقد تزوج الرسول من ابنتي وزيريه ليعتى أواصر المعاشرة الإسلامية الناشئة في شخص وزيريه ، كما تزوج من سودة ليعلم المجاهدون من المسلمين أنهم إذا استشهدوا في سبيل الله فلن يتركوا ورائهم نسوة وذرية ضعافاً يخافون عليهم عيلة .

ولهذا السبب تزوج الرسول من زينب بنت خزيمة ، ومن أم سلمة ، فقد كانت الأولى زوجة لعيادة بن الحارث بن المطلب الذي استشهد يوم بدر ، وكانت الثانية زوجة أبي سلمة الذي جرح في أحد ومات نتيجة الجرح ، فتزوجها الرسول وأخذ نفسه بالعناية بتنشئة أبنائها من أبي سلمة .

وأخذ الرسول السياسة وسيلة في حياته العامة ، ففي غزوة الخندق اتصل حبي بن أخطب ببني قريظة ، وكانوا حلفاء الرسول لينقضوا عهدهم معه ، ولينقلبوا عليه ، وهنا أدرك محمد قيمة السياسة في معاملاته ، فأرسل إلى بني قريظة نعيم بن مسعود فتمكن من كسب بني قريظة إلى جانب المسلمين ، وكان من نتيجة ذلك أن عادت قريش بمخفي حنين دون أن تصيب محمد بسوء .

والعمل السياسي الجليل حقاً هو ذلك العمل الذي توصل به محمد إلى تحقيق وحدة يثبت وإلى وضع نظام سياسي لها بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتألف إذ تقرب إلى رؤسائهم ، وتحدى معهم وربط بينهم وبينه برباط المودة حتى قيل إنه كان يصوم يوم صومهم ، وأنه أخذ القبلة في الصلاة بيت المقدس قبلة أنظارهم ومثابة بني إسرائيل جميعاً .

وما كانت الأيام لتزيده باليهود أو لتزيد اليهود به إلا مودة وقرب ، كما أن سيرته ، وعظيم تواضعه ، وجميل عطفه ، وحسن وفائه ، وفيض بره بالفقر والبأس والمحروم ، كل ذلك وصل الأمر بيته وبينهم إلى عقد معاهدة صداقة

وتحالف وتقدير لحرية الاعتقاد ، وتعود هذه المعاهدة من الوثائق السياسية المجدرة بالإعجاب .. جاء فيها :

هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب ومن
تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم ، إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِّنْ دُونِ النَّاسِ ، المهاجرون من
قريش على ربعتهم^(١) يتعاقلون بينهم وهم يفدون عليهم بالمعروف والقسط بين
المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تقدر
عانياها بالمعروف والقسط بين المؤمنين (ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار
وأهل كل دار) ... وأن المؤمنين لا يتكون مفرحاً^(٢) بينهم أن يعطوم
بالمعروف في فداء أو عقل .. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين
وإن اليهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم
وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم ، فإنه لا يوقع^(٣) إلا نفسه وأهل بيته .. وإن على
اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .. وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ،
وأنه لا تجاهر حرمة إلا ياذن أهله ..

هذه هي بعض فقرات وثيقة سياسية كبيرة مطولة وضعها الرسول منذ ألف
وثلاثمائة وخمسين سنة ، تقررت فيها مبادي حرية العقيدة ، وحرية الرأي وحرمة
المدينة ، وحرمة الحياة ، وحرمة المال ، وتحريم الجريمة .

ومؤاخاة المسلمين في المدينة عمل سياسي جليل له أثره في حياة الدعوة
الإسلامية ، فقد دعا الرسول المسلمين لباتخوا في الله أخوين ، فكان
هو وعلى أخوين ، وكان عمر وزيد أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد
أخوين ، وكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين ، وتآخي كل واحد
من المهاجرين مع واحد من الأنصار إخاء جعل له الرسول حكم إخاء الدم
والنسب ، وبهذه المؤاخاة تأكّدت وحدة المسلمين وازدادت .

(١) على استقامتهم .

(٢) المتنقل بالدين والمال .

(٣) يهلك ويفسد .

وكانَتُ السِّيَاسَةُ هِيَ طَرِيقُ الرَّسُولِ عِنْدَ مَا سَارَ بِرَجَالِهِ يَرِيدُونَ زِيَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَقَدْ وَقَفَتْ قَرِيشٌ فِي طَرِيقِهِ تَوَدُّ أَنْ تَمْنَعَهُ، وَلَوْ أَدِىَ هَذَا الْمَنْعُ إِلَى اسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ، وَكَانَتْ رَغْبَتُهُ أَنْ تَمْ الْزِيَارَةُ فِي جُوْسِلِي لَا حَرْبٍ فِيهِ وَلَا نِزَالٍ، وَلَهُذَا فَعْنَدَمَا بَانَتْ مَظَاهِرُ الشَّرِّ مِنْ نَاحِيَةِ قَرِيشٍ جَاءَ إِلَى السِّيَاسَةِ فَبَعْثَ إِلَيْهِمْ عَثَيْنَ بْنَ عَفَانَ يَقُولُ لَهُمْ «إِنَّا جَئْنَا لِنَزُورِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَلِنَعْضُمْ حَرْمَتَهُ وَلِنَوْدِي فَرْضَ الْعِبَادَةِ عَنْهُ»، وَقَدْ جَئْنَا بِالْهَدِيِّ مَعْنَا، فَإِذَا نَحْنُ نَاهَا رَجَعْنَا بِسَلَامٍ».

وردت عليه قريش أنها أقسمت أنه لن يدخل مكة وصحبه هذا العام ، وأرسلت سهيل بن عمرو وقالت له ، انت محمدأً فصالحه ولا يكن من صالحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا انه دخلها عنوة أبداً .

وَجَرَتْ مُحَادِثَاتٍ بَيْنَ الرَّسُولِ وَمُهَبِّلِ وَطَالَتْ الْمُحَادِثَاتْ وَتَعَرَّضَتْ فِي
الطَّرِيقِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسْمَعُونَ نَبَأَ الْمُحَادِثَاتِ بَشَّيْهٍ مِنَ الصَّدِيقِ حَتَّى أَنْ عَمِّرَ
ذَهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَدَارَ بِيَنْهَا هَذَا الْحَدِيثُ :

عمر : يا أبا بكر أليس رسول الله ؟

او بکر : پا !

عمر : أولئك مسلمين ؟

أبو بکر : بلى !

عمر : فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟

أبو بكر : يا عمر الزم غرزك ^(١) فإنيأشهد أنه رسول الله .

عمر : وأنا أشد أنه رسول الله .

وترك عمر أبا بكر واتجه إلى الرسول يتحدث إليه وهو محن
كان يرى أن توقف المحادثات ، وأن يدخل المسلمين مكة بالقوة ، فاما
دخولها وإما استشهدوا .

(١) الفرز = الورجل

وتدخلت السياسة الحكيمية في هذا الموقف بين النبي وعمر إذا استمع إليه الرسول وفتح صدره لكل ما يقوله حتى إذا ما انتهى من عرض وجهة نظره قال له «أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني»، ووقع عهد الحديبية بين المسلمين وقريش وجاءت في هذا للعهد النصوص الآتية :

- ١ - مدة العهد بين الطرفين عشر سنين .
 - ٢ - من ألق محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً من رجال محمد لا يردوه عليه .
 - ٣ - من أحب من العرب عالفة محمد فلا جناح عليه ، ومن أحب عالفة قريش فلا جناح عليه .
 - ٤ - أن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه ، ويقسموا بها ثلاثة أيام ، ومعهم من السلاح السيوف في قربها ، ولا سلاح غيرها .
- وآخر عمل سياسي قام به الرسول قبل وفاته هو إيصاله المهاجرين بالأنصار فقد وقف خطيباً بالمسجد وقال «يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزبون ، والأنصار على هنئتها لا تزيد ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم» .

* * *

١٠ - صفات أخرى

(١) يقولون إن العدالة والاستقامة وعدم المحاباة من ألزم الضرورات لفرد الذي قدر له أن يكون قائداً حكماً بين الناس ، وإن الاحترام والإعجاب والثقة والمحبة تتوقف على ما يتحلى به القائد من هذه الصفات ، وإن أبسط الحالات لاحكام العدالة لها أسوأ الأثر في نفس الناس .

كانت المساواة من أهم الأسس التي قام عليها الإسلام ... المساواة بين الناس جميعاً وإقرار العدالة وعدم المحاباة ، لا فرق بين أحد وآخر إلا بالعمل

الصالح ويقول السير وليم موير في وصف أخلاق الرسول « كانت السهولة صورة من حياته كلها ، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته في معاملته لأقل تابعيه ، فالتواضع والشفقة والصبر والإيثار والجود صفات ملازمة لشخصه ، وجالبة لحبة جميع من حوله ، فلم يعرو ، عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنًا ، ولا هدية مهما صغرت ، وما كان يتعالى ويزور في مجلسه ، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصه ياقبه وإن كان صغيراً ، وكان إذا لقى من يفرح بنجاح أصحابه أمسك بيده وشاركه سروره ، وكان مع المصاب والحزين شريكاً شديد المطاف حسن الموسعة ، وكان في أوقات العسر يقسم قوته مع الناس ، وهو دائم الاشتغال والتفكير في راحة من حوله وهنائهم » .

وأبرز مظاهر توافر هذه الصفات في شخصية الرسول موقفه يوم نشأ الخلاف بين المهاجرين والأنصار ، بعد أن أتم الله نصره بفتح مكة ، فقد قال الأنصار « لق والله رسول الله قومه » .

وأبلغ سعد بن عبادة النبي ما يقوله الأنصار فقال له النبي « اجمع لي قومك في هذه الحظيرة » ، فجتمعهم سعد وقام لهم النبي ودار الحوار التالي :

محمد — يا معاشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم وجدةً وجدتكموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعاللة فأغنناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

الأنصار — بلى الله ورسوله أمنٌ وأفضل .

محمد — ألا تجنيوني يا معاشر الأنصار ؟

الأنصار — بماذا نجيك يا رسول الله ؟ الله ولرسوله المن والفضل .

محمد — أما والله لو شتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم ، أتيتنا مكذباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآتيناك وعائلاً فآتيناك ، أو جدتم يا معاشر الأنصار في لمعة^(١) من الدنيا

(١) الفى البسيط .

تألفت بها قوماً ليسموا ووكلتم إلى إسلامكم ! ألا ترثون
يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشأة والبعير ، وترجموا
برسول الله إلى رحالتكم ، فوالذى نفس محمد يده لو لا
المجرة لكتت امراً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً
وسلك الأنصار شعباً لسلك شعب الأنصار .

وشعر الأنصار من قول الرسول عده ، وأدركوا عدم حماباته المهاجرين
وأحسوا بجهه لهم وتقديره لنصرتهم وإيه واعتزازه بهم فقالوا « رضينا برسول
الله قسماً وحظاً .. »

بهذه الألفاظ الرقيقة وبهذه العدالة المثالبة حكم الرسول بين المهاجرين
والأنصار .

* * *

(ب) ولد الرسول كامل الخلق والمرءة ، وعاش ولم يكن لبيته سلطان على
نفسه ، بل كان طلب الحق والثبات عليه أين صفاتي العيدة ، التي لا ينكراها
عليه عدو ولا صديق ، فالحق في ذاته هو الغابة التي دأب ورامها ، سمي لها
وابتلى وهاجر وجاهد وقاتل فيها .

ولقد كان الرسول غيوراً على الحق ، ويروى أن الصحابة حين عجبوا من
غيرة سعد بن عبادة على حارم الله ، قال لهم « تعجبون من غيرة سعد ، لأننا
أغير منه ، والله أغير مني .. »

وقيل إنه لما أخره الأعداء في غزوة الخندق عن أداء الصلاة ، خسب
ودعا عليهم بقوله « اللهم املأ بيوتهم ناراً .. »

* * *

(ج) كان النبي رجلاً في الرخاء والشدة ، لم تعرف رجولته الشطط والتهور ،
يعفو ويصفح ما دامت الإساءة إلى شخصه الكريم .
بحكم أن أعرابياً جاء يسأله صلى الله عليه وسلم ويقول له – وهو يخذبه

من ردانه حتى أثر الجذب في صفحة عنقه - «احملني فابك لا تعطيني من مالك ولا من مال أيك ..»

وحاول بعض الصحابة تأديب الرجل ، ولكن الرسول منعهم وصفح عنه ولم يمنع عنه بل أعطاه حتى رضي .

وعرف عن النبي أنه لم يكن يزدھي الزھو عند الانتصار أو يدفعه الفوز إلى القسوة والانتقام . بل كان يقف عند الحد الذى تزول معه الفتنة ويقوم به أمر الدين ، ثم يغفو ويصفح ، والدليل على صدق ذلك أنه خلال محادثات الحديبية ، خرج بعض من سفهاء قريش ليلاً يريدون معسكر الرسول يرمونه بالحجارة ، وكان عددهم أربعين أو خمسين ، فأخذهم رجال النبي إليه ، فما كان منه إلا أن عفا عنهم ، دون أن يزدھي الزھو عند الانتصار ، وخلى سبيلهم .

(٤) وعفوه وصفحه صلى الله عليه وسلم عنمن أسرفوا في إيدانه ، هو الخلق الكريم الذى أدبه به القرآن ، قال تعالى :

«خُذِ الْفَوْ وَأْمُرْ بِالْمُرْ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ»

وما أثر عن الرسول قوله :

«... أن تصل من قطعتك ، وتعطى من حرملك ، وتعفو عنمن ظلمك ..»

والعفو عند المقدرة مرآة تجلی فيها أحسن صور النفس ، يتجلی فيها سمو القصد ، وبعد الغایة ، والترفع عن الشهوات ، وإن نجد في تاريخ البشر مثل الرسول مظفراً ناجحاً مؤيداً يعطى من حرمه ويعفو عن ظله .

لم يدخل الرسول عنجب ، ولا زھو ، ذهب بسياسة الذين إلى منتهى حكمته ، ولجا إلى القتال دفاعاً عن النفس والحقيقة ، وتم له النصر الذى

وعلمه ربه ، ودخل مكاناً فاتحاً ، فوضع رأسه وطأطأه على ثاقته وهو يسير .
وأعداؤه على الموان والعجز ، يخشى أن تمحنه نفسه من العجب أو الغرور .
ومن الصفات البارزة في الرسول الكريم وفاته ، والرسول عليه الصلاة
والسلام كان وفيأً بعهده لعدوه وبر عهده لصديقه .

والوفاء هو القوام للكارم الأخلاق ، به تستقيم الحياة ، وهو ميزان
المرودة ، ومقياس الفضل في الأفراد والأمم ، ولو دان به الناس لوجدوا
السعادة كاملة ، ولو أن العهود والمواثيق كان لها من الحرمة ما أراد الرسول
صلى الله عليه وسلم ، لما هبط العالم إلى حياة الدنس والكيد واللئيم المغوفدة
والجوار المتلهك ، واستقرت العلاقات الدولية على أثبات القواعد التي
تケفل السلم وتضمن الإنصاف وتستبق الكراهة للناس جميعاً .

وقيل إن رجلاً قال للرسول ، وهو يقسم بعض الغنائم في يوم خير
« يا رسول الله أنت أعدل ، فقال له الرسول « ويحك ! فلن يعدل إذا لم أعدل ،
خبت وخسرت إن لم أعدل » ، وكان عمر حاضراً ، فقال للرسول « دعني
أضرب عنقه فإنه خائن » ، فقال له الرسول « معاذ الله أن يتحدث الناس
أنني أقتل أصحابي » .

وأخرج أبو داود عن صفوان بن سليم ، أن الرسول قال « من ظلم
معاهداً أو اتفقاً أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغیر طيب نفسه فانا
حججه يوم القيمة » .

ويقول عبد الله بن أبي الحمام « بایعت محمدأ ، ووعدته أن آتیه في مكانه ،
خفست ، فذكرته بعد ثلاثة أيام ، فإذا هو في مكانه ، فلما رأته لم يزد على أن
قال « لقد شقتَ علىَ ، أنا هنا منذ ثلاثة أيام أنتظرك » .

وروى عائشة أن عجوزاً جات إلى النبي صلي الله عليه وسلم ، فقال لها
من أنت ؟ ، فقالت « مُحَاجِّةُ الْمُرْزِينَةُ » ، فقال « أنت حسانة ؟ كيف أتم ؟
كيف حالكم ؟ كيف كتمت بعذنا ؟ » ، قالت « بغير بابي أنت وأمى » ، فلما خرجت

قلت ، يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ١١ ، قال ، إنها كانت تأتينا زمن خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان ، .

ومن أعظم أمثال الوفاء التي نحن في أشد الحاجة إليها قوله صلى الله عليه وسلم ، يوم أحد ، حين أمر بburial of the qatali ، انظروا إلى عمرو بن الجبور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، فإنهم كانا متضارعين في الدنيا ، فاجملوهما في قبر واحد ، .

هذه كلها صفات من المجد والعظمة والرجلة ، لم يبلغها قبل الرسول عظيم ، ولم تجتمع كلها في رجل واحد ، وحسبه ما وصفه الله به في قوله « وإنك لعلى خلق عظيم » ، .

ولقد كان هذه الصفات التي امتاز بها الرسول في حياته ، أثرها في تربية أصحابه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فصنعتهم أبطالا ، وجعلتهم قادة ميامين ، سجلوا في تاريخ العسكرية مبادئ القيادة الصحيحة السليمة ، وأصوله العسكرية المجيدة ، وكانوا جميعا صورة مصفرة للقائد الأول والعسكري الأمثل محمد بن عبد الله .

ختام

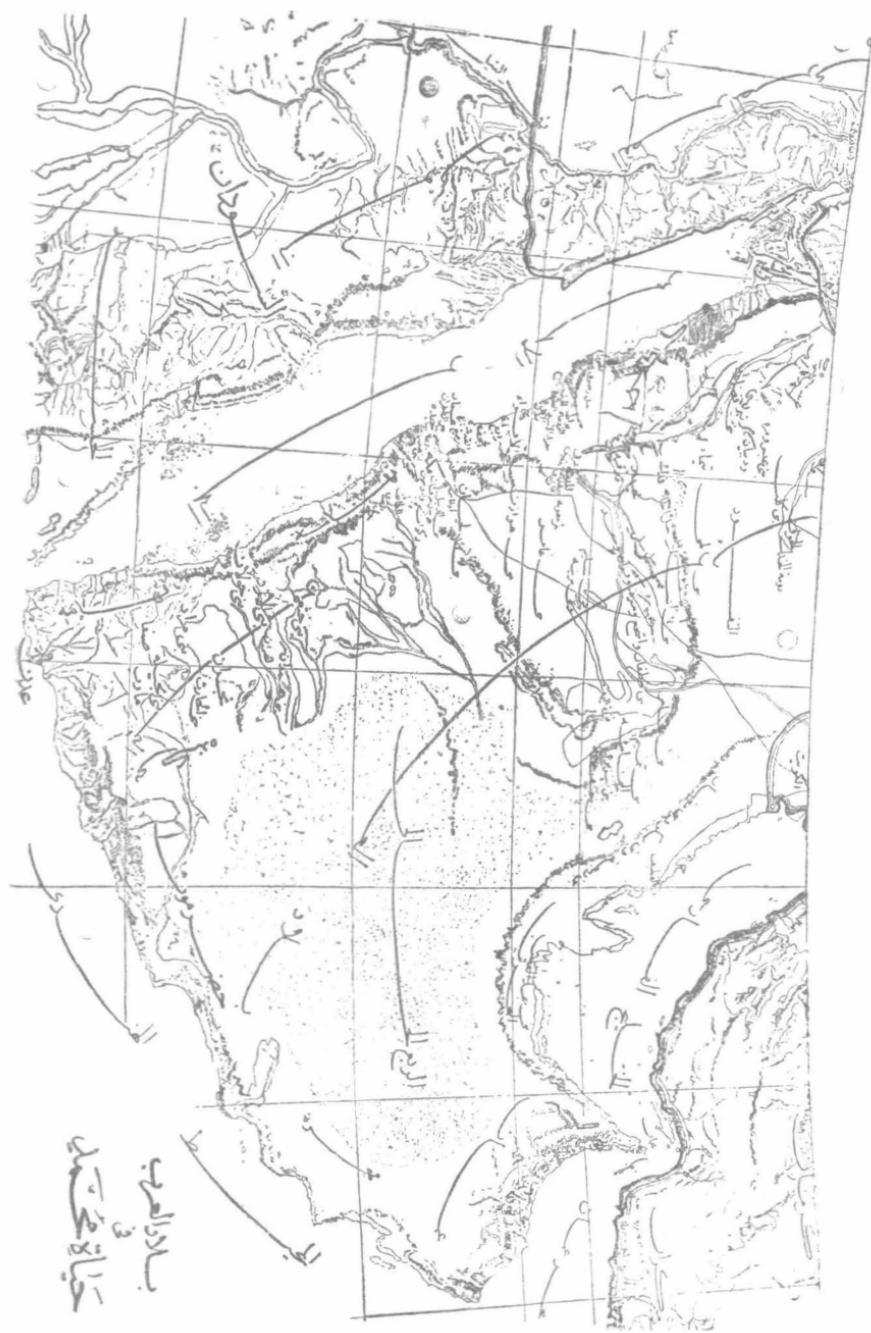
أما بعد

فإن غاية ما أرجوه ، أن أكون قد وقفت ، لما قصدت
إليه من هذا البحث ، وأن أكون قد مهدت به السيل ، إلى
باحث في موضوع الكتاب ، أكثر استفاضة وعمقاً .

ولقد بذلت من الجهد في ذلك ما وسعته طاقتي ، وأشهد
أن لم أبلغ من تجلية الجانب العسكري من السيرة ما يكفيه
عظمتها ، ولا ما قصدت إليه ...

أدعوا الله أن يهوي علينا من أمرنا رشداً وأن يهديننا لتي هي
أقوم ، بالاقتداء بسيرة سيد البشر ، وخاتم الأنبياء ، محمد
ابن عبد الله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد فرج



مجل المراجع

المراجع العربية

محمد عبد	الإسلام والنصرانية
سيد مظفر الدين نارق	التاريخ المحرافي للقرآن
جورجى زيدان	العرب قبل الإسلام
إسرائيل وبنفسون	تاريخ اليهود في بلاد العرب
محمد الفرازى	فقه السيرة
عبد الرحمن عزام	بطل الأبطال
الطبرى	تاریخ الرسل والملوك
الفرد بطر	فتح العرب لمصر
أبو محمد عبد الله بن هشام	سيرة ابن هشام
أبو عبد الله محمد بن عمر الواقى	المفارزي
محمد عبد	السيرة الحلبية
ابن سعد (طبعة بيروت)	تاریخ اليمقوبي
ابن الأثير	رسالة التوحيد
ابن عبد ربہ	الطبقات الكبرى
الأصفهان	ابن الأثير
ابن قتيبة	القد القریب

المراجع الأجنبية

Life of Mohamed
The Preaching of Islam
History of the Arabs

By Sir William Muir
By Arnold
By Philip Hitti

فہرست

三

الباب الأول

دراسة تمهيدية للحرب

١٩	المرء من وجهة نظر قريش ..
٢٠	لم يكن الرسول معتقديا ..
٢٣	المرء في القرآن ..
٣٧	عوامل القتال ..
٤٩	المرء في الأديان الأخرى ..
٤٩	أسلحة المرء عند المسلمين ..
٤١	توجيه جسمة المسلمين ..

الباب الثاني

غزوات الرسول

(1)

٤٨	مناوشات قبل بدر
٤٩	سرية حزنة
٥٠	سرية عبيدة
٥١	غزوة الأباء
٥٢	عزوة بواط
٥٣	غزوة المشيرة
٥٤	غزوة سفوان
٥٥	سرية عبد الله بن حفص

خزوة بدرالكبارى

٥٣	أسباب الفزوة ... من وجهة نظر المسلمين ..
٥٤	من وجهة نظر قريش ..
٥٤	لاستعداد للفزوة ... من جانب المسلمين ..
٥٨	من جانب قريش ..
٦١	الاشباك ..
٦٣	بعد المعركة ..
٦٥	نتائج الموقعة ... في جانب المسلمين ..
٦٦	في جانب قريش ..
٦٧	الدروس المستفادة ..
	محمد ويهود بنى قينقاع
٧١	مستصرف الفرار ..
٧٢	الحصار ..
٧٣	مناوشات قبل أحد ..
٧٤	الحصار الاقتصادي ..
٧٥	الدروس المستفادة من العمليات بعد بدروه ..

(٢)

خزوة أحد

٧٨	أسباب الفزوة ... من وجهة نظر قريش ..
٧٨	من وجهة نظر المسلمين ..
٧٨	الاستعداد للفزوة ... من جانب قريش ..
٨١	من جانب المسلمين ..
٨٦	مراحل القتال ... المرحلة الأولى ..
٨٧	المرحلة الثانية ..
٨٨	المرحلة الثالثة ..
٨٨	المرحلة الرابعة ..
٩٠	بعد المعركة ..
٩٢	نتائج الموقعة ... في جانب المسلمين ..
٩٢	في جانب قريش ..
٩٢	الدروس المستفادة ..
٩٥	جريدة أبي سلطة ..
٩٦	جريدة ابن أثنيس ..
٩٧	محمد ويهود بنى قينقاع ..

(۳)

غزوة الخندق

- | | | | |
|-----|-------------------------|------------------|---|
| ١٠٨ | | من جانب الأحزاب | أسباب الفزوة ... من جانب الأحزاب |
| ١٠٩ | | من جانب المسلمين | الاستمداد الفزوة... من جانب الأحزاب .. |
| ١١٠ | | من جانب المسلمين | الاستمداد الفزوة... من جانب المسلمين .. |
| ١١١ | | | المفر |
| ١١٣ | | | قريباً أيام المندى .. |
| ١١٣ | | | محاولات الاقتحام .. |
| ١١٥ | | | كسب حلفاء جدد .. |
| ١٢٠ | | | تأثير الجيو على العملية .. |
| ١٢٠ | | | المزعنة والفارار .. |
| ١٢١ | | | بعد الفزوة .. |
| ١٢٢ | | | الدروس المستفادة .. |

غزوات بعده الخندق

٦٤٤	أسباب الفزوة ..	غزوة الفتح
٦٤٥	ملاويات من أجل الصلح ..	
٦٤٦	فشل عاولة كشف أمراء الفزوة ..	
٦٤٨	التحرك ..	
٦٤٩	المغرب الباردة ..	
٦٥٢	خطبة الفزوة ..	
٦٥٤	تنفيذ الخطبة ..	
٦٥٦	بعد الفزوة ..	
٦٥٧	الدروس المستفادة ..	
غزوة حذين		
٦٥٩	أسباب الفزو .. من وجهة نظر هوازن ..	
٦٦٠	من وجهة نظر المسلمين ..	
٦٦٠	خطبة هوازن ..	
٦٦١	خطبة الرسول ..	
٦٦١	المسؤولية في المعركة ..	
٦٦٢	المعركة ..	
٦٦٣	الدروس المستفادة ..	
غزوة الطائف		
٦٦٤	الصار ..	
غزوة تبوك		
٦٦٦	أسباب الفزوة ..	
٦٦٦	التجهيز للمعركة ..	
٦٦٨	في تبوك ..	

الاب الثالث

(1)

میادیء الحرب

صفحة	
١٨٨	التصويف
١٩١	الطاردة
١٩٤	الحافظة على الفرض
١٩٧	السرية وسلامة القوات
٢٠٣	النظام والضبط والربط
٢٠٠	الغورى
٢٠٩	الأسرى
٢١٥	الروح السمعة في الحرب

(۲)

القوى المعنوية

العوامل التي تؤثر على الفرد منفرداً:

الباب الرابع

الرسول القائد

(1)

الصفات الشخصية للرسول كفرد :

الصفات الشخصية للرسول كقائد :

٤٦٠	...	سمة الاطلاع	...
٤٦٢	...	قوة الإرادة	...
٤٦٦	...	التدبر	...
٤٦٩	...	سُنْجَح	...
٤٧١	...	الشجاعة والمثابرة	
٤٧٤	...	الاهتمام بالجندي	..
٤٧٩	...	مواجهة الحقائق	
٤٨٠	...	القدرة البلاغية	
٤٨٥	...	السياسة	..
٤٨٩	...	صفات أخرى	..
٤٩٥	...	خمام	..
٤٩٩	...	سبل والمراجع	

استدراك

ص ١٧١ الباب الثالث بدلًا من الباب الخامس



مطابع الذاك القومية

١٥٢ - عبید شاعر - الفرع روض

٤٠٧٥٣ - ٤١٠٦٤
٤٠٨١٤ - ٤٠٥٨١